سلسلة
آفاق عالمية
137

المائة كتاب
100/21

رواية

إلى الفنار

فرجينيا وولف

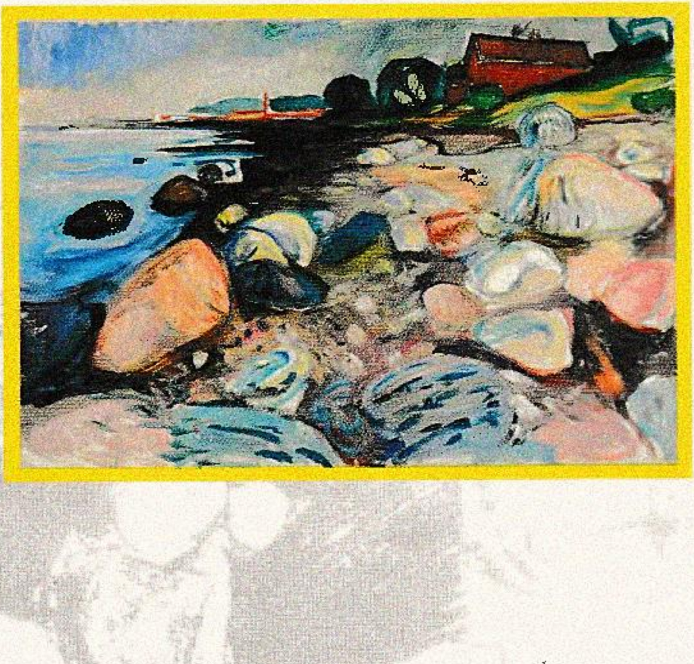

ترجمة وتقديم :
إيزابيل كمال

إلـــى الفنـــار

سلسلة
آفاق عالمية

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة
محمد عبد الحافظ ناصف

رئيس الإدارة المركزية
للشئون الثقافية
محمد أبو المجد

مدير عام النشر
ابتهال العسلي

الإشراف الفني
د. خالد سرور

• إلى الفنار
• ترجمة وتقديم: إيزابيل كمال
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة 2015م
• تصميم الغلاف:
أحمد اللباد
• رقم الإيداع: ١٠٤٦٩/ ٢٠١٥
• الترقيم الدولي: 978-977-92-0289-1
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالي: 16 أ شارع أمين سامي - قصر العيني
القاهرة - رقم بريدي 11561
ت: 27947891 (داخلي: 180)

• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

137

سلسلة تعنى بنشر الأعمال المترجمة إلى اللغة العربية في الأدب والنقد والفكر من مختلف اللغات

• هيئة التحرير •

رئيس التحرير
رفعت سلام

مدير التحرير
لطفي السيد

سكرتير التحرير
منى هيبة

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة بل تعبر عن رأي وتوجه المؤلف في المقام الأول.

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.
• يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابي من الهيئة العامة لقصور الثقافة، أو بالإشارة إلى المصدر.

ڤرچينيا وولف

إلـــى الفنـَــار

ترجمة وتقديم:
إيزابيل كمَال

وزارة الثقافة
الهيئة العامة لقصور الثقافة

....

ڤرچينيَـا وُولـف: إلى الفنَـــار

9 ما يشبه التقديـــم

29 إلى الفنَـــار

31 الجزء الأول: النـــافذة

203 الجزء الثاني: الوقت يمضي

235 الجزء الثالث: إلى الفنَـار

إلى من غابت عن دنيانا، لكنها باقية فينا؛

أستاذتي وأمي ..

الدكتورة فاطمة موسى

ما يشبه التقديم

ولدت ڤرچينيا وولف في الخامس والعشرين من يناير 1882، وقضت نحبها انتحارًا في الثامن والعشرين من مارس 1941. وهي أديبة وروائية بريطانية من أهم أدباء بريطانيا في القرن العشرين، ويعتبرها النقاد رائدة من رواد حركة التجديد في الأدب. وقد ساهمت إسهامًا فعالاً وكبيرًا في تغيير شكل الرواية الإنجليزية، بتطوير أسلوب السرد القصصي والروائي من خلال حسها التجريبي.واتسمت كتاباتها القصصية والروائية بتقنية ما يُعرف نقديًا بتيار الوعي، حيث تسبر أغوار شخصياتها الداخلية من خلال التوغل داخل أفكارهم، واستدعاء خواطرهم، بما يُسمى باستثارة حالات الذهن الإدراكية، حسيًا ونفسيًا، والتي تشكل نماذج وتداعيات الوعي البشري. وقد ألفت طوال حياتها 21 كتابًا.

وُلدت ڤرچينيا وولف في لندن باسم أديلين ڤرچينيا ستيفن، لأسرة محافظة. كان الأب السير ليزلي ستيفن يعمل مؤرخًا وناقدًا أدبيًا، أما الأم جوليا جاكسون داكوورث فتنحدر من نسل عائلة داكوورث التي اشتهرت بالعمل في مجال الطباعة والنشر. كان والدها مؤرخًا مرموقًا وكاتبًا وناقدًا

ومتسلق جبال، وهو المحرر المؤسس لمعظم السير الوطنية. وقد أثر عمل والدها هذا في الشكل والأسلوب الذى كتبت به رواياتها المندرجة تحت السير الذاتية التجريبية. أما والدتها جوليا ستيفن، فكانت سيدة رائعة الجمال، ولدت في الهند البريطانية للأبوين الدكتور جون وماريا باتل جاكسون. انتقلت جوليا مع أمها (جدة ڤرچينيا) إلى انجلترا، حيث عملت كعارضة لبعض الرسامين، مثل إدوارد برنيز جونز.

تعلمت وولف على يدَي والديها في بيت مثقف ومترابط. كان كلا الوالدين قد تزوج وترمل مسبقًا، وبالتالي كان البيت يجمع أطفالاً من الزيجات الثلاث. كان لدى جوليا- والدة ڤرچينيا- ثلاثة أطفال من زوجها الأول، هربرت دكوورث. أما ليزلي، والد ڤرچينيا، فقد تزوج أولاً من هارييت ماريان ثاكري، وأنجب منها ابنة واحدة هي لورا ماكبيس ستيفن، التي كانت معاقة عقليًّا. وقد عاشت مع الأسرة إلى أن أودعت في مصحة عقلية سنة 1891. وأنجب ليزلى وجوليا معًا أربعة أطفال، هم فانيسا وثوبي وڤرچينيا وآدريان.

تلقت ڤرچينيا وشقيقتها فينيسا (التي ستغدو فيما بعد الرسامة فينيسا بيل) تعليمهما في المنزل، وفق عادة ذلك العصر؛ وهو ما سيؤثر على تكوين شخصيتها فيما بعد، ويجعلها تثور ضد هذه المعاملة المجحفة للمرأة، وحرمانها من التعليم العادي، ومن المساواة مع الذكور الذين ينالون حظهم من التعليم النظامي؛ فقد التحق شقيقاها بالتعليم النظامي في المدارس والجامعات، بينما لم يكن أمامها من سبيل للتحصيل- هي وشقيقتها- إلا من خلال الاعتماد على الكتب الموجودة على رفوف مكتبة أبيهما، لتكوين ثقافتهما الخاصة.

عاشت ڤرچينيا حياة قاسية يظللها الحزن، بسبب الصدمات المتوالية

التي تعرضت لها في طفولتها. أولى تلك الصدمات كانت التحرش الجنسي من قِبَل أخيها غير الشقيق، وثانيها- عندما بلغت 12 عامًا- وفاة والدتها في العام 1894، لتحل أختها غير الشقيقة محل والدتها. لكن هذه الشقيقة توفيت أيضًا بعد أقل من عامين، وأصيب والدها بمرض السرطان ليتوفى في عام 1904. وبعد عامين من وفاة والدها، توفي أخوها في الغربة. كان ثمن كل هذه الأحزان والفقدان بداية إصابتها بالانهيار النفسي والعقلي المزمن الذي لازمها طوال حياتها. وبعد زواج أختها وانتقالها إلى مدينة أخرى، بدأت تشعر بالوحدة، لتجد متنفسها الوحيد في كتابة يومياتها.

ويعتقد الكثيرون من النقاد أن ڤرچينيا وولف قد وقعت فريسة فكرة تدمير الذات، وعملت عليها، حين أرادت طوال فترة شبابها استنزاف طاقات الجسد والعقل معًا في تلبية الرغبات والنزوات، وزجر الذات التي تريد الركون للراحة أو الهدوء، فضلاً عن عدم التزامها بالقيود الاجتماعية. وكانت طوال شبابها كثيرة السفر والسهر، وفريسةً للانهيارات العصبية والاضطرابات النفسية، كثيرة التردد على المستشفيات للعلاج والمراقبة.

وفي عام 1906، أصيبت بانهيار عصبي استدعى دخولها إلى المصحة العقلية، وهناك انتخبت ملكة جمال المجنونات في المستشفى.

وحين خرجت، أصر طبيبها على أن تعيش بهدوء كامل بعيدًا عن ضجيج المدن وناسها، ما أمكن ذلك. لهذا ذهبت لتعيش في كامبريدج لفترة من الزمن عند عمتها، ولم تتركها إلا بعد أن سمح لها طبيبها.

بعد عودتها إلى لندن، عملت في التدريس لمدة سنتين، إلا أنها اعتبرت تجربتها تلك غير مجدية. ولعل أهم ما في هذه التجربة هو أن صحتها قد استقرت خلال فترة التدريس تلك، وأن سلوكها انضبط كثيرًا مقارنةً بما

كان عليه سابقًا. لكنها كانت صاحبة شخصية قلقة، وتخاف من الغرباء والأصدقاء الجدد، وتحبذ عدم الاختلاط بأحد. وبدت طوال حياتها تقريبًا إنسانة منهكة، لديها نوبات قنوط ويأس واكتئاب ذات أعراض واضحة. وهو ما دفعها إلى رفض الزواج، باعتبار أن مؤسسة الزواج تحد من حرية المرأة؛ إلا أنها- في الثلاثين من عمرها- تعرفت على شاب يهودي يدعى ليونارد وولف كان يعمل في المجال السياسي في سيلان، وكان له دور مهم في تشجيعها على الكتابة والنشر.

وفي فترة الحرب العالمية الأولى، اشترت ڤرچينيا وزوجها مطبعة هوغارث.

حين بدأت الحرب العالمية الثانية، عادت ڤرچينيا إلى الصحافة كتعبير عن موقف وطني. يقول عنها الشاعر والكاتب تي إس إليوت- في تلك الفترة- إنه توقع رؤيتها في إحدى ساحات لندن تنظم المسيرات، وقد اعتمرت قبعة من الصفيح كالتي يعتمرها الجنود. لكنها في الحقيقة لم تكن مقتنعة بفكرة المقاومة المسلحة، ومواجهة القوة الألمانية، كما أنها لم تكن مقتنعة بكل الكلام الجميل الذى قيل حول بطولات الجنود الخارقة.

ومع تطورات الحرب، واحتلال الألمان بلجيكا وهولندا وباريس، بدأت ڤرچينيا تشعر بأنها تعيش كابوسًا حقيقيًّا راح يمزقها، ويدمر نفسيتها. وراحت تنظر إلى وجودها في الواقع كأنه وجود مزعج للبشرية كلها، لا لزوجها وأصدقائها فقط. وعاشت طوال شهور عديدة تعاني من صراع نفسي حاد ومزاج شخصي سيء.

وقد هاجمت ڤرچينيا في تلك الفترة الأدب الذى صدر عن الاشتراكيين والمثقفين اليساريين، فهاجموها بقسوة، وكان مدار الحوار حول علاقة

الأدب بالمجتمع والطبقات.

وساهمت تلك العوامل مجتمعةً في زيادة تشويش عقل ڤرجينيا وولف، فعادت تشعر بالصداع الشديد، وراحت تتردد على الأطباء بكثرة. كانت تعرف ما يدور في رأسها، فهي لا تريد الشفاء، وكان يمكنها تحقيق الشفاء فيما لو تعاونت مع الأطباء؛ ما إرادته هو الرحيل عن هذه الدنيا. لذلك، ودعت الحياة وأختها وزوجها برسالة وضعتها على رف الموقد في غرفة الجلوس صباحًا، ثم خرجت تتوكأ على عصاها، واتخذت طريقها عبر الحقول نحو نهر أوز، حيث تركت عصاها على ضفة النهر، وملأت جيوب معطفها بالحجارة، وأغرقت نفسها في النهر عام 1941.

بعد انتهاء التحقيق، احرقت جثة ڤرجينيا وولف بحضور زوجها وشاهد واحد في مدينة برايتون، ودفن الرماد في حديقة رودميل.

وقد بدأت ڤرجينيا بكتابة المقالات في عام 1905 في ملحق صحيفة التايمز الأدبي، ووصل عدد المقالات التي نشرتها إلى ما يقرب من 500

مقالة. وقد سيطر الطابع الحواري والتساؤلي على أسلوب كتابتها لهذه المقالات، ولم تحصر القارئ في دور المتلقي فحسب، بل طالبته بالمشاركة برأيه في الموضوعات التي تطرحها في تلك المقالات.

نشرت ڤرجينيا أولى رواياتها في عام 1915، بعنوان "**رحلة إلى الخارج**"، وساورها القلق من أن يظن القراء أنها كتابة اعتباطية، لا ترتبط بمنهج ما أو رؤية بعينها. لكاتبة تعاني من نوبات الجنون، وتعبر عن هذه النوبات من خلال الكتابة، وأنهم قد يرون أن الرواية مفككة لا تحكمها حبكة أو بنية درامية وفي عام 1919، ظهرت روايتها الواقعية "**الليل والنهار**" التي تدور احداثها في لندن، وترصد خلالها التناقض بين نموذجين مختلفين للمرأة، عن طريق حياة صديقتين وتعاملهما مع مدينة لندن. وقد عادت فيها ڤرجينيا وولف إلى الطريقة الكلاسيكية في الكتابة، حيث ساورتها الشكوك بصدد روايتها الأولى، واعتبرتها كتابة دون المستوى اللائق.

أما "**غرفة جاكوب**" (1922)، فتمثل سيرة حياة أخيها ثوبي الذي لقي حتفه في الغربة، ورسائله المفعمة بالحنين التي أرسلها إلى الأماكن الأولى والأصدقاء، وألم الفقد الذى يعانيه المغترب بعيدًا عن الآخرين الذين يعرفهم، وعن الأماكن التي يحبها. وقد لاقت الرواية استحسان القراء والنقاد، وقيل إنها كانت الجسر الذى عبرت عليه ڤرجينيا وولف نحو النجومية، بعد فشل روايتها السابقة "الليل والنهار". واستطاعت بروايتها "**إلى الفنار**" (1927)، و"**الأمواج**" عام (1931) ترسيخ اسمها كأحد رواد الحداثة في الأدب الإنجليزي. وتعد رواية "**الأمواج**" من أعقد رواياتها، حيث تتبع فيها حياة ستة أشخاص منذ الطفولة حتى الشيخوخة، عبر حوار ذاتي (مونولوج) يناجي كل واحد فيهم نفسه. وساهم نجاح رواياتها الثلاث

الأخيرة في تنشيط ذهنها لكتابة رواية جديدة تعزز حضورها الأدبي.

كتبت بعد ذلك رواية "**السيدة دالاواي**"، التي لاقت ترحيبًا من النقاد، وأطلقوا عليها اسم رواية اليوم الواحد، حيث تستدعي الشخصية الرئيسية في الرواية كامل حياتها منذ الطفولة، وحتى عمرها الحالي في الخمسين، خلال ترتيبها لحفل عشاء.

وجوهر الرواية أن السيدة دالاواي تحضر لحفل عشاء ستحضره شخصيات سياسية وثقافية واجتماعية رفيعة المستوى، ويُقام الحفل على شرف جندي أُصيب في الحرب العالمية الأولى، فأفقدته الإصابة الحركة. لكن الجندي لا يحضر الحفل، لأنه رمى بنفسه من نافذة منزله، خلاصًا من عاهته الجسدية والفكرية معًا. وحيث أن السيدة دالاواي تقيم في منزل مقابل لمنزل الجندي، فإنها تراه يلقي بنفسه من النافذة أثناء وصول رئيس وزراء بريطانيا إلى بيتها لحضور الحفل.

كتبت رواية «**أورلاندو**» 1928 و«**الأعوام**» 1937، و«**بين الفصول**» 1941. كما عملت بالنقد، ومن كتبها النقدية «القارئ العادى» 1925، و«موت الفراشة ومقالات أخرى» 1943. أيضا كتبت ترجمة لحياة «روجر فراي» 1940، وكتبت القصة القصيرة، وظهرت لها مجموعة بعنوان "الاثنين أو الثلاثاء" 1921.

وبعد أن انتهت من كتابة روايتها "بين الأعمال"، التى نشرت بعد وفاتها، أصيبت ڤرچينيا بحالة اكتئاب مشابهة للحالة التي أصيبت بها من قبل. وازدادت حالتها سوءًا بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية، وتدمير منزلها في لندن، والإستقبال البارد الذى حظيت به السيرة الذاتية التي كتبتها عن صديقها الراحل روجر فراي، حتى أصبحت عاجزة عن الكتابة.

وفي رسالة انتحارها كتبت لزوجها:

"عزيزي، أنا على شفا حفرة من الجنون، ولا أحسب أنه بوسعنا العودة لمعايشة تلك الأوقات العصية مجددًا، كما لا اظن بأنني سأنجو وأتعافى هذه المرة. فقد بدأت تلك الأصوات تفقدني صوابي ولم أعد قادرة على التركيز. لذلك قررت أن أفعل ما أراه صوابًا. لقد منحتني سعادة بالغة، وفي رأيي فلم يحظ شخص آخر بهذا القدر من السعادة الغامرة كما عشناها نحن الاثنين معًا إلى أن أصبتُ بهذا المرض الفظيع. لا أملك القدرة على المقاومة بعد الآن وأدرك تمامًا أنني أفسد حياتك، وبدوني ستكون حياتك أفضل. أنا متأكدة من ذلك، اترى؟ لا أستطيع حتى أن أكتب لك هذه الرسالة بشكل جيد، لا أستطيع أن أقرأ. كل ما أريد قوله هو أنني أدين لك بسعادتي. لقد كنت عطوفًا عليَّ وتحملتني بصبر جميل. والجميع يعرفون ذلك. لم يساعدني في حياتي أي شخص بقدر ما ساعدتني وأسعدتني. لا أؤمن بأى شيء الآن عدا أنك إنسان عظيم. لذلك لا يمكنني أن أظل على قيد الحياة لأواصل تخريب حياتك، ولا أعتقد أن هناك من شعر بالسعادة مثلما شعرنا بها".

ڤرچينيا والمرأة

كان عدم السماح لڤرچينيا وولف بالالتحاق بالمدرسة، مثل إخوتها الذكور، دافعًا قويًا للاحتجاج على تلك التفرقة بين البنت والولد، وتدني

نظرة المجتمع إلى كيان المرأة وأحقيتها في التعليم. كما كان أكثر ما ساءها رضوخ المرأة، وتقبلها الأمر بسلبية تامة.

انضمت ڤرچينيا في مطلع شبابها إلى منظمات اجتماعية عديدة تدعو إلى المزيد من حرية المرأة. فقد كانت مؤمنة أشد الإيمان بفكرة جوهرية مؤداها أن القوانين والأعراف والتقاليد من صناعة الرجل، وقد أوجدها الرجل لكى تظل المرأة ظلاً له، وأن ذاتيته المتضخمة وأنانيته المفرطة هي سبب أوضاع المرأة المتردية، وضحالة مكانتها الاجتماعية، وبؤس منزلتها مهنيًّا.

وتكشفت سمات رفضها للواقع من خلال ما كتبته من مقالات كثيرة، رصدت فيها تناقض التوجهات الاجتماعية نحو كل من المرأة والرجل، أهمها مجموعة مقالات بعنوان "غرفة تخص المرء وحده" عام 1929، تحكي فيها كيف كان يتم رفض خروجها من المنزل، ومنعها من دخول مكتبة الجامعة لمجرد أنها امرأة. وفي تلك المقالات أعربت عن رأيها في استحقاق المرأة أن يكون لها دخلها المالي الخاص، ومساحة من المكان خاصة بها لكى تتمكن من إنتاج الفن والأدب.

كما تطرقت في كثير من المناسبات إلى العراقيل المجحفة التي توضع عن قصد وسوء نية لإجهاض مشروع المرأة الأدبي والثقافي، وقامت برصد الاختلاف بين المرأة- بوصفها موضوعًا يُكتب عنه- وبين المرأة كمبدعة من حقها هي شخصيًّا أن تكون لها وجهة نظرها الخاصة التي تعبر عنها من خلال قلمها هي ذاتها.

ولذلك أكدت ڤرچينيا وولف على أهمية حدوث تغيير حتمي في شكل الكتابة، لأن معظم الإنتاج الأدبي يكتبه رجال، انطلاقًا من رؤيتهم الخاصة وتبعًا لأغراضهم الشخصية.

كما تطرقت إلى إمكانية وجود عقل لا يحكمه النوع (أى لا تسيطر عليه سمات الذكورة أو الأنوثة)، ودعت النساء إلى إنتاج كتابة تخص المرأة وحدها.

❖

ومن أول الأسئلة التي أثارت ارتباكًا وحيرة لديَّ كانت أسماء الشخصيات، لعلمي أن الكاتب- في كثير من الأحيان- يضع أسماء شخوصه عن عمد وبقصدٍ ما، كإشارة رمزية إلى أمرٍ ما، وليس اعتباطًا. ووجدتنى أبحث في مواقع الانترنيت عن اسم العائلة التي ينتمي إليها أبطال الرواية، وتنتمي إليها الشخصيتان الرئيسيتان في العمل؛ وهما السيدة والسيد "رمزي"، أو بالأحرى اسم العائلة "رمزي"؛ حيث أن نسبة لا بأس بها من الأمريكيين والبريطانيين وغيرهم من الشعوب التي لا تنطق العربية تنتشر بينهم أسماء تبدو لنا عربية، أو شبيهة تمامًا بأسماء عربية.

هكذا بدأت بالبحث أولاً عن كيفية النطق، فوجدتها مطابقة لنطقنا لاسم رمزي، لكني وجدت أن اسم "رمزي" الوارد بالرواية اسم انجليزي قديم، معناه جزيرة الكبش أو جزيرة الغراب. وهنا تأكدت من قصد الكاتبة، حسب رؤيتى الخاصة للرواية؛ حيث تدور أحداث الرواية في جزيرة صغيرة قريبة من الفنار، وتسيطر شخصية الأب السيد رمزي على باقي شخصيات الرواية سيطرة ذكورية بائسة. ربما لذلك قصدت الكاتبة أن ترمز له بالغراب الذى يبسط جناحيه على الشخصيات الأخرى، خاصةً زوجته وأولاده، الذين لا يكنون له غير الكُره، ويتمنون أن تخلو الصورة منه حتى يستمتعوا بحياتهم التي يضيقها عليهم، ويتحكم فيها، ويطالبهم بتنفيذ رغباته ولو في صمت. حتى باقى شخصيات الرواية الذين لا ينتمون لعائلته يضيقون به، وبرغبته الملحة في الإطراء والتملق من جانبهم.

وفي المقابل، يتقول البعض- داخل الرواية- على الشخصية الرئيسية الأخرى، وهي الزوجة، السيدة رمزي، بأنها تتدخل في شئون الآخرين، وتحاول السيطرة عليهم، وتملى عليهم ما تريدهم أن يفعلوه، دون اهتمام منها بما إذا كان هذا مناسبًا لهم أم لا، وما إذا كان يتماشى مع رغباتهم أم لا.

وكما هي عادة ڤرچينيا وُولف غالبًا في معظم كتاباتها، فإنها تبدأ روايتها "إلى الفنار" بداية مباغتة، بحوار مبتور في منتصف حدثٍ ما، كأنما القارئ يشاركها الأحداث مسبقًا، ويعرف ما يدور من قبل. فهناك الطفل الصغير الذى يرغب في الذهاب إلى الفنار، وهناك الأب الذى يرفض الفكرة، متعللاً بأن الجو لن يكون مناسبًا لرحلة كهذه، فيما تحاول الأم أن تخفف من وطأة كلمات الأب القاسية على الولد وإحباطه، متمنية أن يخلف الله ظنه، وأن يكون الجو صحوًا في الغد ومناسبًا للذهاب الى الفنار. ومن خلال تلك السطور القليلة، تضعنا الكاتبة مباشرةً أمام لب المشكلة والصراع الرئيسى في الرواية بين شخوصها، كما تكشف عن سماتهم الشخصية ومكنونهم. لكنها بعد سطور قليلة تكشف له (أى القارئ) علاقات الشخصيات ببعضها البعض ظاهرًا وباطنًا، لتنطلق بنا عبر صفحات روايتها.

هي رواية "تعدد الألسنة". فأنت لست أمام راوٍ واحد! فالجميع هنا يحكون، يحكون عن أنفسهم وعن الآخرين؛ الجميع يتذكرون؛ والجميع يصدرون أحكامهم على أنفسهم وعلى غيرهم؛ والجميع تتداعى في أذهانهم الذكريات. وبذلك تملك كاميرا متحركة تصور لك الأحداث الماضية والحاضرة والمستقبلة من زوايا متعددة. نهجٌ قد يكون مربكًا، وقد يلقي المزيد من الضوء في طريقك، فيكون عاملاً مساعدًا لفهم عمل ليس

سهلاً على الإطلاق؛ عمل يتراوح بين الرواية والقصيدة. عمل يتأرجح بين سرد تفاصيل الحياة اليومية البسيطة وسبر أغوار عوالم باطنية مشحونة بالصور والشخوص والمشاعر المكبوتة.

ومن خلال هذا التداخل والتشابك نتعرف على الأحداث من زوايا متعددة، لتكون قراءتنا فاعلة؛ إذ علينا أن نعيد تركيب هذه الأجزاء لنكوِّن صورة واضحة مفهومة.

وإذا كنا تحدثنا عن تلك البداية المباغتة، من خلال حوار يدور بين طفل يرغب في الذهاب إلى الفنار وأم حنون تبث فيه الأمل وتطيب خاطره من جهة، ومن جهة أخرى أب (يعرف كل شيء ويسخر من الأم التي يعتبرها جاهلة لا تعرف شيئًا عن أمور الطقس، ولا تقرأ الكتب)، يقطع يقينًا بالرفض؛ فإن الرواية تنتهى أيضًا عند هذه البداية المباغتة التي عنونت الرواية : "إلى الفنار"... كأنما الرواية قصيدة روندو (حلزونية) تبدأ وتنتهي عند نفس النقطة. فأحداث الرواية تنتهي في نفس المكان على الجزيرة الصغيرة من نفس المنزل، ويدور الحديث مرةً أخرى حول الذهاب إلى الفنار، وتختم الرواية أحداثها بمشهد الأب والإبن وشقيقته في قارب على سطح الماء في طريقهم إلى الفنار. لكن الاختلاف هو عدم وجود الأم.. وعدم رغبة الطفل ـ الذى صار شابًّا ـ في الذهاب إلى الفنار. لكنها ـ ويا لسخرية الأقدار، هذه المرة ـ هي رغبة الأب في الذهاب إلى الفنار!

فبعد عشر سنوات من الحوار الافتتاحي تنتهي أحداث الرواية في نفس المكان، منطلقة من نفس الموضوع، وهو الذهاب إلى الفنار. لكننا نجد الأب وقد صار عجوزًا، والطفل صار شابًّا، والأم غير موجودة حيث وافتها المنية! فالأب العجوز وابنه الشاب وابنة أخرى ذاهبون إلى الفنار! لكم تتأخر الحياة في الاستجابة لرغباتنا! وهل ما نزال بعد عشر سنوات نرغب نفس

الرغبات؟ إن الولد الذى كان الذهاب إلى الفنار يمثل له أقصى سعادة في الحياة لم يعد الآن راغبًا في الذهاب إليه، بل يمضى مكرهًا على أمر لا يمثل له سوى حالة من القمع والسيطرة من الأب العجوز، وحالة من الرضوخ والاستسلام منه ومن شقيقته التي تكبره بعامين تقريبًا. حتى الصياد الفقير الذى سيتولى قيادة القارب مع ابنه، يذهبان معه مرغمين. إن الذهاب إلى الفنار- الذى كان في بداية الرواية رغبة ملحة من الطفل، الذى صار في نهاية الرواية شابًّا في مقتبل العمر- لم يعد يمثل رغبته البتة، بل هي رغبة الوالد الذى كان في بداية الرواية يرفض الذهاب!

إنه جمود شخصية الأب، الذي لا ينضج أبدًا، ولا يتطور ذهنيًّا أو نفسيًّا، رغم مضى كل هذه السنوات، ورغم فجيعته في موت الزوجة، والإبن الذى قُتل في الحرب على إثر انفجار قذيفة أودت بحياته في لحظة، وفقده لابنته التي لاقت حتفها وهي تضع مولودها الأول!

وسنجد في مشهد النهاية- المقسم إلى منظرين- منظر الأب المستبد المسيطر على الكون من حوله على سطح قارب، فوق سطح الماء، متجهًا نحو الفنار، رغم أنه ليس مَن يقوده، لكنه يسيطر على مَن يقوده، ويملي أوامره على الجميع، إلى أن يصلوا إلى الفنار، حيث تتحقق إرادة السيد رمزي رغم أنف الجميع. والمنظر الآخر لِليلي بريسكو، الشخصية الضائعة التى قدمت فيها ڤرچينيا وُولف نموذجًا مغايرًا للمرأة، مغايرًا للبطلة التي أفنت حياتها في إنجاب الأطفال ورعايتهم والحدب عليهم، مع جزء قليل من حياتها تمنحه لفعل الخير وتقديم الإحسان والعون للمحتاجين، كامرأة مسيحية تتبع تعاليم الإنجيل. أما لِيلي بريسكو، فتتنازعها الأفكار والأحلام، ربما لا تملك من الموهبة الفنية ما يؤهلها للنجاح الباهر والشهرة؛ فلا هي سمعت كلام السيدة رمزى وتزوجت، ولا هي نجحت

في ممارسة الفن الذى تحبه؛ فنجدها في هذا المشهد الأخيرـ الذى تنتهي به الروايةـ تسترجع الكلمات الذكورية التي صبها أحد شخوص الرواية في أذنها ذات يوم: "المرأة لا تتقن الكتابة.. المرأة لا تتقن الرسم"! في هذه اللحظة المحورية التى تطرح فيها الكاتبة رؤيتها النهائية، وتنهي بها عملها، تعثر لِيلي بريسكو أخيرًا على ذاتها، وتتفتح بصيرتها بإكمال لوحة كانت تعمل عليها بعد هجر عشر سنوات؛ وبهذا تعثر على ذاتها، وتتأكد لديها ثقتها في ذاتها وفي لوحتها الفنية، حتى لو كانوا سيلقون بها في العلِّيَّة وسط الكراكيب أو تحت أريكة.

❖

وڤرچينيا وُولف كاتبة صادمة للقارئ، لأنها تقفز به زمنيًّا ومكانيًّا فجأةً، وفي اختيارها لأدق المفردات المعبرة عن الإحساس أو الحدث تجعله مضطرًّا للتركيز الشديد معها، حتى لا يتوه منها أو تتوه منه.

ورغم الفارق الزمنى والمكاني، فأحداث الرواية تجري في بدايات القرن العشرين في جزيرة صغيرة إنجليزية، لكن القارئ يستطيع أن يعايش شخصياتها وأحداثها هنا في زماننا ومكاننا هذا، دون أن يصنع ذلك الفارق الزمني والمكاني فارقًا شعوريًّا أو ذهنيًّا.

وعندما تبدأ الرواية بكلمة البطلة... "نعم، بالطبع، لو كان الجو صحوًا غدًا".. ستدرك أن ڤرچينيا وولف تعرف أن نجاح محاولاتنا في الحياة، أو محاولات نجاحنا في الحياة، وتحقيق أهدافنا مرهون بظرف مناخي! والمناخ هنا لا ينحصر مطلقًا في درجة حرارة الجو، بل هو الثقافة المحيطة بنا، وظرفنا الاقتصادي، وظرفنا الصحي، إلى غير ذلك مما يساعد على تحقيق أهدافنا أو يحبطنا، بفشل مُصدر إلينا لعجزنا عن مقاومته أو التخلص منه،

كما أن "غدًا" هو المساحة المتاحة لتحقيق الآمال، فنقضى طفولتنا وباكورة شبابنا في الحلم بالغد؛ وعندما يأتى الغد...! فقد يكون لنا أو علينا!

والرجل عند ڤرچينيا وولف، هو الذى يحدد هذا الفعل؛ فهو الأكثر معرفة والأكثر خبرة بالحياة وبظرفها المناخي. وعندها يأتى الرد حاسمًا صارمًا.. لن يكون الجو صحوًا؛ فالرجل يحكم اليوم ويحكم الغد، بحسم، وعلى الجميع أن ينصاعوا له ويخفضوا الرؤوس!

والأسرة لديها بحر من الأمواج، من الجزر والمد، على السطح العائلة المستقرة والمتحدة والمتماسكة، لكنها عندما تسبر غور مشاعر الأطفال نحو والدهم، تجدهم يكرهونه ويتمنون أن يقتلوه..

لقد أجهضت البطلة كل أحلامها الخاصة بها، ولم تنجز شيئًا في حياتها مقابل قيامها برعاية ثمانية أطفال. ولا شك أنها سعيدة بأطفالها، وعلاقتها بهم على خير ما يرام، لكن حتى أبسط الأمور العامة والقضايا الإنسانية- مثل إنشاء مستشفي جيد، ومعمل ألبان في الجزيرة التي يعيشون فيها- لم تستطع السيدة رمزي أن تقوم بهما، أو حتى تدعو إليهما، لانشغالها الدائم بأطفالها، الذين لا تريد لهم أن يكبروا، ويفقدوا فردوس السعادة المرتبط بمرحلة الطفولة؛ وإذا راودتها فكرة أنهم لابد أن يكبروا ويفقدوا هذه السعادة، فإنها تتمنى لهم أن ينجحوا في حياتهم مثلما نجحت هي. فهي لم تعرف للحياة وجهًا آخر ونجاحًا آخر إلا من خلال الزواج والإنجاب، إلى حد أن تقول عنها إحدى شخصيات الرواية الرئيسية "لِيلي بريسكو": "شغلها الشاغل أن يتزوج الجميع، فليتزوج هذا من تلك حتى لو كانوا أشخاصا غير متآلفين". إنه سقوط الوعي، والشَّرك الذى سقطت فيه المرأة عندما تحاصرها جدران منزل باسم الزواج وتربية الأطفال وشغل التريكو وحياكة الجوارب. لكن حياكة الجورب الذى تمسك به من أول الرواية حتى

آخر مشهد لها على قيد الحياة، ترمز لارتباطها بالآخرين وحبها لتقديم المساعدة لهم، والاهتمام بمفردات حياتهم وما ينقصهم وما يحتاجونه. إنها تصنع جوربًا لابن حارس الفنار، المصاب بداء السل، والمعرض لتورم المفاصل.

فالمرأة عند ڤرچينيا وُولف معطاءة، تمنح نفسها للآخرين، سواء كانوا أفراد عائلتها الصغيرة أو أفراد عائلتها الكبيرة، كمجتمع إنساني حولها، وتنسى ذاتها، ولا يبقى لها من هذه الذات إلا كبح الانفعالات الخاصة!

أما الرجل، فعلى النقيض من ذلك؛ فالأنا تسيطر عليه من كل ناحية. تقول لِيلي بريسكو عن السيد رمزى بطل الرواية: "يأخذ ولا يمنح".. فيما ظلت السيدة رمزي تمنح وتمنح وتمنح حتى فارقت الحياة. إنه يطلب من الآخرين أن يمتدحوه ويتملقوه، مقابل لا شيء، وهو لا ينشغل بأي شخص سواه، حتى يقول عنه في نهاية الرواية أحد أبنائه إنه لا يفهم الحالة النفسية لأي شخص. وحين يبحث عن موضوع للحوار بينه وبين ابنته لا يعرف فيم يتجاذب الناس أطراف الحديث. شخص أقام حول نفسه حصنًا منيعًا وانعزل داخله.

إنها معاناة المرأة في متنصف العمر. فالسيدة رمزي لا تجرؤ على النظر في المرآة، وترفض أن ترى وجهها فيها؛ تنظر إلى عنقها وكتفيها، وتحاول اختيار ما يصلح لزينتها من أكسسوارات وحليْ، لكنها لا تنظر إلى وجهها الذى رسمت عليه السنون آثارها، وخطت تجاعيدها. ولذلك تجد سلوانها وعزاءها في انغماسها في ذكرياتها، عندما كانت فتاة بلا متاعب ولا تجاعيد نفسية أو بدنية، واعتزازها بنسبها وحسبها. وزياراتها للحجرة الضيقة فاسدة الهواء لمساعدة أرملة فقيرة، أمر يعبر عن انشغالها بمتاعب الإنسانية من فقر ومرض ومعاناة لا تجد لها حلاً.

لقد حشدت ڤرچينيا وولف شخصيات متنوعة في روايتها. فرغم أن البطلة- التي يأتى أغلب السرد على لسانها- مجرد زوجة وربة بيت، فلم تقل لنا حتى إنها تشرع أو تحلم بشيء آخر؛ لكن- على النقيض من ذلك- فهناك العالم الملحد، وهناك الشاعر التقليدي، وهناك الفنانة التشكيلية التي تدرك تمامًا أنها بلا مستقبل مشرق في عالم النجاح، وأن لوحتها مصيرها الإهمال.

وكان لابد لڤرچينيا وولف- الإنسانة، وتأثرها الشديد بالحرب العالمية الأولى- أن تلقي بثقل الحرب داخل الرواية، من خلال البطل الشاب ابن السيدة رمزي الذى يلقى حتفه على إثر انفجار قذيفة في الحرب، ولكن- حمدًا لله- فلم يتعذب كثيرًا، ومات فورًا بعد إصابته بهذه القذيفة!

وتأخذ عناصر الطبيعة حيزًا من اهتمام الكاتبة في المشهد المرئي؛ فهناك البحر والمرج والأشجار والزهور والشاطئ؛ مناظر مسيطرة على الرواية من بدايتها حتى نهايتها. فتبدأ الرواية بالحديث عن الذهاب إلى الفنار، وهو جزء من الطبيعة من خلال وجوده في عرض البحر قريبًا من الشاطئ، كما أن الفنار لو تناولناه بمفرده كرمز لأوحى لنا بالكثير. فالأبطال- لدى ڤرچينيا وُولف- شاخصون نحو الفنار أو المنارة، ذلك البناء الرأسي الشامخ الذي يهدى السفن في رحلتها على سطح الماء. فهل تبحث ڤرچينيا عن دليل أو مرشد يهدي النفوس الضائعة في الرواية، وترمز بالفنار لذلك المعادل الموضوعى؟

وكل النفوس في الرواية حائرة ومرتبكة، ومشوشة إلا في لحظات قليلة؛ يسيطر عليهم القلق، والبحث عن الذات يشغلهم؛ فالسيدة رمزي تفيض بحبها واهتمامها على الجميع إلى حد أن تتهم بأنها مستبدة ومسيطرة، لمغالاتها بالتدخل في شئون الآخرين، رغم أنها محسنة وخيرة بطبيعتها، وتذهب إلى بيت فقير لتقدم لهم المساعدة رغم أنهم يستضيفونها في حجرة

ضيقة فاسدة الهواء؛ وانشغالها بحياكة جورب لابن حارس الفنار. ثم في لحظة كاشفة، تعترف بينها وبين نفسها أنه برغم ما يحيط باندفاعها لنصيحة الآخرين رغبةً في إسعادهم ظاهريًا، إلا أن الأمر لا يخلو من نوع من عبادة الذات وحب التفوق؛ هذه السيدة المشغولة بتربية ثمانية أطفال تصارع أحيانًا ذاتها الداخلية، وفي الوقت ذاته تبدو- في كثير من الأحيان- ناقمة على حياتها، وتستشعر ضياع وقتها وعمرها في تفاصيل بيتية تافهة؛ لكنها لا تطرح بديلاً لهذه الحياة. وعندما تتطلع إلى الكتب التي أهداها لها كُتاب وشعراء ولم تجد الوقت لقراءتها، عندما تتذكر أن زوجها يراها جاهلة وغير مطلعة، تنتابها الحسرة على ما هي فيه. ويمكننا القول إن رغبتها الجامحة في تزويج كل مَن حولها لربما نابعة من ألاّ يتفوقوا عليها في اختيارهم لدرب مختلف في الحياة، بل ليعيش الجميع كما عاشت؛ ففي ذلك أيضًا سعادة لا تقارن بشيء آخر، وهي حالة التأرجح التي تعانيها طول الوقت بين الرضا والرفض للواقع المعاش.

فمَن منا راضٍ بدربه واختياره؟ فكلنا لدينا تصورات أخرى عن حياة أخرى غير التي نعيشها، وشد ما تتضخم هذه العلة داخل المرء مع مرور السنوات، فنشعر بالندم والحسرة، وتزيد هذه الحالة مرضيًا في سن الخمسين بالفعل؛ وهي المرحلة العمرية التي تمر بها السيدة رمزى.

أما الزوج السيد رمزي، فرغم نجاحه، كأستاذ جامعي ومحاضر، إلا أن الشكوك تساوره كثيرًا عن مدى قيمة إنجازه، وكم من العمر سيستمر هذا الإنجاز مشعًا ومضيئًا؟ ويستطرد في حواره الذاتي ومناجاته الداخلية متسائلاً عن القيمة التي قدمها الأدب والفن للحياة؛ فأيهما أكثر أهمية للحياة، شكسبير أم عامل المصعد؟ وينظر له البعض متسائلين هل الزواج وإنجاب ثمانية أطفال قد أعاقه بالفعل عن المزيد من النجاح، والاهتمام بمستقبله

العلمي؟ هل كان سينجز المزيد من الكتب لو أخلص للحياة الأكاديمية، ولم ينشغل بتربية وإطعام ثمانية أفواه؟

تبدو الرواية رحلة بحث عن الذات، تنتقل بنا الكاتبة من حدث لآخر، ومن شخصية لأخرى، دون سابق إنذار، لإثارة وعينا بطرح حالة من التغريب، لتضعنا في نفس حيرة وارتباك شخصياتها التي لا تبتعد عنا كثيرًا. فهي ليست رواية تقليدية، تسير من بداية إلى وسط الى نهاية؛ بل هي خطوط متشابكة ومتقاطعة تتلاقى وتتنافر طول الوقت، ما بين الصراع الداخلي الذى تعانيه كل شخصية داخل ذاتها، والصراع الشفاف الواهن بين الشخصيات. فها هي لِيلي بريسكو- التي تعرف حق قدرها، وتعترف ضمنًا وصراحةً أنها ليست فنانة تشكيلية حقيقية، ولن تصل الى شهرة، ولن يذيع صيتها، ولن تعلق لوحاتها في المعارض أو في غرف الاستقبال- جل ما ستصل إليه أن تُلقى في عليِّة مع أكوام الكراكيب، أو تُطوى تحت أريكةٍ ما، لكنها تُصر على أن تواصل طريقها في الرسم، رغم أنها تقول بوضوح إنها تلعب بما لا يلعب به أحد، وهو الفنون التشكيلية.

ومع تغلغلنا في صفحات الرواية، نكتشف أنها لم تتزوج، ولم تنجح كرسامة، فأي ضياع هذا؟ هل تريد منا الكاتبة أن نقارن بين شخصية البطلة السيدة رمزي- التي أفنت حياتها في الزواج والإنجاب، وظلت تمنح الجميع حتى فارقت الحياة، رغم تمردها الداخلى على هذ النوع من الاختيار- وبين لِيلي بريسكو، التي لم تحظَ بزواج، ولا بنجاح على مستوى الحياة العملية في ممارسة مهنة معينة؟ هل تؤكد علينا ڤرچينيا وُولف عبثية الحياة، كما تراها؟ أن المرء- في النهاية- لا يرضى بشيء، وأن كل الاختيارات متساوية، مثلما قالها ت. س. إليوت؟

أم أنها تريد أن نأخذ الأمور بجدية أكثر، ودراسة أكثر، أو- بمعنى أصح-

بوعى أكبر؟ وهو ما لا يتعارض مطلقًا مع نمط كتابتها المنتمية لتيار الوعي. هل هذا هو الوعي الذى تريده منا؟ وأي وعي؟ هل هو الوعي بعبثية الحياة؟ أم الوعي بدربنا الذى نسير فيه، وكيف نجعله مرضيًا لنا، ونخرج من دائرة الصراع؟

ڤرچينيَا وُولــف

إلى الفنَـــار

هذا العمل ترجمةٌ كاملة ودقيقة لرواية:

Virginia Woolf,

To the Lighthouse

1927

الجزء الأول

النَّـــافذة

الفصل الأول

قالت السيدة رمزي، "نعم، بالطبع، لو كان الجو صحوًا غدًا". ثم أضافت "لكن عليك أن تستيقظ مبكرًا مع القُبَّرة".

حملت كلماتها هذه بهجة غير عادية إلى ابنها، كما لو كانت قد حسمت الأمر، بأن هذه الرحلة الصغيرة ستحدث فعلاً، والمعجزة التي كان يتوق إليها، لأعوام وأعوام، بدا أنها- بعد ظلام ليلة وإبحار نهار- في متناول اليد. ذلك أنه كان ينتمي إلى سلالة كبيرة لم يكن أفرادها، حتى في السادسة من العمر، يحبذون الحفاظ على أي شعور منفصل عن غيره من المشاعر، بل عليهم أن يدعوا المستقبل يزدهر، بأفراحهم وأتراحهم، ملقيًا بغيومه الداكنة على ما يوشك بالفعل أن يحدث، لأن أي انعطاف في عجلة الأحاسيس عند مثل هذا النوع من البشر- حتى في بواكير الطفولة- لديه القدرة على بلورة وتثبيت اللحظة التي يقع فيها الغم أو البهاء، كان جيمس رمزي جالسًا على

الأرض يقص الصور من كتالوج مصور من متاجر الجيش والبحرية، وقد منحته العناية السماوية صورة ثلاجة، أثناء حديث والدته. كان ذلك مبعثًا للبهجة. آلة جز العشب، عربة جمع القش، صوت حفيف أشجار الحور، الأوراق المبيضة قبل المطر، نعيب الغربان، أصوات ارتطام المقشات، حفيف الأثواب- كل تلك الأشياء كانت في ذهنه زاهية الألوان ومتميزة لدرجة أنه بالفعل كانت لديه شفرته الخاصة، ولغته السرية، رغم أنه أظهر صورة القوة والتجهم العنيد، بجبهته المرتفعة وعينيه الزرقاوين الوحشيتين، في صراحة ونقاء بلا شائبة، متجهمًا قليلاً إزاء منظر الضعف الإنساني، لذلك راحت والدته- فيما كانت تراقبه وهو يمسك بالمقص بدقة ويدور به حول صورة الثلاجة- تتخيله كله متوهجا بالحماس ومغطى بفراء القاقم يجلس على مقعد القاضى أو يطارد سفن الأعداء أو يقود مشروعًا تجاريًا ضخمًا يحل به أزمة اقتصادية خاصة بالشأن العام.

قال والده، وهو يتوقف أمام نافذة حجرة الاستقبال، "لكن، لن يكون الجو صحوًا".

تمنى جيمس لو كانت هناك فأسٌ يدوية، أو قضيب معدني، أو أي سلاح كان يمكن أن يمسك به ويطعن والده في صدره ويقتله، هنا والآن. كانت تلك أقصى عواطف كان يستثيرها السيد رمزي في صدور أولاده لمجرد وجوده بينهم، واقفًا، كما هو الآن، منحنيًا كسكين، حادًّا كنصل، مبتسمًا بتهكم، ليس فقط من باب متعة إحباط ولده، والسخرية من زوجته، التي كانت أفضل منه عشرة آلاف مرة على جميع الأصعدة (هكذا فكر جيمس)،

بل أيضًا مع فكرةٍ ما سرية عن دقته في الحكم. فما قاله كان حقيقيًّا. كان دائمًا حقيقيًّا. لم تكن لديه المقدرة على قول شيءٍ غير حقيقي؛ لم يتلاعب مطلقًا بحقيقةٍ ما؛ لم يبدل أبدًا كلمة واحدة غير لائقة لتناسب متعةً ما أو ارتياح أي كائن حي، وعلى رأسهم جميعًا أولاده، الذين لابد أن يكونوا على وعي منذ طفولتهم- وهم المنحدرون من صلبه- بأن الحياة صعبة؛ ولا مساومة مع الحقائق؛ وأن الطريق إلى تلك الأرض الخرافية حيث آمالنا الأكثر إشراقًا قد انطفأت، وأن قشورنا الهشة تغرق في الظلام (هنا يصلب السيد رمزي عوده ويضيق من عينيه الزرقاوين الصغيرتين وهو يتطلع نحو الأفق)، ما يحتاجه المرء، قبل كل شيء، هو الشجاعة والحقيقة، والقدرة على التحمل.

قالت السيدة رمزي، "لكن ربما يكون الجو صحوًا- أتوقع أن يكون صحوا"، ولفت الجورب البنى المحمر- الذي كانت تحيكه بإبرتي التريكو- لفة صغيرة، في نفاد صبر. لو انتهت منه الليلة، لو ذهبوا في النهاية إلى الفنار، فستعطيه إلى حارس الفنار من أجل ولده الصغير، الذي كان مهددًا بتورم المفاصل الدَّرَنِي؛ مع كومة من المجلات القديمة، وبعض التبغ، في الحقيقة، ستعطيه أي شيء تجده ملقى هنا أو هناك، ليسوا في حاجة فعلية له، سوى أنه مبعثر بالحجرة، لتعطي شيئًا مَا يُسعد أولئك الأشخاص الفقراء، الذين لا بد أنهم يعانون من الملل حتى الموت وهم جالسون طوال النهار لا يفعلون شيئًا سوى تلميع المصباح وتهذيب الفتيل وتنظيف تربة الحديقة من القمامة. كانت تفكر إلى أي مدى تحب أن تظل حبيسًا لشهر كامل كل مرة، وربما أكثر من ذلك في جو عاصف، فوق صخرة في حجم ملعب التنس؟ ولا معك

خطابات ولا صحف، ولا ترى أحدًا؛ ولو كنت متزوجًا، فلن ترى زوجتك، ولا تعرف أي شيء عن أطفالك- ما إذا كانوا مرضى، أو ما إذا سقطوا وأصيبوا بكسور في سيقانهم أو أذرعهم؛ لترى الأمواج الموحشة نفسها تتكسر أمامك أسبوعًا وراء أسبوع؛ وبعدها تهب عاصفة مفزعة، وتتغطى النوافذ بالرذاذ، وترتطم الطيور بالمصباح، ويرتج المكان كله، ولا تستطيع أن تخرج أنفك خارج الأبواب خشية أن تنجرف إلى البحر ؟ كيف يمكنك أن تحب هذا؟ تساءلت، وهي تحدث نفسها موجهةً كلامها بشكل خاص نحو بناتها. ثم أضافت، بلهجة مختلفة إلى حدٍّ ما، أن على المرء أن يقدم لهم أي شيء مسل في وسعه أن يقدمه لهم.

قال تانسلي الملحد، "من المتوقع أن تهب الريح من الغرب"، وهو يمسك بأصابعه العظمية المفرودة كي تمر الريح من بينها، لأنه كان يشارك السيد رمزي تمشيته المسائية جيئةً وذهابًا، وجيئةً وذهابًا بامتداد الشرفة. يمكننا القول، إن الريح تهب من أسوأ اتجاه محتمل لتحط على الفنار. حقًّا، لقد تفوه بأشياء غير لائقة، سلمت السيدة رمزي بذلك؛ كان قبيحًا أن يصدر منه ذلك، ويتسبب لجيمس بالمزيد من الإحباط؛ لكنها في الوقت نفسه، لن تسمح لهم بالسخرية منه. كانوا يطلقون عليه "الملحد"؛ أو "الملحد الصغير". كانت روز تسخر منه؛ وبرو تسخر منه؛ وأندرو، وجاسبر، وروجر يسخرون منه؛ حتى بادجر العجوز بلا أسنان ضربه، لأنه (كما قالت نانسي) الشاب العاشر بعد المائة الذي يطاردهم طوال الطريق صعودًا إلى صخور الهيبرايد حين تكون الوحدة هي الأفضل بكثير من أي شيء آخر.

قالت السيدة رمزي، بصرامة شديدة، "كلام فارغ". ففضلاً عن عادة المبالغة التي ورثوها عنها، وعن الورطة (التى كانت حقيقية) بأن طلبت من أشخاص كثيرين البقاء، وكان عليها أن تُسكن البعض في المدينة، لكنها لم تستطع تحمل أن يلقى ضيوفها معاملة فظة، وخاصة الشباب منهم، الذين كانوا فقراء مثل فئران الكنيسة، قال زوجها، "باستثناء القادرين منهم"، المعجبين الكبار به، والذين حضروا إلى هنا لقضاء العطلة. حقًّا، فقد وضعت كل أفراد الجنس الآخر تحت حمايتها، لأسباب لا يمكنها شرحها، بسبب فروسيتهم وشجاعتهم، لحقيقة كونهم قد أجروا مفاوضات للمعاهدات، فحكموا الهند، وسيطروا على الشأن المالي؛ وأخيرًا بسبب موقف تجاه نفسها لا يمكن لامرأة أن تفشل في الشعور أو اكتشاف أنه مقبول، شيء ما مفعم بالثقة، طفولي، مهيب؛ شيء تستطيع المرأة الناضجة أن تأخذه من شاب دون أن تفقد كرامتها، لكنه وبال على الفتاة الصغيرة- فلنصلِ للسماء ألا تكون إحدى بناتها!- التي لا تدرك قيمته، وكل ما ينطوي عليه، حتى نخاع عظامها!

التفتت بحزم نحو نانسي. قالت إنه لم يطاردهم. لقد طُلب منه ذلك.

عليهم أن يجدوا مخرجا للأمر برمته. تنهدت، لابد أنه ثمة طريقة أكثر بساطة، طريقة أقل جهدًا. عندما تطلعت لنفسها في المرآة ورأت شعرها الرمادي، ووجنتيها الغائرتين، وهي في الخمسين، فكرت، من المحتمل أن تتمكن من جعل الأمور أفضل - زوجها؛ المال؛ كتبه. أما فيما يتعلق بها هي شخصيًّا فلا ينبغي أبدًا أن تندم لثانية واحدة على قرارها، أو تتجنب

المصاعب، أو تتغاضى عن واجباتها. فقد وصلت الآن إلى حال من المرعب ملاحظتها، وذلك فقط في صمت، رافعةً رأسها من فوق أطباقهم، بعدما تحدثت بحزم شديدة عن تشارلز تانسلي، الذي يمكن لبناتها برو ونانسي وروز أن يمزحن من أفكاره الكافرة التي تشكل بالنسبة لهن حياة مختلفة عن حياتها؛ ربما، في باريس؛ حياة أكثر مغامرة؛ بلا حذرٍ دائما من رجل أو آخر؛ لأن سؤالاً صامتًا يكمن في أذهان الجميع عن الاختلاف والفروسية، عن بنك انجلترا والإمبراطورية الهندية، عن الأصابع ذات الخواتم وأشرطة الزينة، على الرغم من أنه بالنسبة لهم جميعًا كان ثمة شيء من ذلك يمثل بعض جوهر الجمال، الذي يستدعي في قلوبهن العذرية الذكورة، ويجعلهن، وهن جالسات حول المائدة تحت عيني والدتهن، يحترمن صرامتها الغريبة، ولطفها الفائق، كملكة تنهض من الوحل لتغسل قدمَي متسول قذرتين، عندما وبختهن بقسوة شديدة بشأن ذلك الملحد البائس الذي كان يطاردهن- أو، إذا شئنا الحديث بدقة، المدعو للبقاء معهن- في جزيرة "سكاي" الصغيرة[1].

قال تشارلز تانسلي، وهو واقف يصفق بيديه، عند النافذة مع زوجها، "لن يكون هناك رسُو عند الفنار غدًا". من المؤكد أنه قال ما يكفي. تمنت لو يدعها كلاهما وشأنها مع جيمس ويواصلان حديثهما معًا. نظرت إليه. كان من ذلك النوع البائس من البشر، كما قال الأولاد عنه، بكل تلك النتوءات والتجويفات في جسده. لا يتقن حتى لعبة الكريكيت؛ فهو لا يفتأ يتسكع

[1] أكبر الجزر الداخلية في منطقة اسكتلندا وشمال بريطانيا.

ويجرجر قدميه. قال عنه أندرو إنه وحش مثير للسخرية. كانوا يعرفون ما الشيء الأكثر حبًا إلى قلبه- أن يظل يسير جيئةً وذهابًا، وجيئةً وذهابًا، بصحبة السيد رمزي، ويحكي عمن كسب هذا، ومَن ربح ذاك، مَن حقق "أعلى مكانة" في الشعر اللاتيني، ومَن "كان لامعًا لكنني أعتقد أنه لا يستحق بصورة جوهرية"، مَن كان بلا شك "الأكثر براعة في كلية باليول"، ومَن الذي دفن ضوءه مؤقتًا في بريستول، أو بدفورد[2]، لكنه كان محتومًا السماع عنه فيما بعد في مقدمة كتابه، التي جلب السيد تانسلي مسودة الصفحات الأولى منها إلى السيد رمزي ليقرأها إذا كان راغبًا في ذلك، ذلك الكتاب المتخصص في أحد فروع الرياضيات أو الفلسفة التي رأت نور النهار. ذلك ما كانوا يتحدثون عنه.

أحيانًا لم تكن لتستطيع أن تمنع نفسها من الضحك. قالت، فمنذ بضعة أيام، شيئًا ما عن "الأمواج التي ترتفع كقمم الجبال". نعم، قال تشارلز تانسلي، كان ذلك فظًا إلى حدٍّ ما. قالت السيدة رمزي، "ألم تتشرب بالماء حتى جلدك؟" قال السيد تانسلي، وهو يشد أكمامه، ويتحسس جواربه، "كنتُ رطبًا، لكنني لم أبتل تمامًا".

قال الأولاد إن ذلك ما لم يقصدوه. فلم يكن وجهه، ولا سلوكه. بل هو شخصيًا- بوجهة نظره. فعندما يتحدثون عن موضوعات مسلية، الناس، الموسيقى، التاريخ، أي شيء، حتى إذا قالوا إنها أمسية لطيفة فلماذا لا نخرج

---

(2) باليول Balliol: إحدى كليات جامعة أوكسفورد. بريستول Bristol: إحدى كليات جامعة غرب بريطانيا. بدفورد Bedford: مدينة صغيرة في انجلترا.

من البيت، عندئذ تصبح شكواهم من تشارلز تانسلي أنه يغير مجرى الحديث من موضوع إلى موضوع مختلف تمامًا ويجعله شيئًا ما يدور حول شخصه ويقلل من شأنهم- لم يكن راضيًا. وقالوا إنه يذهب لمشاهدة معرض للوحات الفنية، ويسأل أي شخص يلقاه، هل تعجبه ربطة عنقه؟ قالت روز، "الله وحده يعلم أن ذلك الشخص لا تروقه ربطة عنقه".

مختفين من مائدة الغداء خلسة مثل الأيائل، بعد انتهاء الطعام مباشرةً، يذهب أولاد وبنات السيد والسيدة رمزي الثمانية إلى حجرات نومهم، أو إلى أقصى مكان ناءٍ في منزل لا توجد به أية خصوصية لمناقشة أي شيء، وكل شيء؛ ربطة عنق تانسلي، تمرير فواتير الإصلاح في البرلمان، طيور وفراشات البحر، مشاكل الناس وهمومهم، بينما تنصب الشمس على تلك العليات، التي لا يفصل إحداها عن الأخرى سوى لوح من الخشب، لذلك يمكن سماع كل خطوة بوضوح، والفتاة السويسرية تنشج على احتضار والدها بداء السرطان في وادى جريسونز، والملاعب المضاءة، والفانلات، والقبعات القش، وزجاجات الحبر، وزجاجات الألوان، والخنافس، والطيور الصغيرة المحنطة، وهي تتدلى من رقع طويلة مهدبة من الأعشاب البحرية المسمرة على الحائط تنبعث منها رائحة الملح والعشب، التي كانت تنبعث كذلك من المناشف، الممتلئة بالرمال من السباحة.

تأسفت السيدة رمزي، جدل، وانقسامات، واختلاف في الأراء، وأحكام مسبقة مجدولة إلى ألياف للوجود، أوه، فعليهم أن يبدأوا يومهم مبكرين. لقد كان أولادها انتقاديين للغاية. كانوا يثرثرون بمثل هذا الهراء. خرجت من

حجرة الطعام، ممسكةً بجيمس من يده، لأنه لا يرغب في الذهاب بصحبة الآخرين. بدا لها أن مثل هذه الهراء- يختلق الاختلافات، بينما- يعلم الله- أن الناس مختلفون بما يكفي بدون ذلك. فكرت، وهي واقفة عند نافذة قاعة الاستقبال، إن الاختلافات الحقيقية كافية، كافية تمامًا. جال بخاطرها في تلك اللحظة، الأغنياء، والفقراء، الطبقات العليا والدنيا، العظمة المتوارثة بحكم الجينات التي ورثوها عنها، بعض التذمر، بعض الاحترام، حيث لا يجرى في عروقها دم سلالة شديدة العراقة، لكنها إلى حدٍّ ما سلالة أسطورية، بيت إيطالي، وبناته، اللائي كن منتشرات في قاعات استقبال إنجليزية في القرن التاسع عشر، يتكلمن بلثغة شديدة الجاذبية، وتنتابهن نوبات غضب عارمة، وقد ورثت عنهن كل ذكائها وتحملها ومزاجها، وليس من الدم الإنجليزي البارد، ولا من البرود الاسكتلندي؛ بل بصورة أكثر عمقًا، راحت تتأمل المشكلة الأخرى، مشكلة الأغنياء والفقراء، وتلك الأمور التي رأتها بأم عينيها، أسبوعيًّا ويوميًّا، هنا في لندن، عندما كانت تذهب لزيارة هذه الأرملة، أو تلك الزوجة المكافحة بصورة شخصية مع حقيبة على ذراعها، ودفتر وقلم رصاص تدون به جداول مرتبة بدقة متناهية خاصة بالأجور والنفقات، والتوظيف والبطالة، أملاً في أن تكف بذلك عن كونها امرأة متميزة تنحصر نصف أعمالها الخيرية في محاولة تهدئة سخطها، والنصف الآخر ترضية لفضولها، وتصبح مع عقلها غير المدرب وهي معجبة به أشد الإعجاب، باحثة، وشارحة للمشكلات الاجتماعية.

بدت لها قضايا عصية على الحل، وهي واقفة هنالك، ممسكة بجيمس من يده. وكان قد تتبعها إلى حجرة الاستقبال، ذلك الشاب الذي يضحكون منه؛

كان يقف عند المائدة، يتململ من شيءٍ ما، بخراقة، وهو يحس بنفسه غريبًا عن المكان، مثلما أدركت دون أن تنظر نحوه. لقد رحل الجميع- الأولاد، ومينتا دويل وبول رايلي، وأغسطس كارمايكل، وزوجها- رحلوا جميعًا. لذلك التفتت وهي تتنهد وقالت له، "هل سيضجرك أن تأتي معي، يا سيد تانسلي؟"

كانت لديها مهمة مملة في البلدة؛ كانت لديها رسالة أو اثنتان عليها أن تكتبهما؛ ربما يستغرق منها الأمر عشر دقائق؛ ارتدت قبعتها. و ها هي مرةً أخرى، حاملة سلتها ومظلتها البارسول، ، بعد عشر دقائق، معطيةً الإحساس باستعدادها للخروج، استعدادها للقيام برحلتها الصغيرة، التي ينبغي، على أي حال، أن تقطعها لمدة دقيقة، أثناء مرورهما بمرج التنس، لتسأل السيد كارمايكل، الذي كان يتشمس وعيناه الصفروان كعيون القطط نصف مفتوحتين، لذلك بدا أنهما كعيون القطط تعكسان حركة أغصان الأشجار أو مرور السحب، لكنهما لا تبوحان بأية أفكار أو مشاعر داخلية بأي شكل، إن كان يرغب في أي شيء.

قالت، وهي تضحك، إنهما ذاهبان للقيام بمهمة عظيمة. كانا متجهين إلى المدينة. فاقترحت عليه، وهي تتوقف إلى جواره، "هل تريد طوابع بريد، أوراق للكتابة، تبغ؟" لكن لا، لم يكن يريد أي شيء. تشابكت يداه معًا فوق بطنه الكبيرة، وومضت عيناه، كما لو كان يود الإجابة بلطف على هذا التملق (كانت مغرية لكنها عصبية قليلاً)، لكنه لم يستطع، خامدًا كأنه في حالة نعاس أخضر رمادي يطوقهما معًا، دون حاجة للكلمات، في نوع من

البلادة الهائلة المتسمة بحب الخير والإنسانية، لكل البيت، ولكل العالم، ولكل البشر الموجودين فيه، لأنه زلق في كأسه وقت الغداء بضع قطرات من شيء ما، مما جعل الأولاد يفكرون في الشريحة الزَّاهِيَة بلون الكناريا الأصفر على شاربه ولحيته التي كانت في وقت آخر ببياض الحليب. أما هو فتمتم، "لا، لا شيء البتة".

قالت السيدة رمزي، وهما يهبطان الطريق إلى قرية الصيد، "كان لا بد له أن يكون فيلسوفًا كبيرا"، لكنه تزوج زيجة غير محظوظة. وفيما تمسك بمظلتها البارسول السوداء في وضع مستقيم تمامًا، متقدمةً بسيماء لا توصف من التوقع، كما لو كانت ذاهبة للقاء أحدهم عند ركن الشارع، حكت القصة؛ علاقةٌ ما في أوكسفورد مع فتاةٍ ما، فزواج مبكر، وفقر، وسفر إلى الهند، وترجمة قليل من الشعر "بالغ الروعة، فيما أعتقد"، الرغبة في تدريس اللغة الفارسية أو الهندوستانية للصبية، لكن ما فائدة ذلك بالفعل؟- ثم الاستلقاء على العشب، كما رأوه.

شعر بالإطراء من ذلك؛ ولأنه معتاد على معاملة الآخرين له بازدراء، هدأه أن تحكي له السيدة رمزي ذلك. استعاد تشارلز تانسلي حيويته. مستشعرًا التملق، أيضًا، لأنها أطرت في الرجل عظمةَ فطنته، حتى في انهيارها، مع تبعية كل الزوجات- لا الذي لامت عليه الفتاة، فيما كان الزواج سعيدا بما يكفي، في اعتقادها- لأعمال أزواجهن، جعلته يشعر بالرضا عن نفسه أكثر مما كان عليه من قبل، وكان يتمنى، لو أنهما استأجرا سيارة، على سبيل المثال، ودفعا أجر السائق. أما حقيبتها الصغيرة، أفلم يكن

من الواجب أن يحملها عنها؟ قالت، "لا، لا"، إنها تحمل حقيبتها بنفسها دائمًا. لطالما فعلت ذلك، أيضًا. نعم، أحس أنها تقول الحقيقة. أحس بأشياء كثيرة، بشكل خاص بشيءٍ ما أثاره وأزعجه لأسباب لا يمكنه أن يبوح بها. تمنى لو رأته، وهو يرتدى العباءة والقلنسوة، سائرًا في موكب. درجة زمالة، أو درجة أستاذية، أحس بالقدرة على فعل أي شيء ورأى نفسه- لكن إلى أي شيءٍ كانت تتطلع؟ إلى رجل يشذب شجرةً بمنجل. وأوراق الشجر العريضة تسّاقط على الأرض، وكل دفعة للأغصان المقطوعة تكشف عن أغصان جديدة، وأقواس مستديرة، وخيول، وألوان ساطعة من الأحمر والأزرق، في نعومة جميلة، إلى أن يتغطى نصف الحائط بإعلانات سيرك؛ مائة خيَّال، عشرون عجل بحر استعراضيون، أسود، نمور... يمدون قوائمهم للأمام، لأنها كانت قصيرة النظر، قرأتها بصوت مرتفع... قرأت "هيا لزيارة هذه البلدة". صاحت إن ذلك عمل خطير للغاية بالنسبة لرجل بذراع واحدة، أن يقف أعلى سُلم نقال مثل ذلك- كانت ذراعه اليسرى قد بترت في آلة حصد منذ عامين.

صاحت، "هيا بنا جميعا!" تحركوا، كما لو كان جميع هؤلاء الخيَّالة والخيول قد أفعموها بالجذل والبهجة الطفولية وجعلوها تنسى إحساسها بالرثاء.

قال: "هيا بنا"، مكررًا كلماتها، وهو يجعلها تقرقع، على أية حال، مع وعي بالذات جعلها تجفل. "هيا بنا جميعا نذهب إلى السيرك". لا. لم يستطع أن يقولها بشكل صحيح. لم يستطع أن يشعر بها بشكل صحيح. تساءلت، لكن لم لا؟ ما الذي حدث له، إذن؟ أحبته جدًّا، في تلك اللحظة. سألته، ألم

يأخذهم ذووهم إلى السيرك عندما كانوا أطفالًا؟ أجابها، مطلقًا، كما لو كانت قد طرحت السؤال الذي كان يرغب فيه تمامًا؛ كان يتوق كل تلك الأيـام إلى أن يقول ذلك، كيف أنهم لم يذهبوا إلى السيرك. كانت عائلـة كبـيرة، تـسعة أشقاء وشقيقات، وكان والده رجـلاً عامـلًا. "كان والدي صـيدليًا، يـا سـيدة رمزي. كانت لديه صيدلية". هو نفسه كان يدفع الثمن بطريقته الخاصة منـذ كان في الثالثة عشرة من عمره. كان في الشتاء غالبًا ما يخرج من البيـت بـلا معطف. لم يستطع مطلقا أن "يرد حسن الضيافة" (تلك كانت كلماته الجافـة الخشنة) في الكلية. كان عليه أن ينجز الأشياء في ضعف الوقت الذي ينجزها فيه الآخرون؛ كان يدخن أرخص تبغ؛ المفروم؛ نفس النوع الذي يدخنه كبار السن في أرصفة الموانئ. كان يكدح- سبع ساعات في اليـوم؛ كان موضـوعه الآن تأثير شيءٍ ما على شخصٍ ما- كانا يسيران ولم تستطع السيدة رمزي أن تلتقط المعنى جيدًا، فقط الكلمات، كلمة من هنا وكلمة من هناك... أطروحـة أكاديمية... درجة زمالة... قراءة... إلقاء محاضرات. لم تستطع أن تتـابع قـبح الرطانة الأكاديمية، التي تخشخش من تلقاء نفـسها بـشكل عفـوى، لكنهـا قالت لنفسها إنها أدركت الآن لمـاذا صـدمه الذهـاب للـسيرك فـأنزله مـن عليائه، ذلك الرجل المسكين البائس، ولماذا أخرج، في الحال، كل هذا الـكلام عن والده ووالدته وأشقائه وشقيقاته، وأدركت بناءً على ذلك أنهـم ينـبغى ألا يسخروا منه بعد ذلك مرةً أخرى؛ ستخبر بـرو بـذلك. فمـا كان يمكـن أن يحبه، افترضت، هو أن يمكنه القول إنه لم يذهب إلى السيرك بـل إلى مـسرح إبسن مع آل رمزي. لقد كان متزمتًا لدرجة مفزعة- أوه نعم، ممـل بدرجـة لا تطاق. فعلى الرغم من أنهما وصلا إلى البلدة في تلك اللحظة وكانا يـسيران في

الشارع الرئيسى، والعربات تكحت الأرصفة، إلا أنه واصل الكلام، عن المستعمرات، والتعليم، والعمال، والنهوض بطبقتنا، والمحاضرات، إلى أن أدركَت تمامًا أنه قد استعاد ثقته بنفسه كليةً، وشُفي من موضوع السيرك، ويوشك (والآن أحست نحوه بمحبة دافئة من جديد) أن يخبرها- لكن هنا، تسَّاقط البيوت على الجانبين، والناس يخرجون إلى رصيف الميناء، والخليج بكامله يمتد أمامهما ولا يمكن للسيدة رمزي أن تمنع نفسها من الصياح، "أوه، يا له من منظر بديع!" لأن هذا السطح الكبير من الماء الأزرق أمامها؛ والفنار العتيق، النائي، الخالي من الزخارف، في المنتصف؛ وإلى اليمين، وعلى امتداد البصر، تخفت وتتساقط، في طيات ناعمة خفيضة، كثبان الرمال الخضراء والأعشاب البرية فوقها، التي تبدو دائما كأنها تهرب إلى بلد قمري ما، لا يسكنه بشر.

قالت، وهي تتوقف، وقد ازدادت عيناها اخضرارًا، ذلك الاخضرار الذي يحبه زوجها، هكذا كان المشهد.

صمتت لوهلة. ثم قالت، لكن الآن، الفنانون يأتون إلى هنا. كان هناك بالفعل، على بعد خطوات قليلة منهما، يقف أحدهم، يضع قبعة بنما(*) مع حذاء أصفر طويل الرقبة، بجدية، ونعومة، مستغرقًا، ولهذا راح عشرة صبية صغار يتفرجون عليه، بسيماء الرضا العميق لرؤيتهم وجهه الأحمر المستدير يحملق، ثم، عندما حملق أكثر، انغمس في عمله؛ وهو يغمس طرف الفرشاة

(*) قبعة ذات لون طبيعي، ومجدولة من أوراق نبات الجيبيجابا، المنتشر في أمريكا الجنوبية والوسطى.

في كومة ناعمة من اللون الأخضر أو الوردي. قالت، منذ أن كان السيد بونسيفورت هناك، قبل ثلاثة أعوام، وكل اللوحات شبيهة بذلك، خضراء ورمادية، وبها قوارب شراعية بلون ليموني، ونساء ورديات على الشاطئ.

أضافت، وهي تحملق بتحفظ أثناء مرورهما، إن صديقات جدتها قد بذلن الجهد الأكبر؛ كُن يمزجن أولًا ألوانهن الخاصة، وبعدها يضعنها على الأرضية، ثم يضعن عليها قطعة قماش مبللة ليحفظن اللوحة رطبة.

لذلك ظن السيد تانسلي أنها تقصد أن تريه أن لوحة الرجل هزيلة، أهذا ما يفترض أن يقوله المرء؟ إن الألوان ليست صلدة؟ أهذا ما يفترض أن يقوله المرء؟ تحت تأثير تلك العاطفة الجياشة التي تصاعدت طوال التمشية، والتى بدأت في الحديقة عندما أراد أن يأخذ حقيبتها، وازدادت في البلدة عندما أراد أن يخبرها بكل شيء عن نفسه، كان قد بدأ يرى نفسه، وكل الأشياء التي يعرفها وهي تتمايل قليلًا. وكان الأمر بالغ الغرابة.

وقف هنا في ردهة البيت الصغير الضيق الذي اصطحبته إليه، في انتظارها، فيما صعدت هي إلى الطابق العلوى لدقيقة واحدة لرؤية امرأةٍ ما. سمع وقع خطواتها السريعة بالأعلى؛ سمع صوتها المرح، ثم انخفض صوتها؛ تطلع نحو ممسحة الأحذية، وعلب الشاى الصغيرة، وظلال الأكواب؛ انتظر بفارغ الصبر؛ متطلعًا للعودة لبيته في لهفة، مصممًا أن يحمل حقيبتها؛ عندئذ سمعها تخرج؛ تغلق بابًا؛ تقول إنهم ينبغى أن يتركوا النوافذ مفتوحة والأبواب مغلقة، وتطلب في البيت أي شيء يريدونه (لا بد أنها تتكلم مع طفل) عندما، فجأةً، أتت، ووقفت للحظة صامتة (كما لو كانت تفتعل نفسها

هناك، ثم للحظة تقرر أن تعود لحقيقتها)، تقف ساكنة بلا حراك للحظة أمام لوحة الملكة فيكتوريا وهي تتشح بوسام جارتر الأزرق؛ حين أدرك في لحظة أن الأمر هو هذا: هو هذا:- إنها أروع إنسانة قابلها في حياته.

وعيناها تفيضان بالانبهار وشعرها مغطى بالوشاح، ونبات بخور مريم والسوسن البري- أية تفاهة يفكر فيها؟ إنها في الخمسين من عمرها على الأقل؛ لديها ثمانية أولاد. تخطو عبر حقول الأزهار وتضم إلى صدرها البراعم المنكسرة والحملان التي سقطت؛ بالانبهار في عينيها والريح في شعرها- أمسك بحقيبتها.

قالت، "إلى اللقاء، إلسي"، وسارا في الشارع، هي تمسك مظلتها البارسول منتصبة، وتسير كما لو كانت تتوقع لقاء أحدهم عند ناصية الشارع، فيما يشعر تشارلز تانسلي للمرة الأولى في حياته بفخر استثنائي؛ توقف رجل يعمل في أنابيب الصرف الصحي عن الحفر وتطلع إليها، ترك ذراعه يسقط بجانبه وتطلع إليها؛ للمرة الأولى في حياته يشعر تشارلز تانسلي بفخر استثنائي؛ يشعر بالريح ونبات بخور مريم والسوسن البري لأنه يسير مع امرأة جميلة. فشدد قبضته على حقيبتها.

الفصل الثَّـــاني

قال، "لا ذهاب إلى الفنار يا جيمس"، محاولًا أن يبدو صوته لطيفًا بقـدر ما يستطيع احترامًا لوجود السيدة رمزي.

فكرت السيدة رمزي، "يا له من رجل بغيض، لماذا يقول هذا الكلام؟"

الفصل الثَّالث

قالت متعاطفةً مع الولد الصغير، وهي تمسد شعره، "ربما عندما تستيقظ تجد الشمس مشرقة والطيور تغنى"، لأنها رأت أن زوجها، بقوله اللاذع إن الجو لن يكون صحوًا، قد حطم معنوياته. فهذا الذهاب إلى الفنار كان شغفًا بالنسبة له، كما رأت، ثم، كما لو كان زوجها لم يقل ما يكفي، بقوله اللاذع إن الجو ربما لن يكون صحوًا في الغد، مضى هذا الرجل الضئيل الكريه وظل يكرر هذا القول مرات ومرات.

قالت وهي تمسد شعره، "ربما يكون الجو صحوًا في الغد".

كان كل ما في وسعها الآن هو أن تمتدح صورة الثلاجة، وأن تقلب في صفحات قوائم المتاجر أملًا في العثور على شيء شبيه بماكينة جمع القش، أو آلة جز العشب، التي تحتاج، بأطرافها المستدقة ومقابضها، لأكبر قدر من المهارة والانتباه في جز الأعشاب. فكرت، أن كل أولئك الشبان يسخرون من

زوجها؛ لقد قال إنها ستمطر غدًا؛ فقالوا بل سيكون إعصارًا قويًا.

لكن في هذه اللحظة، إذ قلبت الصفحة، قُوطع فجأةً بحثها عن صورة ماكينة جمع القش أو آلة جز العشب. هي الغمغمة الفظة، التي يقطعها بشكل غير منتظم إخراج غلايين التبغ وحشوها بما يواصل التأكيد لها، إن كانت لم تتمكن من سماع ما قيل (لأنها كانت جالسة بجوار النافذة المفتوحة على الشرفة)، أن الرجال يتحدثون في سعادة؛ هذا الصوت، الذي استمر حتى الآن نصف ساعة واتخذ مكانه بسلاسة في سلم الأصوات التي تضغط على رأسها، مثل صنبور من الطلقات انفتح على خفافيش، توقف هذا النباح الحاد المفاجئ بين وقت وآخر، "كيف هذا؟ كيف هذا؟" الصادر عن الأطفال الذين يلعبون الكريكيت؛ فسمعت ذلك التساقط الرتيب للأمواج على الشاطئ، الذي كان في معظمه يضرب في وقع موزون ومهدئ لأفكارها وبدا معزيًا في تكراره مرات ومرات وهي جالسة مع الأطفال تغني لهم أغنية هدهدة ما قديمة، يتمتم بشكل طبيعي، "أنا أحرسك، أنا أدعمك"، لكن في مرات أخرى فجأةً وبلا توقع، خاصةً حين يتنحى ذهنها بخفة عن المهمة التي يقوم بها فعلاً، لم يكن له مثل هذا المعنى اللطيف، بل كان يكون أشبه بقرع طبول شيطانية عديم الرحمة يضرب نسق الحياة، فيدفع المرء إلى التفكير في دمار الجزيرة وابتلاع البحر لها، وينبهها إلى أن يومها قد انزلق إلى الوراء في فعل وحيد سريع وراء الآخر وكله عابر كقوس قزح- هذا الصوت الذي غام واختفى تحت الأصوات الأخرى فجأةً دوّى هادرًا في أذنيها وجعلها تنظر حولها بدافع الرعب.

لقد توقفوا عن الكلام؛ هذا هو تفسير الأمر. والسقوط في لحظة من التوتر الذي سحبها إلى الطرف الآخر الذى، كما لو كان يستعيدها من مغالاتها غير الضرورية في الانفعال، كان لطيفًا، مبهجًا، وحتى ماكرًا قليلًا، واستنتجت أن تشارلز تانسلي المسكين قد نزف. لم يعنِها ذلك كثيرًا. فإذا كان زوجها يتطلب التضحيات (وهو بالفعل قد تطلبها) فإنها عن طيب خاطر قد منحته تشارلز تانسلي، الذي وبخ طفلها الصغير.

بعد دقيقة أخرى، ورأسها مرفوعة، أصاخت السمع، كما لو كانت تنتظر سماع صوت مألوف، صوت آلي معتاد؛ ثم، إذ سمعت شيئا متناغما، نصف كلام، نصف غناء، يبدأ في الحديقة، فيما زوجها يذرع الشرفة جيئةً وذهابًا، شيئًا ما بين نقيق الضفادع والغناء، هدأت مرةً أخرى، مطمئنةً من جديد إلى أن كل شيء على ما يرام، وإذ نظرت في الكتاب على ركبتها وجدت صورة مطواة جيب بستة أنصال ليس من الممكن استخدامها إلا إذا كان جيمس شديد الحرص.

فجأةً صرخة عالية، كأنها صادرة عن شخص يسير وهو نائم، نصف مستيقظ، شيء ما شبيه بذلك.

عصَفت مع طلقة وقذيفة.

دوَّت بأقصى درجة في أذنيها، مما جعلها تلتفت في فزع لترى ما إذا كان أي شخص آخر قد سمعها. فقط ليلي بريسكو، كانت سعيدة بالعثورعليها؛ مع أنه ليس أمرًا ذا أهمية كبيرة. لكن منظر الفتاة وهي واقفة على حافة المرج ترسم بريشتها ذكَّرها؛ كان من المفترض أن تحافظ على وضع رأسها بقدر

ما تستطيع لتتمكن ليلي من رسم اللوحة. لوحة ليلي! ابتسمت السيدة رمزي. ليلي بعينيها الصغيرتين الصينيتين ووجهها المتغضن، لن تتزوج مطلقًا؛ ولا يمكن للمرء أن يأخذ لوحاتها مأخذ الجد كثيرًا؛ كانت كائنًا صغيرًا مستقلًّا، ولذلك أحبتها السيدة رمزي؛ وفيما تتذكر وعدها، أحنت رأسها.

الفصل الرَّابـــع

فعلاً، كان على وشك الاصطدام بحامل لوحاتها، وهو قـادم نحوهـا يلـوح بيديه ويصيح، "لقد سرنا بشجاعة وبقوة"، لكنه، رحمتك يارب، التفت بحدة، ومضى في طريقه، ليمـوت- فيمـا افترضـت- بـصورة مجيـدة في مرتفعـات بالاكلافا(*). لم يحدث مطلقًا أن كان هناك في نفس اللحظة مـن هـو سـاخر ويقظ مثله. لكن طالما كان بهذه الحالة، يلوح ويصيح، كانـت آمنـة؛ فلـن يقف مكتوف الأيدي يتطلع إلى لوحتها. وهذا ما لـم تكـن ليـلي بريـسكو تحتمله. فحتى عندما نظـرت إلى الكتلـة، إلى الخـط، إلى اللـون، إلى الـسيدة رمزي الجالسة بجوار النافذة مع جيمس، تركت مجسًّا على أشيائها لئلا ينسل أحدهم، وفجأةً تجد لوحتها معرضةً للرؤية. لكنهـا الآن، بكـل أحاسيـسها المتسارعة، وهي تنظر، وتنفعل، إلى أن بدا لعينيهـا أن لـون الحـائط ونبـات

(*) **بالاكلافا** Balaclava: مدينة أوكرانية جبلية ساحلية فى شبه جزيرة القرم.

الياسمين البرى المتعرش خلفه قد احترق، كانت واعية بقدوم شخصٍ ما من المنزل، يتجه نحوها؛ لكنها خمنت بطريقةٍ ما، من وقع قدميه، أنه وليام بانكس، لذلك فعلى الرغم من ارتعاش الفرشاة في يدها، فلم تقلب قماش اللوحة على العشب، كما كانت ترغب إذا ما كان القادم هو السيد تانسلي، أو بول رايلي، أو مينتا دويل، أو عمليًا أي شخص آخر، بل تركته مبسوطًا على الحامل. كان وليام بانكس يقف بجوارها.

كان لديهما متسع من الأماكن في القرية، ولذلك، داخلين، خارجين، عائدين إلى عتبات منازلهما في وقت متأخر، كانا يقولان أشياء قليلة عن الحساء، وعن الأطفال، وعن هذا الشيء أو ذاك بما جعلهما صديقين؛ لذلك حين وقف بجوارها الآن بطريقته التي تليق بقاضٍ (كان متقدمًا في العمر بما يكفي ليكون والدها، أيضًا، أو عالم نباتات، أو أرمل، تنبعث منه رائحة الصابون، شديد التدقيق والنظافة) وقفت هناك فحسب. وهو وقف هناك فحسب. كان حذاؤها رائعًا، كما لاحظ. كان يسمح لأصابع القدم أن تأخذ امتدادها الطبيعي. وإذ يقيم معها في نفس البيت، لاحظ أيضًا، كم كانت مُرتبة، تستيقظ قبل موعد الإفطار وتذهب للرسم، حسب ظنه، وحيدة؛ ومن المحتمل أنها فقيرة، ومن المؤكد أنها دون بشرة أو فتنة الآنسة دويل، لكنها تمتلك حسًا طيبًا، مما يجعلها تبدو في عينيه متفوقة على تلك الآنسة الشابة. الآن، على سبيل المثال، عندما هبط رمزي نحوهما، وهو يصيح، ويلوح بيديه، أحس بالتأكيد أن الآنسة بريسكو قد فهمت.

لقد تعثر أحدهم في سيره.

حملق السيد رمزي فيهما. حملق فيهما دون أن يبدو عليه أنه يراهما. وذلك ما جعلهما يشعران بعدم الارتياح بشكل غامض. رأيا معا شيئًا لم يقصدا رؤيته. لقد انتُهكت خصوصيتهما. لذلك، فكرت لِيلي أن ذلك ربما كان عذرًا له ليتحرك، ليخرج من مجال تصويب الطلقات، مما جعل السيد بانكس يقول في الحال تقريبًا شيئًا عن سريان القشعريرة في البدن واقترح أن يتجولا قليلاً في المكان. نعم، ستأتي معهما. لكن ذلك كانت تكتنفه صعوبة أن ترفع عينيها عن لوحتها.

كانت زهرة السوسن البرية بنفسجية زاهية؛ والحائط شاهق البياض. لم تعتبره نوعًا من الأمانة أن تعبث بزهرة السوسن البنفسجية الزاهية والحائط شاهق البياض، طالما أنها رأتهما هكذا، مطابقين للموضة، منذ زيارة السيد بونسيفورت، ليرى المرء كل شيء باهتًا، متألقًا، شبه شفاف. وتحت اللون كان هناك الشكل. كان بوسعها أن تراه كله بوضوح شديد، بصورة مسيطرة، عندما نظرت: كان ذلك حين أخذت فرشاتها في يدها فتغير كل شيء. كانت تلك اللحظة الخاطفة بين اللوحة والقماش التي سيطرت فيها عليها الشياطين التي دفعتها إلى حافة البكاء وجعلت هذا الممر فيما بين التصور والعمل الفعلي مرعبًا مثل أي ممر مظلم بالنسبة لطفل. لطالما شعرت بهذا الشعور- تصارع ضد أشياء غريبة مرعبة للمحافظة على شجاعتها؛ وتقول، "لكن هذا ما أراه؛ هذا ما أراه"، وهكذا تقبض على بعض البؤس المتبقي من رؤيتها وتضمه إلى صدرها، وهو ما جاهدت ألف قوة بأقصى ما في وسعها لتنتزعه منها. وكان الأمر آنئذٍ هكذا أيضًا، في ذلك الطريق العاصف الثلجي، عندما بدأت ترسم، حيث فرضوا أنفسهم على أشيائها الأخرى، على عدم

كفاءتها، وتفاهتها، وحفاظها على البيت من أجل والدهـا في "برمبتـون رود"، وما عانته من كثرة اللغط للسيطرة على دافعها لإلقاء نفسها (بفضل العناية الإلهية ظلت دائمًا تقاوم هذا الشعور حتى الآن) على ركبـة الـسيدة رمـزي وأن تقول لها- لكن ماذا بوسع المرء أن يقول لها؟ "أنا واقعة في غرامك؟" لا، ليس هذا حقيقيًّا. "أنا واقعة في غرام كل هـذا"، ملوحـةً بيـدها نحـو سـياج الشجر، ونحو المنزل، ونحو الأطفال. كان ذلك عبثيًّا، كان مستحيلًا. وهكـذا نحت الآن جانبًا فُرش الرسم بعناية إلى العلبة، جنبًا إلى جنب، وقالت لوليام بانكس:

"لقد صار الجو فجأةً باردًا. ويبدو أن الـشمس سـتمنحنا حـرارةً أقـل"، قالت، وتطلعت حولها، لأن الجو كان ساطعًا تمامًا، ولا يزال العـشب ناعمًـا شـديد الاخـضرار، والمـنزل يتـألق في اخـضراره بـذلك العـشب والزهـور الأرجوانية المثيرة، وطيور الرخ تطلق صيحاتها اللطيفة من الزرقـة العاليـة. لكن ثمة شيئًا ما تحرك، ومَض، لفَّ بجناح فضي في الهـواء. لقـد كان شـهر سبتمبر على أية حال، منتصف سبتمبر، والساعة تجـاوزت الـسادسة مـساءً. لذلك خرجا يتمشيان في الحديقة في الاتجاه المعتاد، فيما وراء مـرج التـنس، تجاوزا منطقة الأعشاب الخالية مـن الـشجر، إلى تلـك الفتحـة في الـسياج الشجرى الكثيف، تحيط بها نباتات الكنيفوفيا بأعوادها الحمراء المتوهجـة كمواقد ممتلئة بالفحم المشتعل، ليبدو من خلالها ماء الخلـيج الأزرق أكـثر زرقة عن أي وقت سابق.

كانا يأتيان إلى هنا بانتظام كل مساء مدفوعين بحاجةٍ ما. كان يبـدو كـأن

الماء يفيض ويطلق العنان للأفكار المبحرة التي ركدت على الأرض الجافة، بل يمنح جسديهما نوعا من الراحة البدنية. أولا، غمرت ذبذبة اللون الخليج بالزرقة، فاتسع بها القلب وسبح معها الجسد، لكنها لم تكن سوى لحظة خاطفة كبتها وجمدها السواد الواخز على الأمواج المتغضنة. ثم، هناك في الأعلى خلف الصخرة السوداء الكبيرة، كان الماء ينبثق غالبًا كل مساء بغير نظام، لذلك كان على المرء أن يراقبه منتظرًا له وكان حدوثه مبعث سعادة، نافورة من الماء الأبيض؛ وآنئذٍ، فيما ينتظره المرء، فإنه يراقب، على الشاطئ الشاحب شبه الدائرى، الموجة وراء الموجة تنساب مرةً تلو المرة بنعومة، كغشاء من عرق اللؤلؤ.

ابتسم كلاهما، وهما يقفان هناك. أحسا معًا بمرح مألوف، استثارته الأمواج المتحركة؛ ثم لدى السرعة المتقطعة الرشيقة للقارب الشراعي، توقف بعد أن قطع انعطافة في الخليج؛ وارتعش؛ وترك أشرعته تسقط عنه؛ وبعدها، بغريزة طبيعية لإكمال اللوحة، بعد هذه الحركة الرشيقة، نظر كل منهما إلى تلال الرمال البعيدة، وبدلا من المرح اعترتهما غشاوة من الحزن- جزئيًا لأن الشيء اكتمل، وجزئيًا لأن المشاهد البعيدة تستمر فيما يبدو لمليون سنة (فكرت ليلي) بعد المُشاهد ومتواصلةً بالفعل مع سماء تقبض على أرض في حالة استرخاء.

وإذ تطلع نحو التلال الرملية البعيدة، فكر وليام بانكس في رمزي: فكر في شارع بوستمورلاند، فكر في رمزي يتمشى في طريق بمفرده مطوقًا بتلك العزلة التي تبدو كأنها خصلة أصيلة فيه. لكن هذه الأفكار قُوطعت

فجأةً، إذ تذكر وليام بانكس (ولابد أن هذا يشير إلى حدثٍ ما حقيقي)، بفعل دجاجة، كانت تبسط جناحيها لتحمي كتاكيتها الصغار، حيث أشار رمزي، وهو يتوقف إزاءها، بعصاه وقال "لطيف- لطيف"، وأضاء في قلبه نور روحاني غريب، مما أظهر بساطته، وتعاطفه مع الكائنات الضعيفة؛ لكن بدا له كأن صداقتهما قد انقطعت، هناك، على امتداد ذلك الطريق. بعد ذلك، تزوج رمزي. بعد ذلك، مع شيءٍ ما ومع آخر، تلاشى جوهر صداقتهما. لا يمكنه تحديد مَن كان المخطئ، فقط، بعد زمن، حل التكرار محل الجِدة. كان عليه أن يكرر أنهما التقيا. لكن أثناء هذا الحديث الصامت مع الكثبان الرملية تذكر أن عواطفه تجاه رمزي بلا شك قد تضاءلت؛ لكنها هناك، مثل جثمان شاب ملقًى خامدًا متحللًا لقرن من الزمن، مع نضارة الشفاه الوردية، كانت صداقته، في حدتها وحقيقيتها، ملقاة جثةً هامدة وسط التلال الرملية وراء الخليج.

كان قلقًا على هذه الصداقة وربما كذلك لرغبته في تطهير ذاته وصفاء ذهنه من تهمة أنه جف وانكمش- لأن رمزي يعيش في فوضى الأطفال، فيما بانكس أرمل بلا أطفال- كان قلقًا من أن تحط لِيلي بريسكو من قدر رمزي وتستخف به (وهو رجل عظيم يعيش بطريقته) ومع ذلك فينبغي فهم كيف وقفت الأشياء بينهما. وإذ بدأت صداقتهما منذ أمدٍ بعيد، فقد تلاشت في طريق بوستمورلاند، حيث بسطت الدجاجة جناحيها على أفراخها؛ وبعدما تزوج رمزي، وتفرقت بهما السُّبل، كان ثمة ميلٌ ما- بالتأكيد لم يكن خطأ أحد- لأن يكرر نفس القول، عندما كانا يلتقيان.

نعم. هكذا كان الأمر. انتهى. حول بصره عن المشهد. وإذ استدار ليعود على الطريق الآخر، صاعدًا الطريق الخاص، كان السيد بانكس واعيًا بالأشياء التي لم تكن لتضربه لو لم تكشف له تلك التلال الرملية جثة صداقته الملقاة متحللةً بشفاهها الوردية- وعلى سبيل المثال، كام، تلك الفتاة الشابة، صغرى بنات رمزي. كانت تلتقط كتاب "أليس الحلوة" من على الضفة. كانت طائشة وشرسة. لن "تمنح وردة للسيد المهذب" مثلما أخبرتها المربية. لا! لا! لا! لن تفعل! وأحكمت قبضتها. ضربت بقوة. وشعر السيد بانكس بالشيخوخة وبالحزن وبأنها بشكل ما رسمت في ذهنها تصورًا خاطئًا عن صداقته لها. لابد أنه قد تيبَّس وانكمش.

لم تكن عائلة رمزي ثرية، وكان مما يثير العجب كيف تمكنوا من تدبير أمورهم. ثمانية أطفال! أن يطعموا ثمانية أطفال بالفلسفة! هاهو واحد آخر منهم، هذه المرة جاسبر، يتسكع في الطريق، قال، بلا مبالاة، إنه يرغب في اصطياد طائر ببندقية الرش، وهو يؤرجح فيما يسير يد لِيلي كمقبض مضخة، مما دعا السيد بانكس أن يقول، بمرارة، كيف كانت هي المفضلة. كان هناك الآن تعليمٌ يجب وضعه في الاعتبار (حقيقي أن السيدة رمزي لديها شيء خاص بها ربما يميزها) دعك من الأعمال المنزلية اليومية كالاهتمام بالأحذية البالية ورتق الجوارب الممزقة التي تتطلبها رعاية هؤلاء "الأشخاص العظماء" رعاية جيدة، أولئك الصغار، الخشنين، الذين لا يرحمون.

أما فيما يتعلق بيقينه من كيف حدث ما حدث، أو بأي نظام قد جاءوا، فقد كان ذلك أبعد من فهمه تمامًا. كان بشكل خاص يعتبرهم في المنزلة

التالية مباشرةً بعد ملوك وملكات انجلترا؛ وكام المزعجة، وجيمس عديم الرحمة، وأندرو العادل، وبرو المنصفة- قال لنفسه إن برو لديها جمالها الخاص، فكيف تتمالك نفسها؟- وزناد فكر أندرو. وفيما كان يصعد الطريق الخاص ولِيلي بريسكو تقول نعم ولا تكمل تعليقاته (لأنها كانت تحبهم كلهم، تحب هذا العالم) تأمَّل حالة رمزي، رثى له، حسده، كما لو كان قد رآه يجرد نفسه من كل مجد العزلة والتقشف الذي كلله في الشباب ليثقل نفسه تمامًا بالأجنحة المرفرفة وقرقرة الحياة المنزلية. لقد منحوه شيئًا ما- اعترف وليام بانكس بهذا؛ وسيكون مدعاة للسرور لو أن كام قد ألصقت وردة في معطفه أو تسلقت كتفه، كما كانت تفعل مع والدها، لتتطلع إلى صورة انفجار بركان فيزوف؛ لكنهم أيضًا، ولا يمكن لأصدقائهم القدامى إلا أن يشعروا بذلك، قد حطموا شيئًا ما. فماذا بوسع الغريب أن يظن الآن؟ ماذا تظن هذه الـ لِيلي بريسكو؟ هل بوسع المرء أن يمنع نفسه من ملاحظة تلك العادات تنمو داخله؟ غرابة الأطوار، أو الضعف مثلاً؟ كان من المدهش أن رجلًا بهذا الذكاء يمكنه أن يتذلل كما فعل هو- لكن هذه عبارة شديدة الفظاظة- يمكنه أن يعول كثيرًا مثلما فعل على امتداح الناس له.

قالت لِيلي، "أوه، لكن، فكر في عمله!"

حينما تقول، "فكر في عمله" فذلك يعني أنها ترى دائمًا أمامها بوضوح مائدة مطبخها الكبيرة. كانت من صنع أندرو. سألته عما تتضمنه كتب والده. قال لها، "الموضوع والذات وطبيعة الواقع". وعندما قالت "فلترحمنا

السماء"، لم يكن لديها أدنى تصور عن ما تعنيه. قال لها "فكري إذن في مائدة المطبخ، عندما لا تكوني موجودة".

وهكذا كانت دائما، عندما تفكر في عمل السيد رمزي، ترى مائدة مطبخ خشنة الملمس. كانت تقبع الآن في تشعب شجرة كمثرى، لأنهما وصلا إلى البستان. وبمجهود مضنٍ من التركيز، ركزت ذهنها، لا على لحاء الشجرة ذي العقد الفضية الناتئة، ولا على أوراقها الشبيهة بالسمكة، بل على مائدة المطبخ الشبحية، إحدى تلك الموائد العريضة خشنة الملمس، ذات السطح المحبَّب ذي العُقَد، التي تبدو ميزتها في أن تظل عاريةً على مدى سنوات من الكمال العضلي، الكامن هناك، بقوائمها الأربع في الهواء. بالطبع، إذا مرت أيام المرء في رؤية هذا الجوهر الخشن، هذا التناقص في الأمسيات اللطيفة، مع كل سحبها من طائر البشروش واللونين الأزرق والفضي إلى مائدة بيضاء كبيرة لها أربع قوائم (وكانت هذه علامة على سلامة الأذهان التي صنعتها)، فمن الطبيعى ألا يحكم على المرء كشخص عادي.

أحبها السيد بانكس لأنها أمرته أن "يفكر في عمله". فكر فيه، مرات ومرات. مرات بلا حصر، قال لها، "رمزي أحد أولئك الرجال الذين يؤدون عملهم على أفضل وجه قبل أن يصلوا لسن الأربعين". لقد قام بإسهام كبير في الفلسفة بكتاب صغير وحيد عندما كان فقط في الخامسة والعشرين من عمره؛ ما جاء بعده كان إلى هذا الحد أو ذاك توسعًا، وتكرارًا. لكن الرجال الذين يقومون بإسهام حقيقي في أي مجال عددهم ضئيل للغاية، قال ذلك بطريقة مدققة لدرجة مريبة وبحكم شديد الحصافة، وهما يتوقفان

بجوار شجرة الكمثرى، كثيفة الأغصان. ثم فجأةً، وكأن حركة يده قد خففت عنها، فتعالى عبء انطباعاتها المتراكمة عنه، وانصب كل ما كانت تكنه نحوه من مشاعر في كتلة جليدية هائلة. كان هذا إحساسا وحيدًا. ثم تصاعد جوهر وجوده إلى دخان. وهذا إحساس آخر. شعرت بنفسها مشلولة بكثافة إدراكها؛ لقد كانت قوته، وطيبته. أنا أحترمك (خاطبته هكذا شخصيًا في صمت) بكل ذرة في كياني، أنت لست تافهًا؛ أنت موضوعى جدًا؛ أنت أرق من السيد رمزي؛ أنت أرق شخص عرفته في حياتي؛ لا زوجة لديك ولا طفل (دون أي إحساس جنسي، تاقت إلى تدليل هذه الوحدة)، أنت تعيش من أجل العلم (بشكل لا إرادي، تراءت أمام عينيها شرائح البطاطس)؛ والإطراء سيكون إهانة لك؛ أيها الرجل الكريم، ذو القلب الطاهر، البطولي! لكن بصورة متزامنة، تذكرت كيف أحضر خادمًا خاصًا طول الطريق إلى هنا؛ واعترض على وجود الكلاب على المقاعد؛ وظل يتحدث في لغو وهراء لمدة ساعات (إلى أن صفق السيد رمزي باب الحجرة وخرج) عن الملح في الخضروات والظلم الذي يتعرض له الطهاة الإنجليز.

كيف إذن للمرء أن يفلح في التعامل مع كل هذا؟ كيف يقيِّم المرء الناس، ويفكر فيهم؟ كيف للمرء أن يضيف هذا وذاك ثم يستنتج إن كان يشعر بالحب تجاه ذلك أم يشعر بالكره؟ وفي النهاية، ما المعنى المرتبط بهذه الكلمات؟ وهي واقفة الآن، متحجرةً في مكانها فيما يبدو، قرب شجرة الكمثرى، والانطباعات تنصب في عقلها عن هذين الرجلين، وأن تتابع أفكارها يشبه تتبع صوت يتحدث بسرعة شديدة من الصعب مجاراة ما يقوله كتابةً بالقلم الرصاص، وكان هذا الصوت هو صوتها الخاص الذي يقول أمورًا

لا ينكرها أحد بلا توجيه، مستمرة، متناقضة، لذلك فحتى شقوق ونتوءات لحاء شجرة الكمثرى كانت ثابتة في مكانها في خلود سرمدي. أكملت كلامها، لديك العظمة، لكن السيد رمزي لا يملك شيئًا منها. إنه ضيق الأفق، أناني، تافه، مغرور؛ أفسده التدليل؛ طاغية؛ يرهق السيدة رمزي حدَّ الموت؛ لكنه يمتلك (تخاطب السيد بانكس) ما لا تمتلكه؛ روحانية متقدة؛ لا يعرف شيئا عن التوافه؛ يحب الكلاب وأطفاله. لديه ثمانية أطفال. السيد بانكس بلا أطفال. ألم يهبط بمعطفين الليلة السابقة ويجعل السيدة رمزي تصفف له شعره في إناء البودنج؟ كل هذا راح يتراقص إلى أعلى وأسفل، مثل مجموعة من البعوض، كل على حدة لكنهم جميعا محكومون بشكل عجيب في شبكة مطاطية لا مرئية- تراقصوا إلى أعلى وأسفل في عقل لِيلي، في وحول أغصان شجرة الكمثرى، حيث ظلوا معلقين في الصورة المتخيلة لمائدة المطبخ ذات السطح الخشن، رمزًا لاحترامها العميق لعقل السيد رمزي، إلى أن انفجرت أفكارها التي انغزلت أسرع وأسرع منفجرة بكثافتها الخاصة؛ وشعرت بالتحرر؛ كرصاصة انطلقت في متناول اليد، ثم أتت، محلقةً من شظاياها، في خوف، وزخم عاطفي، ومضطرم، كسرب من الزرازير.

قال السيد بانكس، "جاسبر!". التفتا ناحية سرب الزرازير المحلقة، فوق الشرفة. وإذ تتبعا تفرق الطيور المحلقة سريعًا في السماء، اخترقا الثغرة الموجودة في السياج الشجرى المرتفع مباشرةً إلى السيد رمزي، الذي هدر في وجههما بشكل مأساوي: "لقد تعثر أحدهم في سيره".

التقت عيناه، مضطرمتين بالانفعال، مجترئتين بكثافة مأساوية،

بعينيهما لوهلة، وارتعشتا على حافة الإدراك؛ لكنه عندئذ، وهو يرفع يده، في منتصف الطريق إلى وجهه كما لو كان يتفادى شيئًا ما، أو يهشه، في ألم الإحساس النكِد بالعار، من نظرتهما العادية، كأنه توسل إليهما أن يتوقفا دقيقة واحدة عما عرف أنه أمر محتوم، كأنه يطبعهما بطابع استيائه الطفولي من المقاطعة، حتى في لحظة الاكتشاف لم يكن قد انهزم تمامًا، لكنه قرر تحديدًا أن يتمسك بقوة بشيء من هذا الانفعال اللذيذ، هذا الافتتان الزائف الذي أشعره بالخزي، لكنه استمتع به- التفت على نحو مفاجئ، وصفق بابه الخاص في وجهيهما؛ ولِيلي بريسكو والسيد بانكس، إذ يتطلعان نحو السماء في عدم ارتياح، لاحظا أن سرب طيور الزرزور التي صوب جاسبر بندقيته نحوها قد استقرت في ذُرَى أشجار الدردار.

الفصل الخامـــس

قالت السيدة رمزي، "وحتى ولو لم يكـن الجـو صـحوًا في الغـد"، وهي ترفع عينيهـا لتتفـرس في وليـام بـانكس وليـلي بريـسكو وهمـا يمـران، "فسيكون ذلك في يوم آخر. والآن"، وفكرت أن سحر ليلي يكمن في عينيها الصينيتين، بانحرافهما في وجهها الأبيض المتغضن الـصغير، لكـن الأمـر يتطلب رجلًا ذكيًّا ليرى ذلك، "والآن قف، ودعني أقيس طول ساقك"، لأنهم في النهاية قد يذهبون إلى الفنار، وينبغي عليها أن تعرف ما إذا كان جوربـه الطويل سيحتاج بوصة أو بوصتين أطول في الساق.

مبتسمةً، إذ كانت فكرةً جميلة، تلـك الـتي ومـضت في ذهنهـا في هـذه اللحظة- أن من المفترض لوليام وليلي أن يتزوجا- أمسكت بالجورب المنقط، بخطوطه المتصالبة التي حاكتها فيه بالإبر الحديد مـن فتحتـه، وقاسـته على ساق جيمس.

قالت، "عزيزى اثبت في وقفتك"، لأنـه في فـورة غيرتـه، دون رغبـة في

استخدامه كأداة قياس لجورب صبي حارس الفنار الصغير، تململ جيمس متعمدًا؛ فسألته، عندما يفعل ذلك، كيف لها أن ترى، إن كان الجورب طويلًا جدًّا، أو قصيرًا جدًّا.

تطلعت إلى أعلى- أي شيطان يتملكه، وهو أصغر أبنائها، وأحبهم إليها؟- ورأت الحجرة، رأت المقاعد، فكرت كيف وصلت إلى رثاثة مروعة. وأحشاؤها، كما قال أندرو في اليوم السابق، كانت كلها مبعثرة على الأرض؛ لكنها عندئذٍ سألت، ما الهدف إذن، من شراء مقاعد جيدة ليتم تخريبها هنا كلها في الشتاء حين يقطر المنزل بالبلل، بلا أحد يرعاه سوى امرأة عجوز واحدة؟ لا تهتمي، كان إيجاره بنسين ونصفًا بالتمام والكمال؛ والأطفال يحبونه؛ منزلٌ مناسب لزوجها حيث يبعد مسافة ثلاثة الآف، أو إذا شئنا الدقة، يبعد ثلاثمائة ميل عن مكتباته ومحاضراته وتلاميذه؛ وهناك حجرة للزوار. مراتب، وأسرَّة معسكرات، وأشباح مجنونة لمقاعد وموائد صنعتها شركة خدمات الحياة اللندنية- لقد أنجزوا عملًا طيبًا هنا؛ وصورة فوتوغرافية، أو اثنتان، وكتب. فكرت، تلك الكتب يزداد عددها من تلقاء نفسها. لم يتسع وقتها مطلقًا لقراءتها. يا للحسرة! حتى الكتب التي أعطيت لها بشكل شخصي وكُتب عليها الإهداء بخط يد الشاعر شخصيًّا :"إليها مَن أتمنى أن تتحقق كل أمنياتها"... "أسعد هيلين في زماننا"... من المخجل أن تقول إنها لم تقرأها مطلقًا. مثل كتاب الفيلسوف جورج كروم عن العقل وكتاب وليام بيتس عن العادات البربرية عند سكان جزر بولينيزيا (قالت لنفسها، "عزيزتى، كوني صلبة دائمًا")- لا شيء من هذا يمكن للمرء أن يرسله إلى الفنار. افترضت أنه في لحظة بعينها، سيكون المنزل من الرثاثة إلى

حد ضرورة القيام بشيءٍ ما. فقط لو تعلموا أن يمسحوا أقدامهم ولا يحضروا الشاطئ معهم داخل البيت- سيكون ذلك أمرًا جديرًا بالاعتبار. ستسمح بوجود سراطين البحر، إذا كان أندرو يرغب بالفعل في تشريحها، أو إذا كان جاسبر يظن أن المرء يمكنه أن يعد حساءً من طحالب البحر، فلا يمكن للمرء أن يمنع ذلك؛ أو أشياء روز- المحار، وحزم القصب، والأحجار؛ لأنهم موهوبون، أطفالها، لكن كل واحد منهم بطريقة مختلفة عن الآخر. وكانت نتيجة ذلك أن تنهدت، فيما تمسح بعينيها الحجرة كلها من الأرض حتى السقف، وهي تضع الجورب على ساق جيمس، فتلك الأشياء أصبحت أكثر رثاثة وتزداد رثاثة صيفًا بعد آخر. كانت الحشية قد هبطت؛ وورق الحائط قد تدلى. ولم يعد يمكنك أن تحدد إن كانت الرسوم المطبوعة فيه أزهارًا من أي نوع. ومع ذلك، فإذا تُرك كل باب في منزل مفتوحًا بشكل دائم، ولا يستطيع أي صانع أقفال في كل اسكوتلاندا أن يُصلح لسان القفل، فلابد للأشياء أن تتلف. فما فائدة طرح شال من الكشمير الأخضر على حافة إطار لوحة؟ ففي خلال أسبوعين سيتحول لونه إلى لون حساء البازلاء. لكنها الأبواب هي التي كانت تزعجها؛ كانت كلها متروكة مفتوحة. أرهفت السمع. كان باب حجرة الاستقبال مفتوحًا؛ وباب الصالة مفتوح؛ وبدا لها أن أبواب غرف النوم مفتوحة؛ ومن المؤكد أن نافذة بسطة السلم مفتوحة، لأنها فتحتها بنفسها. تلك النوافذ يجب أن تبقى مفتوحة، أما الأبواب فيجب أن تُغلق- الأمر بسيط، أفلا يمكن لأحدهم أن يتذكر ذلك؟ وعليها أن تذهب إلى حجرات نوم البنات في الليل لتتأكد أنها محكمة الإغلاق مثل المواقد، فيما عدا غرفة مارى، الفتاة السويسرية، التي تفضل أن تبقى دون أن تتحمم

عن أن تبقى دون هواء منعش متجدد، لأنها عندئذ تشعر بالراحة، وقد قالت، "الجبال شديدة الروعة". قالت ذلك الليلة الماضية وهي تتطلع من النافذة والدموع في عينيها. "الجبال شديدة الروعة". كان والدها يحتضر هناك، والسيدة رمزي كانت تعلم ذلك. سيتركهم يتامى. توبخها وتوضح لها (كيف ترتب الفراش، كيف تفتح النافذة، بيدين تنقبضان وتنبسطان مثل يدي امرأة فرنسية) كل شيء حولها ينهار من تلقاء نفسه بهدوء، عندما تحدثت الفتاة، مثل طائر يطوى جناحيه بهدوء بعد الطيران في أشعة الشمس، وزرقة ريشه تتحول من الزرقة الفولاذية الزاهية إلى الأرجواني الباهت. وقفت هناك صامتة لأنه لم يكن ثمة ما يقال. كان مصابًا بسرطان الحلق. ولدى تذكرها ذلك- كيف استطاعت الوقوف هناك، كيف قالت الفتاة "في بلادي الجبال شديدة الروعة"، ولم يكن هناك أمل، أية بارقة أمل، كان لديها تشنج عضلي بسبب الانفعال، وقالت لجيمس، متحدثة بحدة:

"قِف مستقيمًا. لا تكن مُتعبًا"، لذلك أدرك في التو أن صرامتها كانت حقيقية، فعدل ساقه في وضع مستقيم وقامت بقياسها.

كان الجورب قصيرًا بنصف بوصة على الأقل، مما جعلها تفكر في حقيقة أن ابن سورلي الصغير لابد أن يكون أقل حجمًا من جيمس.

قالت :"إنه شديد القصر، لم يسبق لى أن رأيت جوربا بهذا القصر".

لم يسبق لشخص أن بدا حزينًا جدًّا هكذا. ممرورة ومكتئبة، ربما تشكلت دمعة، في طريقها إلى الانحدار، في الظلام، في بصيص النور الذي انطلق من ضوء الشمس إلى الأعماق؛ سقطت دمعة، تأرجحت الدموع على

هذا الطريق وذاك، فتلقفتها، في الوقت المناسب. لم يحدث أن بدا أي شخص أبدًا حزينًا جدًّا هكذا.

قال الناس، لكن ألم يكن الأمر سوى نظرات؟ ماذا كان خلفها- جمالها وروعتها؟ تساءل بعضهم، هل فجَّر رأسه، تساءلوا، هل مات الأسبوع السابق على زواجهما- هل وصلت الشائعات عن أحدهم- عاشق آخر، سابق؟ أم لم يكن هناك شيء؟ لا شيء سوى جمال لا يضاهى عاشت خلفه، ولم يكن بوسعها فعل شيء للتشويش عليه؟ لأنه ببساطة على الرغم من أنها ربما قالت في لحظة حميمة حين اعترضت طريقها قصص العواطف المشبوبة، والفشل العاطفي، والطموح الجارف كيف أنها هي أيضًا عرفت ذلك أو شعرت به أو مرت به هي نفسها، لكنها لم تتحدث مطلقًا. كانت دائمًا صامتة. أدركت عندئذٍ- عرفت دون أن تتعلم. سبرت بساطتُها غور ما زيفه الأذكياء. جعلتها فرادة ذهنها تسقط تمامًا كصخرة، مضطرمةً تمامًا كطائر، ومنحتها، بالطبع، هذا الانقضاض وسقوط الروح فوق حقيقة أسعدتها، وهدأتها، ودعمتها- ربما بصورة زائفة.

(قال السيد بانكس ذات مرة، وهو متأثر للغاية بجمال صوتها في الهاتف، "الطبيعة ليست سوى قليل من الطين"، رغم أنها لم تكن تقول شيئا أكثر من مجرد واقعة ما تتعلق بقطار، "طين مثل ذاك الذي تشكلتِ منه". رآها في طرف الخط، يونانية، ذات عيون زرقاء، وأنف مستقيم. إلى أي مدًى بدا متناقضًا أن يتحدث هاتفيًّا مع امرأة كهذه. بدت ربات الجمال المجتمعات كأنهن يمتلكن أيدٍ ملتمة في مروج الزنبق لتؤلف هذا الوجه.

نعم، عليه أن يلحق بقطار العاشرة والنصف في إيستون.

قال السيد بانكس، "لكنها لا تعى جمالها أكثر من وعى طفل صغير"، وهو يعيد السماعة إلى مكانها، ويعبر الحجرة ليرى مدى التقدم الذي أنجزه العمال الذين يعملون في فندق كانوا يبنونه في ظهر منزله. وفكر في السيدة رمزي، وهو يتطلع إلى ذلك النشاط الجاري بين الحوائط التي لم تكتمل. فكر، لأن هناك دائمًا شيئًا ما متناقضًا في تناغم وجهها يجب وضعه في الاعتبار. وضعت على رأسها قبعة من جلد الأيائل؛ وركضت عبر المرج وهي ترتدي الحذاء المطاطي لتنتزع طفلًا يوشك أن يلم به الأذى. لذلك فإذا كان جمالها هو الشيء الوحيد الذي يفكر فيه المرء، فينبغي أن يتذكر الشيء المرتعش، الشيء الحي (كانوا يحملون قوالب طُوب فوق لوح صغير من الخشب وهو يراقبهم)، ويدرجه في الصورة؛ أو إذا كان المرء يفكر فيها ببساطة كامرأة، فعليه أن يهبها بعض خصوصية المزاج- فهى لا تحب الإعجاب- أو المفترض بعض الرغبة الكامنة في التخلص من ملوكية شكلها كما لو كان جمالها وكل ما يقوله أولئك الرجال عن الجمال يضجرها، وأنها لا ترغب إلا في أن تكون كغيرها من الناس، شخصية غير مهمة. لا يدري. لا يدري. ينبغي أن يذهب إلى عمله).

فيما تحيك جوربها البني المحمر المكسو بالوبر، ورأسها مشغولة بشكل عبثي بالإطار المذهب، والشال الأخضر الذي طرحته على حافة الإطار، وتحفة مايكل أنجلو الأصلية، خففت السيدة رمزي مما كان خشنا من طبعها في اللحظات السابقة، رفعت رأسها، وقبلت ابنها الصغير في جبينه. وقالت: "فلنعثر على صورة أخرى لنقُصها".

الفصل السَّــادس

لكن ماذا حدث؟

أحدهم تعثر في سيره.

إذ أفاقت من تأملاتها منحت معنًى للكلمات التي كانت تطوف في رأسها بلا معنى لأمد طويل. "أحدهم تعثر في سيره"- مثبتةً عينيها قـصيرتَي النظـر على زوجها، الذي كان يندفع قادمًا نحوها، حدقت بثبـات حـتى كـشف لهـا اقترابه منها (ازدوجت الجلجلة في رأسها) أن شيئًا ما قد حدث، أن أحـدهم قد تعثر في سيره. لكن طبيعة الحياة التي عاشتها لم تمكنها مـن تخمـين مـا حدث.

انتفض؛ ارتعش. بكل خيلائه، وكل رضاه بأبهته الخاصة، منطلقًا بعنف كالصاعقة، شرسًا مثل صقر على رأس رجاله عبر وادى الموت، تحطم، تـدمَّر. اندفعنا محمومين بالطلقات والقذائف، انطلقنا وتدفقنا بشجاعة، أبرقنا عبر

وادى الموت، منطلقين مرعدين- مباشرةً نحو لِيلي بريسكو ووليام بانكس. ارتعش؛ انتفض.

ولا لأي سبب كان يمكن أن تتحدث إليه، مدركًا ذلك، من الإشارات المألوفة، فتحول بصره عنها، مع احتشاد غريب لشخصه، كما لو كان يلف نفسه ويحتاج الخصوصية التي تمكنه من استعادة توازنه، ذلك أنه كان غاضبًا وموجوعًا. خبطت رأس جيمس؛ نقلت إليه ما كانت تشعر به نحو زوجها، وفكرت، وهي تراقبه وهو يحدد بالطباشير الأصفر قميصًا باللون الأبيض مما يرتديه الرجال في كتالوج متاجر الجيش والبحرية، فكرت أية بهجة سيمنحها لها لو أصبح فنانًا كبيرًا؛ ولم لا؟ فلديه جبين رائع. ثم هدأت، إذ تطلعت لأعلى، حين مر بها زوجها مرةً أخرى، حين اكتشفت أن الخراب قد احتجب؛ وانتصرت الحياة المنزلية؛ ودندن الاعتياد إيقاعه المهدئ، لذلك حين توقف بتأن، عندما جاء عليه الدور مرةً أخرى، قرب النافذة، انحنى بشكل ساخر وغريب ليدغدغ ربلة ساق جيمس العارية بغصن شجرةٍ ما، فلامته لإزعاجه "ذلك الشاب المسكين"، تشارلز تانسلي. قال لها، كان على تانسلي أن يدلف إلى الداخل ويكتب أطروحته.

أضاف متهكمًا، وهو يضرب ضربات خفيفة بذلك الغصن، "ذات يوم من هذه الأيام سيكون على جيمس أن يكتب أطروحته".

كارهًا لأبيه، أبعد جيمس الغصن الذي يدغدغه به بطريقة غريبة عليه، في مزيج من العنف والمزاح، ظل ينخز ساق ابنه الأصغر العارية.

قالت السيدة رمزي إنها تحاول أن تنتهي من هذه الجوارب المملة لترسلها

إلى ابن سورلي الصغير غدًا.

عض السيد رمزي على نواجذه وهـو يتمـيز غيظًـا وقـال، لا توجـد أدنى فرصة محتملة للذهاب غدًا إلى الفنار .

سألته، كيف له أن يعرف ذلك؟ لطالما غيرت الريح مسارها.

أغضبته اللاعقلانية المفرطة في ملاحظتها، وحماقة عقول النساء. مضى عبر وادى الموت، تحطم وارتعش؛ والآن، حلَّقت في وجـه الحقـائق، جعلـت الأطفال يأملون في ما هو خارج المناقشة تمامًا، في الواقع، قالت لهم أكاذيب. وضع قدمه على الدرجة الحجرية. قال، "اللعنة عليك". لكن ماذا قالت هي؟ ببساطة قد يكون الجو صحوًا غدًا. هكذا قد يكون.

ليس بقياس البارومتر والريح التي يُفترض أن تهب من الغرب.

بالنسبة لها كانت متابعة الحقيقة بهذا الافتقار المذهل إلى احترام مشاعر الآخرين، وتمزيق أقنعة الحضارة الواهية بوحشية، بقـسوة شـديدة، انتهـاكًا للياقة السلوك الإنساني أدى، بلا رد، إلى الدوار والعمَى، فأحنت رأسها كما لو كانت لتسمح لضربات الوابل الخاطف، وبلل الماء القذر، يلطخها في صمت. فلم يكن هناك ما يقال.

وقف بجوارها في صمت. شديد التذلل، قال لها في النهايـة إنـه سـيخرج ويسأل خفر السواحل إن أرادت.

لم يكن هناك أي شخص بجلته كما بجلته هو.

قالت، إنها على أتم استعداد أن تأخذ بكلامه. لكن في هذه الحالة فلن

يكونوا بحاجة إلى إعداد السندويتشات- هذا كل ما في الأمر. كانوا يحيطون بها، بشكل طبيعي، لأنها امرأة، تقضى يومها كله مع هذا وذاك؛ أحدهم يريد هذا، آخر يريد ذاك؛ كان الأطفال يكبرون؛ ولطالما شعرت أنها ليست سوى اسفنجة منقوعة تمامًا في العواطف الإنسانية. عندئذٍ قال، اللعنة عليك. قال مؤكد أنها ستمطر. ثم قال، إنها لن تمطر؛ وفي التو انفتحت أمامها سماوات من الأمان. لم يكن هناك مَن بجلته أكثر مما بجلته هو. وشعرت أنها لا تستحق أن تحل سيور حذائه.

وإذ أحس بالخزى من وقاحة ألفاظه، ومن إشارات يديه عند إصداره التعليمات لربة جماعته، راح السيد رمزي ينخس ساق ابنه العارية في بلـه مرةً أخرى، وعندئذٍ، وكأنه حظى بإذنها من أجل ذلك، بحركة ذكرت زوجته بشكل غريب بأسد البحر الكبير في حديقة الحيوان يهرول للخلف مضطربًا بعد ما ابتلع سمكته وتقدم متعثرًا كي يغسله ماء الصهريج من جانب لآخر، غمر نفسه في هواء الليل الذي، وقد أصبح أكثر لطفًا، كان يستمد الجوهر من أوراق الشجر والسياج لكن، كما لو كان بالمقابل، يعيد إلى الزهور والقرنفل بريقًا لم يكن فيهما في النهار.

قال مرةً أخرى، "أحدهم تعثر في سيره"، وهو يتمشى ويطوف بالشرفة.

لكن كم تغيرت نبرته بشكلٍ غير عادى! كان ذلك مثل طائر الوقواق؛ "في يونيو يفقد انسجامه مع ذاته"؛ كما لو كان يقوم بالمزيد من التجريب، باحثًا على استحياء، لعبارةٍ ما تناسب مزاجًا نفسيًا جديدًا، وليس في متناوله الآن سوى هذه العبارة، فاستخدمها، على الرغم من أنها مشروخة. لكنها

بدت مثيرةً للسخرية- "أحدهم تعثر في سيره"- أن تُقال هكذا، تقريبًا في شكل سؤال، بأداء شجي، دون أي اقتناع. لم تستطع السيدة رمزي أن تسيطر على ابتسامتها، وفي الحال، وبتأكيد تام، راح يهمهم بها، وهو يسير جيئةً وذهابًا، ثم خفض صوته، ثم صمت كليةً.

كان يشعر بالأمان، وعاد إلى خصوصيته. توقف ليشعل غليونه، وألقى نظرة نحو زوجته وابنه في النافذة، وكشخص يرفع عينيه من على صفحة كتاب وهو على متن قطار سريع وينظر نحو مزرعة، شجرة، مجموعة من الأكواخ تشبه لوحة مرسومة، تأكيدًا لشيء ما في الصفحة المطبوعة التي يعود لها المرء، متشجعًا، ومشبعًا، هكذا بلا تمييزه بين ابنه وزوجته، كانت رؤيته لهما مشجعةً ومرضيةً له وركز مجهوده للوصول إلى فهم واضح تمامًا للمشكلة التي تشغل طاقات ذهنه الرائع الآن.

كان ذهنًا رائعًا. فلو كانت الفكرة تشبه مفاتيح البيانو، موزعة على عدة أنغام، أو مثل حروف الأبجدية مرتبة في ستة وعشرين حرفًا، إذن فإن ذهنه الرائع لم تكن لتواجهه أية صعوبة في المرور على تلك الحروف حرفًا حرفًا، بثبات ودقة، إلى أن وصل إلى حرف الـQ. لقد وصل إلى الـQ. قلة نادرة من الأشخاص في انجلترا كلها مَن سبق ووصل إلى الـQ. هنا، متوقفًا لدقيقة واحدة بجوار الجرة الحجرية التي تنمو فيها نباتات إبرة الراعى، رآها، لكن هناك بعيدًا، بعيدًا، مثل الأطفال الذين يلتقطون الأصداف، أبرياء بصورة سماوية ومشغولين بأشياء بسيطة تحت أقدامهم، وبلا حيلة تمامًا على نحوٍ ما إزاء قَدَر رآه، زوجته وابنه، معًا، في النافذة. كانوا بحاجة إلى حمايته؛ وقد

منحها لهم. لكن أي حرف يأتي بعد الـQ؟ بعد الـQ هناك عدد من الحروف آخرها مرئي بالكاد أمام العيون الآدمية، لكنه يومض باللون الأحمر في البعيد. والـZ وصل إليه مرةً وحيدة شخصٌ وحيد في الجيل. ومع ذلك، فإن استطاع الوصول إلى الـR فسيكون أمرًا جديرًا بالاعتبار. هنا على الأقل الـQ. حفر بعقبيه في الـQ. كان واثقا من الـQ. ويمكنه أن يشرح الـQ. وإذا وصلنا إلى الـQ- R-. عندئذٍ أخرج غليونه من فمه، وطرق به مقبض الجرة الحجرية طرقتين خفيفتين أو ثلاثًا بصوت رنان، وتابع. "ومن ثم الـR..." استجمع قواه. وحسم أموره.

السمات التي تنقذ ملاحي سفينة في بحر عاصف لا يملكون سوى ستة شرائح من البسكويت وقارورة ماء- هي الجَلَد والعدل، البصيرة، التفاني، والمهارة، كلها هبت لنجدته. حرف الـR إذن- ما هو الـR ؟ غطاء متحرك، مثل جفن السحلية الجلدي، ومض بفعل كثافة نظرته الثاقبة وغام أمامه الـR. في لمحة الظلام الخاطفة تلك سمع أناسًا يقولون- كان فاشلًا- ذلك الـR كان أبعد من فهمه. ولن يصل مطلقًا إلى الـR. فهيا إلى الـR، مرةً أخرى. الـR-.

السمات الكامنة في بعثة استكشافية بائسة عبر مناطق القطب الثلجية النائية جعلته القائد، والمرشد، والناصح، حيث مزاجه لا هو دموي ولا هو كئيب، ليفحص برباطة جأش ما سيحدث ويواجهه، هبت تلك الصفات لنجدته مرةً أخرى. الـR-

برقت عينا السحلية مرةً أخرى. انتفخت عروق جبهته. أصبحت

نباتات إبرة الراعي في الجرة مرئيةً بشكل مفاجئ، وبرز من بين أوراقها- كان بمقدوره أن يرى، دون أن يتمنى، ذلك التمايز القديم، الواضح، بين الفئتين من الرجال؛ في المقام الأول الرواد الراسخون للقوة الخارقة، الكادحون المثابرون، الذين يكررون الحروف الأبجدية كلها مرتبة، ستة وعشرين حرفًا جميعًا، من أولها لآخرها؛ وعلى الجانب الآخر، الموهوبون، الملهمون الذين يجمعون، بصورة معجزة، كل الحروف معًا في لمح البصر- أسلوب العباقرة. وهو ليس عبقريًا؛ ولا يدعي ذلك: لكنه لديه، أو بالأحرى ربما كانت لديه، القوة ليعيد ويكرر كل حرف من الأبجدية من A إلى Z مرتبةً بدقة. ومع ذلك فها هو عالق مع حرف الـQ. فهيا، إذن، هيا إلى الـR.

مشاعر لن تلحق الخزى بقائد، يعرف، وقد بدأ الثلج يتساقط وقمة الجبل تتغطى بالضباب، أن عليه أن يرمي بنفسه ويموت قبل مجيء الصباح، والمعطف المنزلي عليه، ولون عينيه يشحب، مما منحه، حتى في الدقيقتين اللتين استدار فيها في الشرفة، النظرة الغائمة للشيخوخة الذاوية. مع ذلك فربما لا يموت ممدد الجسد؛ ربما يعثر على حافة صخرية ناتئة منحدرة، وهناك، وعيناه مثبتتان على العاصفة، محاولًا حتى النهاية اختراق الظلام، ويموت واقفًا. ولن يصل البتة إلى حرف R.

كان يقف بلا حراك، بجوار الجرة الحجرية، ونبات إبرة الراعي يتدلى خارجها. سأل نفسه، ومع ذلك، فكم رجل في الألف مليون وصل إلى حرف الـZ؟ مؤكدٌ أن قائدًا محرومًا من الأمل قد يطرح على نفسه ذلك السؤال، ويجيب، دون خداع للبعثة الاستكشافية وراءه، "ربما واحد". واحدٌ في

الجيل. فهل هو الملوم إذن أنه ليس ذلك الواحد؟ فهل كدح بأمانة، هل قدم أفضل ما في قدرته، وهل لا يزال لديه ما يقدمه؟ وإلى متى تدوم شهرته؟ من المسموح حتى للبطل وهو يحتضر أن يفكر قبل أن يموت في عدد الأشخاص الذين سيتحدثون عنه فيما بعد. ربما ستستمر شهرته ألفي عام. وما معنى ألفي عام؟ (تساءل السيد رمزي ساخرًا، وهو يتفرس في السياج الشجري). فماذا، حقًّا، لو نظرت من قمة جبل إلى أسفل حيث الدمار اللانهائي للعصور؟ العصر الحجرى الذي يركله أحدهم بحذائه سيدوم أكثر من شكسبير. سيشرق ضوؤه الضعيف، لا بسطوع، لعام أو اثنين، ثم يختلط بعدها ويمتزج مع ضوء آخر أكبر، يندمج بدوره في ضوء أكبر. (تطلع نحو السياج الشجري، نحو الغصون المتشابكة). فمن إذن بوسعه أن يلقى باللوم على قائد ذلك الحفل البائس الذي صعد في النهاية عاليًا بما يكفي لكي يرى خراب السنين وفناء النجوم، لو أنه قبل أن يُخشب الموت أطرافه بما يفوق قدرته على الحركة يقوم بقليل من الوعي فيرفع أصابعه المخدرة إلى مرفقه، ويرفع كتفيه في وضع مستقيم، حتى إذا أتت مجموعة الباحثين عثرت عليه ميتًا في وضعه هذا، في شكل رائع لجندي؟ عدل السيد رمزي من وضع كتفيه ووقف مستقيمًا تمامًا بجوار الجرة الحجرية.

مَن سيلومه، لو، وهو واقفٌ لدقيقة يمعن التفكير في الشهرة، وفي مجموعات البحث، وفي أحجار الضريح التي يرفعها فوق عظامه أناس ممتنون؟ في النهاية، مَن سيلوم قائد الحملة المشئومة، لو أنه، وقد غامر إلى آخر مدى، واستخدم قواه كلها إلى آخر ذرة في كيانه ثم سقط نائمًا غير مكترث كثيرًا بما إن كان سيصحو مرةً أخرى أم لا، وهو الآن يدرك بإحساسه بالوخز في

أصابع قدميه أنه لا يزال على قيد الحياة، ولا يعترض عمومًا على أن يعيش، لكنه يحتاج إلى التعاطف، والويسكي، وشخص ما يحكى له قصة معاناته في الحال؟ مَن سيلومه؟ مَن ذا الذي لن يبتهج خلسةً عندما يخلع البطل درعه، ويتوقف بجوار النافذة يتفرس في زوجته وابنه، اللذين كانا بعيدين جدًّا في البداية، ثم شيئًا فشيئًا صارا أقرب وأقرب، حتى صارت الشفاه والكتاب والرأس واضحين أمامه، على الرغم من أنها لا تزال لطيفة وغير معتادة إزاء كثافة عزلته وخراب العصور وفناء النجوم، وفي النهاية يضع غليونه في جيبه ويحني رأسه الضخمة أمامها- مَن سيلومه إذا أعلن إجلاله لجمال العالم؟

الفصل السَّـــابع

لكن ابنه كان يكرهه. يكرهه لاقترابه منهما، لتوقفه وتطلعه نحوهما؛ كان يكرهه لأنه يقاطعهما؛ يكرهه لتسامي ورفعة إيماءاته؛ لعظمة رأسه؛ لكثرة طلباته وأنانيته (لأنه في وقفته هناك، يأمرهما بأن ينتبها له) لكن أكثر ما كرهه هو خنفة الصوت ورعشة انفعال والده التى، إذ تتذبذب حولهما، كانت تزعج البساطة الكاملة والمشاعر الطيبة لعلاقته بأمه. وبمواصلة النظر بثبات في الصفحة، تمنى أن يجعله يتحرك؛ بإشارة إصبعه إلى كلمةٍ ما، تمنى أن يستعيد انتباه والدته، الذي اضطرب بمجرد توقف والده بجوارهما، كما أدرك غاضبًا. لكن، لا. لا شيء سيجعل السيد رمزي يتحرك. ها هو واقف هناك، يطلب التعاطف.

والسيدة رمزي، التي كانت جالسة على راحتها، تحتضن ابنها بذراعها، استجمعت قواها، وبنصف التفاتة، بدا أنها تبذل جهدا لترفع نفسها، وفي

الحال لتصب في الجو وهي واقفة مطرَ طاقة، عمودَ رذاذ، وتبدو في الوقت ذاته مفعمة بالحيوية والنشاط كما لو كانت كل طاقتها قد انصهرت في شكل قوة، محرقة ومضيئة (رغم ذلك جلست بهدوء، وعادت تمسك بجوربها مرةً أخرى)، وفي هذه الوفرة من البهجة، في نافورة الحياة ورذاذها هذا، غرس العقم المميت للذكورة نفسه، مثل منقار من النحاس، مجدب وقاحل. كان يريد التعاطف. قال إنه كان فاشلًا. وومض بريق إبر التريكو في يد السيدة رمزي. كرر السيد رمزي، دون أن يرفع عينيه من على وجهها إطلاقًا، إنه كان فاشلًا. نفخت في الكلمات مرتدَّةً إليه. قالت، "تشارلز تانسلي..." لكن لابد أن يكون لديه ما هو أكثر من هذا. كان التعاطف هو ما أراده، ليتأكد من عبقريته، قبل كل شيء آخر، ثم يؤخذ إلى داخل دائرة الحياة، محاطًا بالدفء والسكينة، أن يستعيد مشاعره ووعيه، أن يتحول عقمه إلى خصب، وأن تمتلئ كل حجرات المنزل بالحياة- حجرة الاستقبال؛ المطبخ خلف حجرة الاستقبال؛ غرف النوم فوق المطبخ؛ وغرف الأطفال وراء غرف النوم؛ لابد من تأثيثها، لابد من ملئها بالحياة.

قالت، إن تشارلز تانسلي يرى فيه أعظم علماء عصره في الميتافيزيقا. لكنه لابد له من الحصول على ما هو أكثر من ذلك. لابد له من التعاطف. لابد من تأكده من أنه هو أيضًا يعيش في قلب الحياة؛ كان يريد ذلك؛ لا هنا فقط، بل في كل أنحاء الأرض. وإذ ومضت إبرتها، واثقة من نفسها، عمودية، ابتدعت حجرة استقبال ومطبخًا، بثت فيها التوهج؛ أمرته بأن يكون على راحته هناك، يدخل ويخرج، يمتع نفسه. ضحكت، وحاكت بالإبرة. وفيما يقف جيمس بين ركبتيها، متصلبًا جدًّا، شعر أن كل قوتها مستشيطة إلى

حد السُّكر والخمود بفعل منقار النحاس، السيف المعقـوف المثلـوم للذكَـر، الذي يضرب بلا رحمة، مرات ومرات، مطالبًا بالتعاطف.

كرر قائلًا، لقد كان فاشلًا. حسنًا، انظر إذن، ولتشعر إذن. وإذ ومـضت إبراتها، محلقة فيما حولها، وخارج النافـذة، وداخـل الغرفـة، وفي جـيمس نفسه، أكـدت له، فيمـا وراء ظـلال الـشك، بـضحكتها، واتزانهـا ورباطـة جأشها، وكفاءتها (كممرضة تحمل ضوءًا عبر حجرة مظلمـة لتطمـئن طفـلًا مشاكسًا)، أن ذلك كان حقيقيًّا؛ أن المنزل كان ممتلئًا، والحديقة مزدهـرة. لـو أنه آمن بها من داخله، لما أمكن لشيء أن يؤذيه؛ مهما دفن نفسه في أعماق سحيقة أو صعد إلى أعلى، فلن يجد نفسه ولو لبرهة واحدة بـدونها. متباهيـةً هكذا بقدراتها على إحاطته وحمايته، لم يكـن هنـاك بـالكاد سـوى قوقعـة واحدة باقية لها لتعرف نفسها بها؛ كان الجميع مسرفين ومُغدقين؛ وجيمس، وهو واقف متصلبٌ بين ركبتيها، أحس بها تقف في شـجرة محملـة بالثمـار المزهرة الوردية ذات أوراق وغصون متراقـصة انغـرس فيهـا وضرب منقـارُ النحاس وسيفُ والده المثلوم، ذلك الرجل الأناني، الذي يطلب التعاطف.

مفعمة بكلماتها، كطفل يستغرق في النوم مُشبعًا، قال، في النهاية، وهـو ينظر نحوها بامتنان ذليل، عفيًّا متجددًا، إنه سيقوم بتمـشيةٍ؛ فهـو يريـد أن يرى الأطفال يلعبون الكريكيت. ومضى.

في الحال، بدا أن السيدة رمزي تنطوي على نفسها، كبتلة مغلقـة داخـل أخرى، وسقط كل النسيج في إنهاك شديد فوق بعضه البعض، فلم يبـق مـن قواها إلا ما يمكنها من تحريك إصبعها، في استـسلام رائـع للإنهـاك، عـبر

صفحة من قصص الأخوين جريم الخيالية، فيما خفقت داخلها نشوة الخلق الناجح، كنابض في زنبرك ينبض تمدد إلى أقصى اتساعه والآن يكف عن الذبذبة.

بدا أن كل خفقة من تلك الذبذبات، تطوقها وتطوق زوجها، وهو يسير مبتعدًا، وتمنح كل منهما ذلك العزاء بنغمتين مختلفتين، واحدة عالية، والأخرى منخفضة، وقد التقتا معًا، فيبدو أن كلاً منهما يمنح الآخر إذ يندمجان. مع ذلك حين كف الرنين، والتفتت مرةً أخرى إلى القصة الخرافية، شعرت السيدة رمزي لا فقط بإنهاك البدن (فيما بعد، وليس في تلك اللحظة، كانت دائمًا ما تشعر بذلك) لكن أيضا شاب تعبها الجسماني مسحة من إحساس غير مرغوب فيه من الوهن أصاب عضوًا آخر. وفيما كانت تقرأ بصوت مرتفع قصة زوجة الصياد، لم تكن تعرف على وجه الدقة من أين يأتي ذلك التعب؛ ولا تركت نفسها تصوغ في كلمات استياءها حين أدركت ذلك، عند قلب الصفحة، حين توقفت وسمعت بصورة بليدة، مشئومة، سقوط موجة، كيف أتت من هذا: لم تكن تحب، ولا حتى لمجرد برهة، أن تشعر بأنها أفضل من زوجها؛ وعلاوة على ذلك، فلم تكن تتحمل ألا تكون واثقةً تمامًا، حين تتحدث إليه، من حقيقة ما تقول. الجامعات والناس يريدونه، المحاضرات والكتب وكونهم الأكثر أهمية- كل ذلك لم تشك فيه للحظة؛ لكنها كانت علاقتهما، وقدومه إليها بهذه البساطة، متفتحًا، لكي يمكن لأي شخص أن يرى، ذلك ما أقلقها؛ لأن الناس قالوا وقتها إنه يعتمد عليها، في حين كان ينبغي أن يعرفوا أنه كان الأكثر أهمية في الاثنين، وأن ما قدمته هي للعالم تافه، مقارنة بما قدمه هو. لكن مرةً

أخرى، آنئذٍ، كان ذلك الشيء الآخر أيضًا- عجزها عن مواجهته بالحقيقة، خوفها، على سبيل المثال، من تذكيره بإصلاح سقف الصوبا وتكلفته، التي قد تصل إلى خمسين جنيها؛ ثم فيما يتعلق بكتبه، خوفها من أنه ربما يخمن، ما تشككت فيه قليلاً، أن كتابه الأخير لم يكن أفضل كتبه على الإطلاق (جمعت هذه الملاحظات من وليام بانكس)؛ ثم اضطرارها لإخفاء أمور يومية تافهة، ورؤية الأطفال لها، والعبء الملقى على كاهلهم من ذلك- كل هذا قلل من البهجة المطلقة، البهجة الخالصة، لهاتين النغمتين المعزوفتين معًا، وترك الصوت يخبو في أذنها الآن بذلك الركود المقبض للنفس.

ثمة ظل على الصفحة؛ تطلعت إلى أعلى. كان أغسطس كارمايكل يمر متثاقلاً بمحاذاتها، على وجه الدقة الآن، في تلك اللحظة تمامًا حين كان من المؤلم أن تتذكر اضطراب العلاقات الإنسانية، وأن العلاقات الأكثر مثالية قد تصدعت، ولا يمكنها تحمل التساؤلات التي تعتمل داخلها، بشأن حبها لزوجها، مع غريزتها في البحث عن الحقيقة؛ حين كان من المؤلم أن تشعر بنفسها متهمةً بالتفاهة، ومعاقةً في أداء وظيفتها الحقيقية بهذه الأكاذيب، وهذه المبالغات- كان ذلك في تلك اللحظة التي كانت تتآكل فيها بصورة خسيسة في صحوة انسجامها، في تلك اللحظة مر بمحاذاتها السيد كارمايكل متثاقلاً، بخفه الأصفر، وحدا بها شيطانٌ ما يسكنها أنه من الضروري لها أن تصرخ عاليًا، وهو يمر بجوارها،

"ألا تتفضل بالدخول يا سيد كارمايكل؟"

الفصل الثَّـــامن

لم يقل شيئًا. كان يتعاطى الأفيون. قال الأولاد إنه لطخ به لحيتـه بـاللون الأصفر. ربما. ما كان واضحًا لها أن ذلك الرجل المـسكين كان تعيـسًا، يـأتي إليهم كل عام كنوع من الهروب؛ ومع ذلك ففي كل عام تشعر بنفس الشعور؛ لم يكن يثق بها. قالت له، "أنا ذاهبة إلى البلدة. هل أحضر لـك مـعي طوابـع بريد، أوراقًا للكتابة، تبغًا؟" وشعرت به يجفل. لم يكن يثق بها. كان ذلك من فعل زوجته. تذكرت الظلم الذي وقع عليه من زوجته، مما جعلها تتحول إلى كتلة من الفولاذ والحجر الصَّلد هناك، في تلك الحجرة الـصغيرة المروعـة في غابة سانت جون، حين رأت بأم عينيها تلك المرأة البغيضة تطرده من المنزل. كان مهملًا؛ يسقط الأشياء على معطفه؛ كان لديه ذلك الملل الذي يـشعر بـه رجل تقدم به العمر وليس لديه ما يفعله في العـالم؛ وطردتـه مـن الحجـرة. قالت، بطريقتها البشعة، "والآن، نريد أنا والسيدة رمزي أن نتحدث قلـيلاً معًا"، وكان بمقدور السيدة رمزي أن ترى، بعينيها، تعاسات حياتـه الـتي لا

تحصى. فهل كان لديه من المال ما يكفي لشراء التبغ؟ هل اضطر أن يطلب منها ذلك؟ حتى نصف كراون؟ ثمانية عشر بنسًا؟ أوه، لم تستطع أن تتحمل التفكير في تلك الإهانات الصغيرة التي جعلته يعانيها. والآن دائمًا (لم يكن بمقدورها أن تخمن، إلا أن يكون ذلك ربما نجم عن تلك المرأة بطريقة أو بأخرى) كان ينفر منها. لم يحكِ لها أي شيء مطلقًا. لكن ماذا بوسعها أن تفعل أكثر من ذلك؟ كانت هناك غرفة مشمسة منحوه إياها. والأولاد يحسنون معاملته. ولم يصدر عنها مطلقًا أدنى إشارة عن عدم رغبتها بوجوده. لقد غيرت أسلوبها في الحقيقة لتبدي له الود. هل تريد طوابع بريد، هل تريد تبغًا؟ ها هو كتاب قد تحبه وأشياء من هذا القبيل. ومع ذلك- مع ذلك (هنا بلا وعى لملمت شتات نفسها، بدنيًّا، أصبح حاضرًا في ذهنها شعورها بجمالها الخاص، كما يحدث في حالات شديدة الندرة) في النهاية، فلم يكن لديها عمومًا أية صعوبة في جعل الناس يحبونها؛ على سبيل المثال، جورج مانينج؛ والسيد والاس؛ الشهيران، كانا يأتيان إليها في المساء، في هدوء، ويتحدثون على انفراد بجوار المدفأة. كانت تحمل هذا الإحساس معها، ولم تستطع أن تمنع نفسها من وعيها به، شعلة جمالها؛ كان تحملها منتصبةً إلى أية حجرة تدخلها؛ ومع ذلك، كانت تخفيها وقتما تشاء، وتنكمش من رتابة تحملها فرضها عليها، كان جمالها أخاذًا. كانت محط إعجاب الآخرين. كانت محط حبهم. كانت تدخل الحجرات التي يجلس فيها المعزون. تنساب دموعهم في حضورها. رجال، ونساء أيضًا، إذ يمضون إلى أشياء كثيرة، يسمحون لأنفسهم بالإحساس براحة البساطة في حضورها. كان يجرحها أن تراه ينكمش أمامها. كان هذا يجرحها. كما أن تصرفه ذاك لم

يكن سليمًا، لم يكن على حق. هذا ما شغلها، مثلما حدث عندما كانت في قمة استيائها من زوجها؛ هذا هو الإحساس الذي اعتراها الآن عندما جرجر قدميه بجوارها السيد كارمايكل، مع مجرد إيماءة من رأسه ردًّا على استفسارها، وتحت إبطه كتاب، منتعلًا خفه الأصفر، فأثار ريبتها؛ واعتمل في داخلها أن كل رغبتها في العطاء، والمساعدة، كانت محض غرور. لأن إشباعها الذاتي كان يكمن في أنها تمنت بصورة غريزية تمامًا أن تساعد وأن تمنح، فلربما يقول عنها الناس، "أوه، السيدة رمزي! عزيزتي السيدة رمزي... بالطبع، السيدة رمزي!" وأن يحتاجوها ويطلبوها ويعجبوا بها؟ أليس هذا ما كانت تريده في دخيلة نفسها، ولهذا فعندما جفل السيد كارمايكل مبتعدًا عنها، كما فعل في هذه اللحظة، هاربًا إلى ركنٍ ما حيث راح يثرثر بلا نهاية بكلمات غير مفهومة من قوافي القصائد، لم تشعر قط بالتراجع عن غريزتها، لكنها أصبحت واعية بالإشفاق على جزء منها، وعلى العلاقات الإنسانية، كم هي متصدعة، كم هي خسيسة، كم هي باحثة عن الذات، في أفضل أحوالها. رثة وبالية، ولم يعد من المحتمل (كانت وجنتاها غائرتين، وشعرها أشيب) أن تكون منظرًا يفعم العيون بالبهجة، ومن الأفضل لها أن تكرس ذهنها لقصة الصياد وزوجته لتهدئ هذا الكَم من المشاعر المرهفة (ولا واحد من أطفالها كان مرهف الحس مثله) لابنها جيمس.

قرأت بصوت مرتفع، "ثقُل قلب الرجل، ولم يرغب في الخروج. قال لنفسه "هذا ليس صائبًا"، ومع ذلك خرج. وعندما وصل إلى البحر كان الماء أرجوانيًّا تمامًا وداكن الزرقة، ورماديًّا وغزيرًا، ولم يعد أخضر وأصفر،

لكنه كان لا يزال ساكنًا. فوقف هناك وقال.."

كان بوسع السيدة رمزي أن تتمنى لو لم يختر زوجها تلك اللحظة ليتوقف. لماذا لم يذهب كما قال ليشاهد الأولاد وهم يلعبون الكريكيت؟ لكنه لم يتكلم؛ نظر؛ وأومأ؛ واستحسن؛ ومضى في سبيله. انسل، وهو يرى أمامه ذلك السياج الشجرى يجلله الصمت لحظة بعد أخرى، وتوصل إلى نتيجةٍ ما، وهو يرى زوجته وطفله، ثم يرى مرةً أخرى الجرار تتدلى منها نباتات إبرة الراعى التي طالما زينت عمليات التفكير، وحملتها مكتوبة بين أوراقها، كما لو كانت قصاصات ورق يخربش عليها المرء ملاحظاته في غمرة القراءة- انسل، وهو يرى كل هذا، بنعومة إلى فكرة أوحى بها مقال قرأه في جريدة التايمز حول عدد الأمريكيين الذين يزورون منزل شكسبير كل عام. تساءل، لو أن شكسبير لم يوجد مطلقًا، فهل كان العالم سيختلف كثيرًا عما هو عليه اليوم؟ هل يعتمد التقدم الحضاري على العظماء؟ سأل نفسه، هل مصير الإنسان العادي أصبح أفضل الآن مما كان عليه وقت الفراعنة؟ سأل نفسه، هل مصير الإنسان العادي، على أية حال، هو المعيار الذي نقيس به مستوى الحضارة؟ محتملٌ لا. محتملٌ أيضًا أن الفائدة القصوى كانت تتطلب وجود طبقة عبيد. فوجود عامل المصعد داخله ضرورة أبدية. كانت الفكرة بغيضة له. خبط رأسه. وليتجنبها، فعليه العثور على طريقة لتأكيد هيمنة الفنون. عليه أن يجادل بأن وجود العالم من أجل الإنسان العادي؛ وأن الفنون محض تزيين مفروض على قمة الحياة الإنسانية؛ وأنها لا تعبر عن الحياة الإنسانية. ولا حتى شكسبير ضروري للحياة الإنسانية. وبدون أن يعرف على وجه الدقة لماذا أراد أن يحط من قدر شكسبير وينحاز إلى خلاص

الرجل الذي يقف للأبد وراء باب المصعد، التقط بحدة ورقة شجرة من السياج الشجري. فكَّر، إنه من الضروري إعادة صياغة كل هذا من أجل الشبان في كارديف(*) الشهر المقبل؛ فهنا، في شرفته، كان فقط يتسكع ويتنزه (ألقى ورقة الشجرة التي التقطها بتذمر شديد) كرجل نزل من على ظهر حصانه ليقطف باقة ورود، أو ملأ جيوبه بجوز الهند وهو فوق حصانه يسير متمهلًا عبر المروج والحقول في بلد معروف له منذ صباه. كل هذا كان مألوفًا له؛ هذا المنعطف، ذلك المرتقى، ذلك الممر عبر الحقول. كان يمضي ساعات هكذا، يدخن غليونه، ذات مساء، والأفكار تتجول في رأسه جيئةً وذهابًا وتخرج وتدخل وهو يتسكع في تلك المروج والحدائق العامة القديمة المألوفة له، التي كانت جميعها مرتبطة بتاريخ تلك الحملة هناك، وحياة رجل الدولة هذا هنا، بالقصائد والطرائف، وبالأشخاص أيضًا، بهذا المفكر، وذلك الجندي؛ كلها شخوص شديدة الحيوية والوضوح؛ ولكن في النهاية قاده الممر، والحقل، والحديقة العامة، وشجرة جوز الهند اليانعة، والسياج المزهر، إلى ذلك المنعطف البعيد للطريق حيث كان دائمًا ما يترجل عن حصانه، ويربطه إلى شجرة، ويستمر في سيره وحيدًا على قدميه. وصل إلى حافة المرج وتطلع نحو الخليج في الأسفل.

كان هذا قدره، وتفرده، بغض النظر عما إذا كان تمنى ذلك أم لا، أن يخرج هكذا إلى لسان من الأرض يبتلعه البحر ببطء، وأن يقف هناك، وحيدًا، كطائر بحري منعزل. كانت هذه قوته، وموهبته، أن يذرف فجأةً كل

(*) **كارديف** Cardiff: عاصمة مقاطعة ويلز، وأكبر مدنها على الساحل الغربي.

كل ما يفيض عنه، أن ينكمش ويتضاءل حتى يبدو أكثر عزلـة ويـشعر أنـه أكثر ضآلة، حتى من الناحية البدنية، دون أن يفقد مع ذلك شـيئا مـن قـوة عقله، وهكذا ليقـف على حافـة صـخرته الـصغيرة مواجهًـا عتمـة الجهـل الإنساني، كيف أننا لا نعرف شيئًا والبحر يلتهم الأرض التي نقف عليهـا- ذلك كان قدره، وموهبته. لكن إذ رمى بعيدًا، عندما ترجل عن حصانه، كل الإيماءات والافتعالات، كل تذكارات جوز الهند والورود، وانكمش حتى أنه لم ينس فحسب سمعته بل نسي أيضًا اسمه، ولـم يـستبقِ في تلـك العزلـة سوى اليقظة التي لم تدخر شبحًا وتصاعدت دون رؤيـة، وفي هـذا الـشكل استلهم وليام بانكس (بشكل متقطع) وتشارلز تانسلي (بشكل خـانع) والآن زوجته، حين تطلعت إلى أعلى ورأته واقفا على حافة المرج، متمعنًا، في مهابة، وشفقة، وأيضًا امتنان، كوتد مثبت في قاع قناة تجثم فوقـه النـوارس وتبـث الأمواج إلهاماتهـا في القـوارب المحملـة بمـشاعر الامتنـان للواجـب الذي يضطلع به (الوتد) لتحديد مستوى عمق القناة هناك وحدها في الفيضانات.

تمتم بصوت نصف مـسموع، " لكـن والد ثمانيـة أطفـال لـيس لديـه اختيار". وتوقف فجأةً، والتفت، وتنهد، ورفع عينيه، تذكر منظر زوجته وهي تقرأ القصص لابنه الصغير، وعبأ غليونه. تحول من مشهد الجهـل الإنـساني والقدَر الإنساني والبحر الذي يلتهم الأرض التي نقف فوقهـا، الذي لـو كان قادرًا على تأمله بثبات فربما يقوده إلى شيءٍ مـا؛ ووجـد عـزاءه في تفاهـات شديدة البساطة مقارنةً بتلك الموضـوعات الكبـيرة المطروحـة الآن أمامـه والتى كان يميل للتغاضي عنها بما يريحه، والتقليل من شـأنها، كمـا لـو كان ضبطه متلبسًا بالسعادة في عالم بائس هو بالنسبة لرجل أمين الجريمة الأكثر

خسة. كان هذا حقيقيًّا؛ كان في الأغلب الأعم سعيدًا؛ كانت لديه زوجته؛ ولديه أولاده؛ وكان قد وعد أنه في غضون ستة أسابيع سيتحدث "في أي هراء" إلى شبان كارديف عن لوك، وهيوم، وبيركلي[1]، وأسباب الثورة الفرنسية. لكن ذلك وسعادته به، بمجده في العبارات التي كتبها، في أوج الشباب، بجمال زوجته، وبالثناء الذي وصله من سوانسي، وكارديف، وإكستر، وساوثامبتون، وكيديرمنستر، وأوكسفورد، وكامبريدج- كله كان يجب أن يقل شأنه ويختفي تحت عبارة "الحديث في أي هراء"، لأنه، في الواقع، لم يقم بما كان ينبغي القيام به. كان قناعًا؛ كان ملجأ لرجل يخاف أن يمتلك مشاعره، رجل لم يستطع أن يقول، هذا ما أحبه- هذا أنا؛ وعوضًا عن هذا كان مثار شفقة واشمئزاز وليام بانكس ولِيلي بريسكو، اللذين تساءلا عن ضرورة مثل هذا التخفي؛ لماذا كان دائمًا بحاجة للإطراء؛ لماذا يكون رجل بمثل هذه الشجاعة في أفكاره بهذا الجبن في الحياة؛ كم كان غريبًا أن يكون رجلًا وقورًا ومثيرًا للسخرية لدى شخصٍ ما في آن واحد.

افترضت لِيلي، أن التعليم والوعظ الديني أمور فوق طاقة البشر. (كانت ترتب أغراضها). عندما تعلو فلابد أن تهوي. لقد منحته السيدة رمزي ما

---

[1] جون لوك Locke: فيلسوف تجريبي ومفكر سياسي إنجليزى (29 أغسطس 1632- 28 أكتوبر 1704). **ديفيد هيوم** Hume: (7 مايو 1711-25 أغسطس 1776)، فيلسوف واقتصادي ومؤرخ اسكتلندي وشخصية مهمة فى الفلسفة الغربية وتاريخ التنوير الاسكتلندي. **بيركلي** Berkeley: فيلسوف بريطاني أيرلندي، وأسقف إنجيليكاني من أهم أنصار الرؤية الجوهرية التى تصب اهتمامها على دور العقل فى النظر للحقائق (12 مارس 1685- 14 يناير 1753).

طلبه بسهولة بالغة. عندئذٍ لا بد أن يكون التغيير مثيرًا للاستياء للغاية. قالت لِيلي. كان يخرج من بين صفحات كتبه ليجدنا نلعب ونتحدث في أي هراء. قالت، تخيل مدى التغيير الذي أصابه من الأمور التي يفكر فيها.

كان يهزمهم. والآن ها هو يتوقف خامدًا ويقف ناظرًا في صمت نحو البحر. ها هو الآن يستدير مرةً أخرى.

الفصل التَّاســع

قال السيد بانكس، نعم، وهو يرقبه يمضي. هي حقًّا ألف شفقة. (قالت لِيلي شيئًا ما عن خوفها منه- وإنه يتغير فجأةً من مزاج إلى آخر). قال السيد بانكس، نعم، هي حقًّا ألف شفقة ألا يستطيع رمزي التصرف أكثر قليلًا كالأخرين. (لأنه كان يحب لِيلي بريسكو؛ كان بوسعه أن يناقش رمزي معها بشكل منفتح تمامًا). قال، لهذا السبب لا يقرأ الشباب كتابات كارليل(*). عجوز غضوب متذمر يفقد أعصابه إذا كانت العصيدة باردة، لماذا عليه أن يعظنا؟ هذا ما فهم السيد بانكس أن شبان هذه الأيام يقولونه. ألف شفقة لو أنك فكرت، كما فكر، أن كارلايل أحد أعظم معلمي الإنسانية. شعرت لِيلي بالخجل من أن تقول إنها لم تقرأ كارلايل منذ كانت طالبة في المدرسة. لكن في رأيها أن شخصًا على شاكلة السيد رمزي في أفضل أحواله الذهنية

(*) توماس كارليل Thomas Carlyle: كاتب اسكتلندي وناقد ساخر ومؤرخ (4 ديسمبر 1795ـ 5 فبراير 1881)؛ كان لأعماله تأثير كبير فى العصر الفيكتوري.

سيعتقد أن نهاية العالم قد حانت إذا آلمه إصبعه الصغير. لم يكن هذا ما يشغلها. فمَن ذاك الذي يمكن أن ينخدع به؟ إنه يطلب منك بصراحة تامة أن تثني عليه، وأن تعجب به، لذلك فمراواغاته البسيطة لا يمكن أن تنطلي على أحد. قالت، وهي تتطلع فيما وراءه، إن ما تكرهه فيه هو ضيق أفقه، وعماه.

افترض السيد بانكس، وهو يتطلع أيضًا إلى ظهر السيد رمزي، "قليلًا من النفاق؟"، ألأنه كان يفكر في صداقته، وفي كام التي ترفض أن تمنحه زهرة، وفي كل هؤلاء الأولاد والبنات، وفي بيته، المفعم بالراحة، أم في أنه منذ وفاة زوجته، صار أكثر هدوءًا نوعًا ما؟ بالطبع، كان لديه عمله... ورغم ذلك، كان بالأحرى يتمنى لو وافقت لِيلي على ما قاله، أن رمزي "قليلٌ من النفاق".

راحت لِيلي بريسكو تعيد فُرشها مكانها، وهي تنظر لأعلى، وتتطلع لأسفل. إذ تطلعت لأعلى، كان هناك- السيد رمزي- يتقدم نحوها، يتمايل، بلا اكتراث، بلا وعي، وهو غائب الذهن. كررت، أهو قليل من النفاق؟ أوه، لا- إنه الأكثر إخلاصًا في الرجال، الأكثر حقيقية (ها هو قدوصل)، الأفضل؛ لكن، فكَّرت، وهي تنظر إلى أسفل، إنه مستغرق في ذاته، إنه طاغية، إنه ظالم؛ وظلت تنظر إلى أسفل، عامدة، لتتمكن فحسب من أن تظل راسخة، وهي مع آل رمزي. فأي شخص ينظر نحوهما بشكل مباشر، يراهما "واقعين في الحب"، حسب وصفها، ومغمورين فيه. أصبحا جزءًا من ذلك الكون غير الحقيقي لكنه المتغلغل والمثير ألا وهو العالم الذي يمكنك أن تراه فقط من خلال عيون الحب. التصقت بهما السماء؛ وغنت الطيور من خلالهما.

والشيء الذي كان حتى أكثر إثارة، الذي شعرت به، أيضًا، عندما رأت السيد رمزي يجاهد ويتراجع، والسيدة رمزي تجلس مع جيمس بجوار النافذة والسحابة تتحرك والشجرة تميل، هو كيف أن الحياة، التي تتكون من تفاصيل صغيرة منفصلة، يعيشها المرء تفصيلةً تفصيلةً، تصبح متشابكة وكاملة كموجة تحمل المرء إلى أعلى وترميه إلى أسفل معها، هناك، بتلاطم مع الشاطئ.

توقع السيد بانكس أن تجيب. وأوشكت على أن تقول شيئًا ما منتقدة السيدة رمزي، كيف كانت هجومية أيضًا، في طريقتها، متعاليةً، أو أية كلمات بهذا المعنى، عندما ألغى السيد بانكس تمامًا ضرورة أن تتكلم بينما هو في قمة نشوته. فذلك ما يضع في الاعتبار عمره، الذي يقترب من الستين، ونظافته وموضوعيته، والمعطف الأبيض العلمي الذي بدا لها كأنه يرتديه. فبالنسبة له كان التحديق الذي رأته لِيلي يحدقه في السيدة رمزي بمثابة نشوة، شعرت لِيلي أنها مساوية تمامًا لمشاعر حب دستة من الشبان (وربما لم تستشعر السيدة رمزي حب دستة من الشبان). فكرت أن ذلك هو الحب، متظاهرةً بأنها تنقل قماشة الرسم الزيتي الخاصة بها، مستخلصةً مصفاة؛ ذلك الحب الذي لم يحاول مطلقًا التشبث بمحبوبته؛ لكنه، شأن الحب الذي يكنه علماء الرياضيات لرموزهم، أو الشعراء لعباراتهم، كان المقصود به أن ينتشر في العالم ويصبح جزءًا من المكسب الإنساني. وهكذا كان حقًّا. لابد أن يتشارك فيه العالم بكل ما تحمل الكلمة من معنى، لو استطاع السيد بانكس أن يقول لماذا كانت تلك المرأة تسعده إلى هذه الدرجة؛ لماذا كانت رؤيتها وهي تقرأ حكاية خرافية لابنها تبعث فيه نفس الأثر الذي يبعثه حل

مشكلة علمية، لذلك يرتاح في تأملها، ويحس، مثلما يحس عندما يبرهن على نظرية ما مطلقة حول النظام الهضمي في النباتات، أن تلك البربرية قد تم ترويضها، وانتهت هيمنة الهيولى.

مثل تلك النشوة- فأي اسم آخر يمكن للمرء أن يسميها؟- جعلت لِيلي بريسكو تنسى تمامًا ما كانت توشك أن تقوله. كان شيئًا بلا أهمية؛ شيئًا ما يتعلق بالسيدة رمزي. شيء شحب إلى جوار هذه "النشوة"، هذا التحديق الصامت، الذي شعرت نحوه بامتنان بالغ؛ فلا شيء عزَّاها هكذا، وخفف عنها ارتباك الحياة، ورفع عنها أعباءها بشكل إعجازي، مثل تلك القوة السامية، وهذه الموهبة السماوية، ولن يجرؤ أحد على إزعاجها بعد ذلك، طالما استمرت، بدلًا من أن تقطع شعاع الشمس، الممتد في استواء على الأرضية.

على الناس أن يحبوا بهذا الشكل، على السيد بانكس أن يشعر بهذا تجاه السيدة رمزي (حملقت فيه متأملة) الخدومة، المثيرة للخيال. راحت تجفف فُرشها واحدةً وراء الأخرى بخرقة بالية، كالخادمات، بشكل متعمد. كانت تحتمي من الوقار الذي يغطى كل النساء؛ شعرت بنفسها موضع إطراء. فليحملق؛ فستختلس نظرةً إلى لوحتها.

كان بمقدورها أن تبكي. كان هذا سيئًا، كان هذا سيئًا، كان سيئًا تمامًا! كان بمقدورها أن تفعل ذلك بشكل مختلف بالطبع؛ كان يمكن للون أن يكون أخف وأبهت؛ وتصبح الأشكال أثيرية؛ هكذا كان سيود بونسيفورت أن يراها. لكنها عندئذٍ لم تكن تراها هكذا. رأت اللون يحترق داخل إطار من حديد؛ وضوء جناح الفراشة يقع على أقواس كاتدرائية. ومِن كل هذا

فقط لم يبق سوى قليل من العلامات العشوائية مخربشةً على قماش اللوحة. ولن يراها أحد مطلقًا؛ ولا حتى سيعلقها أحد، وها هو السيد تانسلي يهمس في أذنها، "النساء لا يتقنَّ الرسم، النساء لا يتقنَّ الكتابة.."

تذكرت الآن ما كانت توشك أن تقوله عن السيدة رمزي. لم تكن تعرف كيف تقوله؛ لكنه شيءٌ ما انتقادي. فالليلة الماضية أزعجها بعض التعالي. وإذ نظرت عبر مستوى نظرة السيد بانكس لها، فكرت أنه لا وجود لامرأة قادرة على عشق امرأة أخرى بالطريقة التي عشقها بها؛ يمكنهما فحسب البحث عن ملاذ تحت الظل الذي مده السيد بانكس فوقهما معًا. وإذ تطلعت نحو شعاعه أضافت إليه شعاعها المختلف، معتقدةً بما لا يدعو للشك أنها ألطف خلق الله (انحنت فوق كتابها)؛ ربما الأفضل؛ لكنها كذلك، مختلفة عن الشكل المثالي الذي يراه المرء هناك. وهي تخربش علبة الألوان الممتلئة بأكوام من الألوان الزرقاء والخضراء التي بدت لها، في تلك اللحظة، مثل كتل طين بلا حياة، سألت نفسها، لكن لماذا مختلفة، وما هو هذا الاختلاف؟ ومع ذلك أقسمت، أنها ستلهم هذه الألوان، ستجبرها على الحركة، والتدفق، وفعل ما تأمرها به في الغد. كيف اختلفت؟ وما هي الروح الكامنة فيها، الشيء الجوهري، الذي به، حين تعثر على قفاز متغضن في ركن كنبة، فستعرف، من إصبعه الملتوي، أنه قفازها بلا جدال؟ كانت تشبه طائرًا مستعدًّا للتحليق، سهمًا مستعدًّا للانطلاق. كانت عنيدة؛ كانت متطلبة (ذكَّرت لِيلي نفسها، بالطبع، قائلة، أنا أفكر في علاقاتها بالنساء، وأنا أصغر سنًّا من ذلك بكثير، أنا شخصٌ تافه، أعيش بعيدًا عن برمبتون رود). فتحت نوافذ حجرة النوم. أغلقت الأبواب. (هكذا كانت تحاول أن تطلق

نغمة السيدة رمزي في رأسها). لدى وصولها في وقت متأخر من الليل، مع طرقة خفيفة على باب إحدى غرف النوم، وهي ملفوفة في معطف فراء قديم (لأن سمات جمالها دائمًا كانت ذلك النوع من الجمال- المتسرع لكن الملائم)، كان عليها أن تتصرف مرةً أخرى مهما يكن هذا التصرف- فتشارلز تانسلي يفقد شمسيته؛ والسيد كارمايكل يخنخن ويخنفر؛ والسيد بانكس يقول، "أملاح الخضروات ضاعت". كل هذا ستشكله ببراعة؛ حتى لو كان يغلفه الحقد؛ ثم إذ تتحرك إلى النافذة، متظاهرةً بأنها يجب أن تغادر- كان وقت الفجر، وباستطاعتها أن ترى الشمس تشرق- بنصف استدارة إلى الخلف، بمزيد من الحميمية، لكنها لا تزال دائمًا تضحك، تصر على أنها يجب، ويجب على مينتا، ويجب على الجميع أن يتزوجوا، لأنه في كل أنحاء العالم أيًّا ما تكون الأكاليل التي قد يقذفونها إليها (لكن السيدة رمزي لم تكن تهتم مقدار ذرة برسومها)، أو الانتصارات التي حققتها (من المحتمل أن السيدة رمزي كان لها نصيبها من ذلك)، وها هي محزونة، مكتئبة، وعادت إلى مقعدها، فلا يمكن لأحد أن يناقشها في ذلك: امرأة غير متزوجة (أخذت يدها لحظة بخفة)، امرأة غير متزوجة فقدت أفضل ما في الحياة. بدا المنزل ممتلئًا بالأولاد النيام والسيدة رمزي تصغي؛ أضواء ظليلة وأنفاس منتظمة.

أوه، لكن، على لِيلي أن تقول، كان هناك والدها؛ بيتها؛ بل حتى، إن جرؤت أن تقوله، رسومها. لكن كل هذا بدا ضئيلًا جدًّا، بدا عذريًّا جدًّا، إزاء الشيء الآخر. ومع ذلك، مع انقضاء الليل، ومفارقة الأضواء البيضاء للستائر، وحتى بين فينة وأخرى يسقسق طائرٌ ما في الحديقة، ململمةً شتات

شجاعة يائسة، سوف تحث استثناءها من القانون الكلي؛ تتوسل إليه؛ فقد فضلت أن تكون وحيدة؛ فضلت أن تكون نفسها؛ فلم تخلق من أجل ذلك؛ لذلك عليها أن تواجه النظرات الثاقبة المتفحصة من عيون أعماق بلا نظير، وتتحدى اليقين البسيط للسيدة رمزي (وكانت أشبه بطفلة الآن) أن عزيزتها لِيلي، صغيرتها المدللة، كانت حمقاء. ثم تذكرت، أنها وضعت رأسها في حِجر السيدة رمزي وظلت تضحك وتضحك وتضحك، ضحكت تقريبًا ضحكات هستيرية على فكر السيدة رمزي الذي يهيمن عليه هدوء ثابت حول الأقدار التي فشلت تمامًا في فهمها. جلست هكذا هناك، بسيطة، وجادة. استعادت وعيها الآن بذاتها- كان هذا هو إصبع القفاز الملتوي. لكن أية قداسة تلك التي انتهكها المرء؟ في النهاية تطلعت لِيلي بريسكو إلى أعلى، وهناك كانت السيدة رمزي، لا تدري إطلاقا ما سبب ضحكها، لا تزال مهيمنة، لكن الآن مع تلاشي كل آثار العناد، وفي ثباتها، ثمة شيءٌ ما مشرق كالمساحة التي تنقشع عنها الغيوم- المساحة الصغيرة من السماء التي تنام بجوار القمر.

هل كانت هذه حكمة؟ هل كانت هذه معرفة؟ هل كانت، مرةً أخرى، خدعة الجمال، لذلك، أكانت كل مفاهيم الإنسان، في منتصف الطريق إلى الحقيقة، تتشابك في شَرك ذهبي؟ أم كانت هي التي حبست داخلها سرًّا ما اعتقدت لِيلي بريسكو بالتأكيد أن الناس عليهم أن يعرفوه من أجل استمرار العالم على الإطلاق؟ لا يمكن للجميع أن يعيشوا في فوضى تامة، من اليد للفم مثلها. لكنهم لو عرفوا، فهل سيخبرون أحدًا بما عرفوه؟ وهي جالسة على الأرض وذراعها حول ركبتي السيدة رمزي، ملتصقة بها بقدر ما

استطاعت، مبتسمةً وهي تفكر أن السيدة رمزي لن تعرف مطلقًا سبب ذلك الضغط، تخيلت كيف أن في تجاويف عقل وقلب المرأة التي كانت تلمسها جسديًّا، ثمة ألواحًا منتصبة تحمل كتابات مقدسة منقوشة، مثل الكنوز المخفية في قبور الملوك، ولو استطاع أحد أن يتهجاها، فسيعلمنا كل شيء، لكنها لن تُعرض على نطاق واسع مطلقًا، لن تكون متاحةً للعامة. فأي فن كان موجودًا، يشق به المرء طريقه إلى هذه الغرف السرية؟ أية حيلة جعلتنا، كمياه مسكوبة في جرة، متشابهين بلا فكاك، الشخص مع المعشوق؟ هل يمكن للجسد أن ينجز، أو يمكن للعقل، أن يمتزج برهافة في ممرات الدماغ المعقدة؟ أو هل يمكن للقلب؟ هل يمكن للحب، كما يسميه الناس، أن يجعلها هي والسيدة رمزي كائنًا واحدًا؟ لأنها لم تكن المعرفة بل الاتحاد هو ما رغبت فيه، وليست النقوش على الألواح، لا شيء مما يمكن كتابته بأية لغة معروفة للبشر، بل الحميمية ذاتها هي المعرفة، كما فكرت، وهي تسند رأسها على ركبة السيدة رمزي.

لا شيء حدث. لا شيء! لا شيء! وهي تسند رأسها على ركبة السيدة رمزي. ومع ذلك، كانت تدرك أن المعرفة والحكمة مخزونتان في الأعلى في قلب السيدة رمزي. عندئذ سألت نفسها، كيف، إذن، يعرف المرء شيئًا ما أو آخر عن الناس، المنغلقين، هكذا؟ فقط مثل نحلة، مشدودة ببعض الحلاوة أو اللذوعة في هواء يستعصي على اللمس أو التذوق، يلازم المرء الخلية المقبَّبة، يجوب قفار الفضاء فوق بلاد العالم وحيدًا، وبعدها يلازم الخلايا بطنينها وحركتها النشطة؛ الخلايا، التي هي الناس. نهضت السيدة رمزي. نهضت لِيلي. مضت السيدة رمزي في سبيلها. ظلت طوال أيام تدور حولها،

مثلما يحدث بعدما يحلم شخصٌ حلمًا ما ويستشعر المرء تغيرًا رهيفًا قد حدث لذلك الشخص الذي حلم به، بحيوية لم يعهدها فيها أحد من قبل، مع صوت الطنين، وفيما تجلس على المقعد ذي المسندين المجدول من الأغصان بجوار نافذة حجرة الاستقبال، كانت تتخذ، في نظر لِيلي، شكلًا فخيمًا؛ شكل قبة.

هذا الشعاع مر بمحاذاة شعاع السيد بانكس مباشرةً إلى السيدة رمزي الجالسة تقرأ هناك وجيمس على ركبتها. لكنها الآن وفيما لا تزال تنظر، فعلها السيد بانكس. وضع نظارته على عينيه. خطا إلى الخلف. رفع يده. زَر عينيه الزرقاوين الصافيتين قليلًا، عندما رأت لِيلي، وهي توقظ نفسها، ما كان يوشك أن يفعله، وجفلت ككلب يرى يدًا ترتفع لتهوي عليه. كان عليها أن تنتزع لوحتها من على الحامل، لكنها قالت لنفسها، على المرء أن يتصرف. استجمعت قواها لتحبط محاولته المفزعة النظر إلى لوحتها. قالت، على المرء أن يتصرف، على المرء أن يتصرف. وإذا كان لا مفر من أن تُرى، فقد كان السيد بانكس أقل حذرًا من غيره. لكن أية عيون أخرى سترى بقايا سنواتها الثلاث والثلاثين، وتراكم حياة كل يوم مختلطًا بشيء ما أكثر سريةً مما قد تحدثت عنه أو أوضحته في سياق كل تلك الأيام كان عذابًا. في الوقت عينه كان مثيرًا إثارة هائلة.

لا شيء يمكن أن يكون أكثر لطفًا وهدوءًا. وإذ أخرجت مبراة الأقلام، طرق السيد بانكس قماش اللوحة بيده ناتئة العظام. وسألها، ما الذي كانت تريد أن تشير إليه بذلك الشكل الأرجواني المثلث، "هناك"؟

قالت، إنها السيدة رمزي وهي تقرأ الحكايات لجيمس. كانت تعرف اعتراضه- أنه لا يمكن لأحد أن يتصور أن هذا شكل إنساني. قالت، لكنها لم تقم بأية محاولة للتشابه. فسألها، فما السبب الذي دعاها لرسمها إذن؟ لماذا حقًّا؟- فيما عدا لو كانت هناك، في ذلك الركن، ألوان مشرقة، هنا، عندئذٍ، شعرت بالحاجة إلى الظلام. بسيطة، واضحة، عادية، مثلما هي، كان السيد بانكس مهتمًّا بها. فكر متأملًا، الأم والطفل إذن- موضوعان من موضوعات التبجيل العام، وفي هذه الحالة كانت الأم مشهورةً بجمالها- الذي ربما ذَوَى، إلى ظل أرجواني بلا توقير.

قالت، لكن اللوحة ليست عنهما. أو، ليست بالمعنى الذي يراه. هناك معانٍ أخرى أيضًا يمكن للمرء أن يبجلها. بظِل هنا وضوء هناك، على سبيل المثال. اتخذ ثناؤها ذلك الشكل إذا، كما افترضت بغموض، ما كان يجب أن تكون اللوحة ثناءً. وقد تتقلص الأم والطفل إلى ظِل بلا عدم توقير. فضوءٌ هنا يتطلب ظلًّا هناك. كان يتأمل. كان مهتمًّا. تناولها بشكل علمي بإيمان مطلق جميل. أوضح أن الحقيقة هي أن كل انحيازاته متروكة على الجانب الآخر. فأكبر لوحة في حجرة الاستقبال الخاصة به، التي أثنى عليها رسامون، وسعروها بثمن باهظ أكثر مما دفع فيها، كانت عن أشجار الكرز في فترة ازدهارها على ضفاف نهر كينيت. قال إنه قضى شهر عسله على ضفاف نهر كينيت. وقال لا بد أن تأتي لِيلي وترى هذه اللوحة. لكنه الآن- استدار، وهو يرفع نظاراته ليتفحص قماش اللوحة فحصًا علميًّا. كانت المشكلة أنها لوحة معبرة عن علاقات الكُتل، علاقات الأضواء والظلال، التي لكي يكون أمينا، لم يضعها في حسبانه من قبل، وكان يفضل لو كان ثمة تفسير لها- فما

الذي تريد أن تقوله الآن إذن من خلالها؟ وأشار إلى المشهد أمامهما. نظرت. لم يكن بإمكانها أن تريه ما تريد أن تقوله من خلالها، حتى هي نفسها لم تكن تعي ذلك، دون فرشاة في يدها. اتخذت مرةً أخرى وضعها السابق في الرسم بعينين معتمتين وبأسلوب العقل المغيب، وقمعت كل انطباعاتها كامرأة إلى شيءٍ أكثر عمومية؛ لتصبح مرةً أخرى تحت سيطرة تلك الرؤية التي رأتها بوضوح ذات مرة وعليها الآن أن تتلمس طريقها إليها وسط الأسيجة المشجرة والمنازل والأمهات والأطفال- نحو لوحتها. تذكرت أن تلك كانت مشكلة، كيف تربط هذه الكتلة في الجهة اليمنى بتلك الكتلة في الجهة اليسرى. ربما تتمكن من ذلك بمد خط الغُصن؛ أو كسر فراغ المقدمة بأي تكوين (ربما يكون جيمس). لكن الخطر أنه بفعل ذلك ربما تتحطم وحدة اللوحة كلها. توقفت؛ لم تكن تريد أن تزعجه؛ خلعت قماشة اللوحة بهدوء من على الحامل.

لكنها شوهدت؛ وأُخذت منها. فهذا الرجل تشارك معها شيئًا ما شديد الحميمية. و، بفضل السيد رمزي في ذلك وبفضل السيدة رمزي في ذلك وبفضل الساعة والمكان، وثقةً منها في عالم يمتلك قوى لم تتشكك فيها- فيمكن لذلك الشخص أن يذهب إلى ذلك المعرض الكبير لا وحيدًا بعد الآن بل ذراعه في ذراع شخص آخر- أغرب شعور في العالم، والأكثر بهجة- شددت من قبضتها على علبة الألوان، بضغط شديد بلا داع، وبدت آثار قبضتها محيطة بالعلبة في شكل دائرة دائمة حول علبة الألوان، والمرج، والسيد بانكس، وتلك الفظة الوحشية، كام، المندفعة بمحاذاتها.

الفصل العاشــر

دفعت كام حامل اللوحة مسافة بوصة؛ لم تتوقف من أجل السيد بانكس وليلي بريسكو؛ على الرغم من أن السيد بانكس، الذي كان يتمنى أن يكون لديه ابنة مثلها من صلبه، مد لها يده؛ ولم تتوقف لأبيها الذي دفعته هو أيضًا بمسافة بوصة؛ ولا توقفت من أجل والدتها، التي نادت عليها "كام! أريدك لحظة واحدة!" وهي مندفعة في سيرها. كانت منطلقة مثل طائر، أو رصاصة، أو حتى سهم، مدفوعة بأية رغبة، مطلقة بفعل مَن، وإلى أين تتوجه، مَن بوسعه أن يعرف؟ ماذا، ماذا؟ تأملتها السيدة رمزي، وهي ترقبها. ربما تكون رؤية- لهيكل مبنًى، أو عربة يد، أو مملكة خيالية على الجانب البعيد من السياج الشجري؛ أو ربما تكون السعادة المصاحبة للسرعة؛ لا أحد يدري. لكن حين نادت السيدة رمزي "كام!" للمرة الثانية، توقفت القذيفة في منتصف الطريق، وعادت كام متباطئة، وهي تشد ورقة شجرة في طريقها، إلى والدتها.

تساءلت السيدة رمزي، فيم كانت تحلم، وهي تراها مستغرقة في أفكارها، في وقفتها هناك، تسيطر عليها أفكارها، لذلك كان عليها أن تكرر النداء مرتين- اسألي ميلدرد إذا كان أندرو، والآنسة دويل، والسيد رايلي قد عادوا؟- بدا كأن الكلمات تسقط في بئر، حيث، حتى لو كانت المياه صافية، فإنها تكون كذلك مشوشة بشكل استثنائي إلى حد أن يراها المرء، حتى أثناء هبوطها، تلتف حول ذاتها لتمكن السماء من معرفة أي نموذج من الطين هو عقل تلك الطفلة. وتساءلت السيدة رمزي، أية رسالة يمكن لكام أن تنقلها للطاهية؟ وفي الواقع لم يكن أمامها سوى الانتظار بصبر، ولدى سماعها أن هناك في المطبخ سيدة عجوزًا بوجنتين شديدتَي الحمرة، ترشف الحساء من الجفنة الفخارية، فهمت السيدة رمزي في نهاية المطاف أن كام بغريزتها الشبيهة بالببغاء التقطت كلمات ميلدرد بدقة تامة ويمكنها الآن أن تخرجها، لو انتظر المرء، في رتابة بلا لون. وكام تحرك قدمًا وراء الأخرى، كررت كام كلمات ميلدرد، "لا، لم يعودوا بعد، وقد طلبت من إيلين أن ترفع طاقم الشاي من على المائدة".

إذن فلم يعد بول رايلي ومينتا دويل بعد. فكرت السيدة رمزي، أن ذلك لا يعني سوى شيء واحد. لابد أن تتقبله، أو ترفضه. هذا الخروج للنزهة بعد الغداء، حتى على الرغم من أن أندرو كان معهم- كيف يمكن أن يُفهم؟ فكرت السيدة رمزي، أنه فيما عدا أنها قررت، قرارًا صائبًا، (وقد كانت شديدة الولع بمينتا) أن تتقبل ذلك الرجل الطيب، الذي قد لا يكون ذكيًا، لكن في تلك اللحظة، فكرت السيدة رمزي، وهي تدرك أن جيمس يجذبها بقوة، ليجعلها تواصل بصوت مرتفع قراءة قصة الصياد وزوجته،

كانت في قرارة ذاتها تفضل على الإطلاق المغفلين على الرجال الأذكياء الذين يكتبون الأطروحات؛ ومنهم على سبيل المثال، تشارلز تانسلي. وعلى أية حال كان لابد لذلك أن يحدث، بشكل أو بآخر، والآن.

لكنها راحت تقرأ، "في الصباح التالي استيقظت الزوجة أولًا، وقت الفجر تمامًا، ورأت من فراشها البلدة الجميلة تمتد أمامها. كان زوجها ما يزال يتمطى..."

لكن كيف يمكن لمينتا أن تقول الآن إنها لن تتزوجه؟ لا يمكن بعد أن وافقت أن تقضى كل أمسياتها تتسكع في القرية معه بمفردها- لأن أندرو سيكون بعيدًا عنهما يسعى وراء سرطاناته- لكن من المحتمل أن تكون نانسي معهما. حاولت أن تتذكر منظرهما وهما يقفان عند باب القاعة بعد الغداء. هكذا وقفا، ينظران إلى السماء، يتساءلان عن أحوال الطقس، وقد قالت، وهي تفكر إلى حدٍّ ما في تغطية خجلهما، وإلى حدٍّ ما لتشجعهما على الخروج (لأنها كانت متعاطفة مع بول)،

"ما من سحابة واحدة في أي مكان لمسافة أميال"، فشعرت قليلًا بتشارلز تانسلي، الذي تتبعهم إلى الخارج، يقهقه. لكنها فعلت ذلك عن عمد. سواء كانت نانسي هناك أم لا، لم تكن واثقة من ذلك، وهي تنقل بصرها من شخص إلى آخر في خيالها.

واصلت القراءة، "قال الزوج :"آه، يا زوجتى، لماذا يجب أن نكون ملوكًا؟ أنا لا أريد أن أكون ملكًا"، قالت الزوجة :"حسنا، إذا لم تكن تريد أن تصبح ملكًا، فسأذهب أنا إلى سمكة الفلاوندر المفرطحة، لأنني سأصبح

ملكًا".

كانت تعرف أن كام لا تجذبها إلا كلمة "فلاوندر"، وأنها بعد لحظة ستتململ وتتشاجر مع جيمس كالمعتاد، فقالت لها، "هيا يا كام، إما أن تدخلي أو تخرجي". انطلقت كام للخارج. وواصلت السيدة رمزي القراءة، في راحة، لأنها كانت هي وجيمس يتشاركان نفس الذوق ويرتاحان معا.

"وعندما وصل إلى البحر، كانت المياه رماديةً داكنةً تمامًا، والماء يرتفع من أسفل، محملًا برائحة عفنة. عندئذٍ سار حتى وقف قربه، وقال:

"أيتها السمكة المفرطحة، فلاوندر، في البحر،
هيا، أتوسل إليك، تعالي إليَّ،
من أجل زوجتي، إيزابيل الطيبة،
التى لا ترغب فيما أرغبه لها".

"قالت السمكة المفرطحة فلاوندر :"حسنًا، فماذا إذن تريد زوجتك؟" وتساءلت السيدة رمزي، وهي تقرأ وتفكر، في هدوء تام، في وقت واحد :"أين هما الآن؟ لأن قصة الصياد وزوجته كانت مثل صوت جهير يتزامن برفق مع لحن موسيقي، يرتفع ويندمج بين فينة وأخرى بشكل غير متوقع مع اللحن في اتساق. ومتى سيخبرها أحدهم؟ إذا لم يحدث شيء، فعليها أن تتحدث بجدية مع مينتا. لأنها لا يمكنها أن تتسكع بطول البلدة وعرضها، حتى لو كانت نانسي معهما (حاولت مرةً أخرى، محاولة فاشلة، أن تستحضر في ذاكرتها ظهورهم وهم يهبطون الطريق، وأن تحصي عددهم). كانت مسئولة عن مينتا أمام أسرتها- البومة ومحرك النار. تدافعت أسماء التدليل التي أطلقتها

عليهم في ذهنها وهي تقرأ. البومة ومحرك النار- نعم، سينزعجون إذا سمعوها- ومن المؤكد أنهم سيسمعون- أن مينتا، المقيمة مع عائلة رمزي، قد شوهدت تفعل كذا، وكذا، وكذا. "كان يرتدى باروكة في مجلس العموم وساعدته بمهارة للوصول إلى قمة السُّلم"، كررت، وهي تلتقط الكلمات لتخرجها من ذهنها بعبارة، تذكرتها من حزب ما، صاغتها لتسري عن زوجها. عزيزي، عزيزي، قالت السيدة رمزي لنفسها، كيف أنجبا هذه الابنة المتناقضة؟ هذه المينتا شبيهة الغلمان، بثقب في جوربها؟ كيف وُجِدت في هذا الجو المنذر باحتمالات كثيرة حيث كانت الخادمة دائمًا تزيل بملقاط الغبار الرمال التي بعثرتها الببغاء، وكان الحوار تقريبًا قد تقلص تمامًا إلى الحديث عن الاستثمارات- ممتعٌ ربما، لكنه محدود مع ذلك- الخاصة بذلك الطائر؟ كان طبيعيًّا، أن يطلب منها المرء أن تتناول معه الغداء، أو الشاي، أو العشاء، وفي النهاية أن تبقى معهم في بلدة فينلاي، مما نتج عنه بعض الخلاف مع البومة، أمها، والمزيد من الدعوات، والمزيد من الحوارات، والمزيد من الرمال، وفي نهاية ذلك حقًّا، تفوهت بأكاذيب كثيرة عن الببغاوات لتستمر مدى الحياة (وأخبرت زوجها بذلك تلك الليلة، وهو عائد من الحزب). وعلى أية حال، فقد أتت مينتا... نعم، أتت، فكرت السيدة رمزي، متشككةً في وجود شوكة ما في تلافيف هذه الفكرة؛ ولدى تفكيكها وجدتها هكذا: ذات مرةٍ اتهمتها امرأة بـ"أنها سرقت منها عواطف ابنتها نحوها"؛ شيء ما قالته السيدة دويل جعلها تتذكر ذلك الاتهام مرةً أخرى. وإذ تمنت أن تهيمن، أن تتدخل، أن تجعل الناس يفعلون ما تريده- تلك كانت التهمة الموجهة لها، واعتقدت أنها غالبًا ظالمة. فكيف يمكنها أن تتحمل نظرتهم لها على أنها

"كذلك"؟ لا يمكن لأحد أن يتهمها بأنها تبذل جهدًا لتؤثر في الآخرين. فقد كانت غالبًا تشعر بالخجل من ملابسها القديمة. ولم تكن مستبدة، ولم تكن طاغية. كان الأمر حقيقيًا أكثر بشأن المستشفيات والمصارف الصحية ومعامل الألبان والجبن. كانت تشعر بالتعاطف مع أمور كهذه، ولو أتيحت لها الفرصة، كانت تود أن تقبض على الناس من تلابيبهم ممسكة بأعناقهم وترغمهم على الرؤية. فلا مستشفي في الجزيرة برمتها. كان أمرًا مخزيًا. والحليب يصل إلى باب بيتك في لندن به بنيًا بفعل القذارة. لا بد أنه يكون خارج القانون. معمل ألبان نموذجي ومستشفى هنا في هذا المكان- هما الشيئان اللذان تمنت القيام بهما، بنفسها. لكن كيف؟ مع وجود كل هؤلاء الأطفال؟ عندما يصبحون أكبر قليلًا، ربما عندئذٍ يكون لديها الوقت؛ عندما يلتحقون كلهم بالمدارس.

أوه، لكنها لم تُرد لجيمس أن يكبر عن ذلك يومًا واحدا أبدًا! ولا كام أيضًا. هذان الاثنان تحب أن يظلا للأبد كما هما، شياطين الشر، وملائكة البهجة، لا أن تراهما يكبران ليصبحا وحشين بسيقان طويلة. لم يُخلق شيءٌ هباءً. وعندما كانت منذ قليل تقرأ لجيمس، "وقد كان هناك أعداد من الجنود يحملون الطبول والأبواق"، وغامت عيناه، فكرت، لماذا ينبغي أن يكبروا ويفقدوا كل هذا؟ كان جيمس الأكثر موهبة والأكثر حساسيةً في كل أبنائها. لكنها فكرت أنهم جميعًا مفعمون بالوعود. برو، ملاك نقي ومثالي مع الآخرين، وأحيانًا الآن، خاصة في الليل، تحبس أنفاس من يراها من شدة جمالها. أندرو- حتى زوجها اعترف أن موهبته في الرياضيات استثنائية. ونانسي وروجر، الاثنان مخلوقان متوحشان الآن، يفران من البيت ويجريان

في كل أنحاء القرية طول النهار. أما روز، فكان فمها كبيرًا جدًّا، لكنها كانت موهوبة موهبة رائعة في يديها. فعندما يكون لديهم لعبة تمثيليات، تصنع روز الملابس؛ تصنع كل شيء؛ وأكثر ما تحبه هو ترتيب الموائد، والزهور، وأي شيء. ما لم تكن تحبه السيدة رمزي هو اصطياد جاسبر للطيور، لكنها مجرد مرحلة فقط؛ كلهم مروا بمراحل. سألت نفسها، لماذا، وهي تضغط بذقنها على رأس جيمس، لماذا يتحتم أن يكبروا بهذه السرعة؟ لماذا يتحتم أن يذهبوا إلى المدرسة؟ لطالما أحبت دائمًا أن يكون لديها طفل رضيع. كانت أسعد امرأة وهي تحمل طفلاً في ذراعيها. ثم يقول الناس إنها طاغية، ومستبدة، ومسيطرة، إذا كان هذا ما يريدون قوله؛ فهذا لا يعنيها البتة. وفيما تمس شعر رأسه بشفتيها، فكرت أنه لن يشعر بمثل هذه السعادة بعد ذلك أبدًا، لكنها استوقفت نفسها، وهي تتذكر كيف أغضب زوجها قولُ مثل هذا الكلام. ومع ذلك، كان حقيقيًّا. إنهم الآن أكثر سعادة من أية سعادة قادمة محتملة على الإطلاق. فطاقم الشاى اللعبة الذي يباع بعشرة بنسات جعل كام سعيدة لعدة أيام. كانت تسمعهم يدبدبون ويهرولون على الأرض فوق رأسها في لحظة استيقاظهم. كانوا يأتون في صخب بالممر. ثم يندفع الباب مفتوحًا وهم يدخلون، منتعشين كالورود، محملقين، يقظين تمامًا، كأن دخولهم إلى حجرة الطعام بعد الإفطار، وهو ما يفعلونه كل يوم في حياتهم، كان حدثًا سعيدًا بالنسبة لهم، وهلمجرًّا، مع شيء بعد الآخر، طوال اليوم، إلى أن تصعد إليهم لتقول لهم تصبحون على خير، وتجدهم ملتفين في أغطيتهم مثل الطيور المتلاصقة بين أشجار الكرز والتوت، وهم لا يزالون يخترعون قصصًا حول شيء تافه بلا قيمة- شيء ما سمعوه، أو شيء التقطته

آذانهم في الحديقة. كان لديهم جميعًا كنوزهم الصغيرة... وهكذا تنزل إلى الطابق السفلي وتقول لزوجها، لماذا يجب أن يكبروا ويفقدوا كل هذا؟ فلن يحظوا أبدًا بمثل هذه السعادة بعد ذلك. وكان غاضبًا. قال لها، لماذا تتبنين وجهة نظر في الحياة بمثل هذه القتامة؟ هذا ليس من الفطنة. لأنها كانت وجهة نظر غريبة؛ وكانت تعتقد أنها حقيقة؛ فعلى الرغم من كآبته ويأسه كان أكثر سعادة منها، وأكثر أملًا منها، بشكل عام. كان أقل انغماسًا في المتاعب الإنسانية- ربما كان الأمر كذلك. كان دائمًا لديه عمله الذي ينكب عليه. لم يكن الأمر أنها "متشائمة"، كما اتهمها. فقط كانت تتأمل الحياة- وثمة شريط صغير من الزمن يبدي نفسه لعينيها- بأعوامها الخمسين. كانت واضحة أمام عينيها- الحياة. الحياة، فكَّرت- لكنها لم تُنه فكرتها. ألقت نظرة على الحياة، لأنها تملك منطقًا واضحًا حيالها، شيئًا ما حقيقيًّا، شيئًا ما خاصًّا، شيئًا ما لم تتقاسمه مع أطفالها ولا مع زوجها. نوع من التبادل يتم بينهم، كانت تقف على أحد جانبيه، والحياة على الجانب الآخر، وكانت دائمة المحاولة أن تأخذ من الحياة أفضل ما فيها، مثلما أخذت الحياة منها؛ وأحيانًا ما كانا يتفاوضان (عندما تكون بمفردها)؛ وكان ثمة مشاهد تصالح كبيرة، فيما تتذكر؛ لكنها، في معظمها، غريبة تمامًا، ولا بد أن تُقر بأنها شعرت بذلك الشيء إلى حد أن اعتبرت الحياة مريعةً، وعدوانيةً، وسريعة الانقضاض عليك لو منحتها الفرصة. هناك مشكلات أبدية: المعاناة؛ والموت؛ والفقر. هناك دائما امرأة تموت بسبب إصابتها بالسرطان حتى هنا. ومع ذلك تقول لكل هؤلاء الأطفال، أنتم ستنجحون في الحياة كلكم. قالت ذلك لثمانية أشخاص بلا هوادة (وستكون فاتورة نفقات إصلاح الصوبا

خمسين جنيهًا). لذلك السبب، وفيما تدرك ما يواجهونه- الحب والطموح وأن تكون بائسا وحيدًا في أماكن موحشة- كان لديها دائمًا هذا الشعور، لماذا يتحتم أن يكبروا ويفقدوا كل هذا؟ ثم قالت لنفسها، ملوحة بسيفها في وجه الحياة، هراء. فسيكونون سعداء تمامًا. وها هي هنا، فكرت، تشعر بالحياة أكثر شرًّا من جديد، لتجعل مينتا تتزوج بول رايلي؛ لأنه مهما كانت مشاعرها تجاه ما تقوم به من تبادل، فلديها من الخبرات ما لا ترغب في حدوثه للجميع (لم تحددها حتى لنفسها)؛ كانت منساقة، بسرعة شديدة كما أدركت، تقريبًا كما لو كان فرارًا لها هي أيضًا، لأن تقول إن الناس لابد أن يتزوجوا؛ لابد للناس أن ينجبوا أطفالًا.

فهل كانت مخطئة في هذا الصدد، سألت نفسها، وهي تراجع سلوكها الأسبوع أو الأسبوعين الماضيين، وهي تتساءل ما إن كانت قد مارست حقًّا أية ضغوط على مينتا، التي كانت في الرابعة والعشرين فحسب، لتجعلها تغير رأيها. كانت قلقة. ألم تضحك على ذلك؟ ألم تكن تنسى مرةً أخرى كيف تؤثر في الآخرين بقوة؟ فالزواج يحتاج- أوه، كل أنواع الخصال الحميدة (فاتورة نفقات إصلاح الصوبا ستكلف خمسين جنيهًا)؛ وإحداها- ليست بحاجة لتسميتها- كانت شيئًا أساسيًّا؛ الشيء الذي كان لديها مع زوجها. أكان لديهما حقًّا؟

راحت تقرأ، "عندئذ ارتدى سرواله وجرى كالمجنون، لكن في الخارج كانت هناك عاصفة عاتية تثور وتعصف بقوة هائلة حتى أنه وجد صعوبة في وضع قدميه ثابتتين على الأرض؛ المنازل والأشجار تتهاوى، الجبال تهتز،

الصخور تتدحرج نحو البحـر، والـسماء تحولـت إلى صـفحة سـوداء، تـبرق وترعد، والبحر يرغي ويزبد بأمواجه السوداء مندفعًا نحـو اليابـسة مرتفعًـا حتى أعلى أبراج الكنائس وقمم الجبال، وكل شيء يغطيه الزبد الأبيض..."

قلبت الصفحة؛ لم يكن قد تبقى سوى سطور قليلة، كي تـنهى القـصة، رغم أنهما تجاوزا موعد النوم. كان الوقت متأخرًا. أدركت ذلـك مـن الـضوء القادم من الحديقة؛ وبيـاض الزهـور وشيء مـا رمـادي في أوراق الأشـجار تآمروا معًا، ليستثيروا داخلها إحساسًا بالقلق. لم تستطع التفكير في البداية بخصوص ماذا. ثم تذكرت؛ فبول ومينتا وأندرو لم يعودوا بعد. اسـتدعت في ذاكرتها مرةً أخرى مشهد المجموعة الصغيرة الموجودة في الشرفة أمـام بـاب القاعة، واقفين يتطلعون نحو السماء. كان مع أنـدرو شـبكته وسـلته. ذلـك يعنى أنه كان ينوى اصطياد السرطانات وأشياء أخرى. وذلك معناه أنه ينوى تسلق الصخور؛ قد يتعرض للإصابة. أو أن يعودوا واحدًا تلو الآخر في طابور صغير عبر أحد تلك الممرات الضيقة فوق المنحـدر الـصخري وقـد ينزلـق أحدهم. قد يتدحرج ويعدها يتهشم. وكان الظلام يزداد عتمة.

لكنها لم تسمح لصوتها بأن يتغير على الأقل وهي تنتهى من قراءة القصة، وأضافت، وهي تغلق الكتاب، وتتلو الكلمات الأخيرة كأنها مـن تأليفهـا هي نفسها، متطلعة إلى عينَي جيمس، "وما يزالون يعيشون حتى هذه اللحظة".

قالت، "وتلك هي النهاية"، ورأت في عينيه، وقـد خبـا فيهمـا الاهتمـام، وحل محله شيء آخر؛ شيء عجيب، شاحب، كانعكاس ضـوءٍ مـا، ممـا جعلـه يحملق ويندهش في آن. ملتفتةً، تطلعت بعيدًا عبر الخليج، وهنـاك، بتأكيـدٍ

تام، قادمًا بانتظام عبر الأمواج بشعاعين سريعين في البداية ثم بشعاع واحد طويل وثابت، كان هناك ضوء الفنار. لقد أُضيء.

في خلال دقيقة سيسألها، "هل سنذهب إلى الفنار؟" ويكـون عليهـا أن تجيبه، "لا: ليس غدًا؛ والدك يقول لا". دخلت ميلدرد سعيدة لتبحث عنهما، وشتت الصخب انتباههما. لكنه ظل يتطلع خلفه من فـوق كتفيـه إذ حملـت ميلدرِد وخرجت، وكانت واثقة أن فكره كان منشغلًا، بأننا لن نذهب غدًا إلى الفنار؛ وفكرت، لسوف يتذكر ذلك طول حياته.

الفصل الحادي عشـــر

لا، فكرت، وهي تجمع بعض الصور التي قصها- ثلاجة، آلة حصاد، رجل راقٍ في رداء سهرة- الأطفال لا ينسون أبدًا. لهـذا الـسبب، كان أمـرًا شـديد الأهمية ما يقوله المرء، وما يفعله، وكان مبعث ارتياح أن ذهبوا إلى الفـراش. لأنها الآن ليـست في حاجـة للتفكـير في أي شـخص. يمكنهـا أن تكـون نفسها، بمفردها. وهو غالبًا ما شعرت أنها تحتاجـه الآن- أن تفكـر؛ حـسنًا، ولا حتى أن تفكـر. أن تـصمت، أن تكـون بمفردهـا. كل كائـن وكل فعـل، الرحابة، التألق، النطق، تبخَّر؛ ويـتقلص المـرء، بإحـساس بـالإجلال، بـأن يكون نفسه، قلب الظلام في شكل وتد، شيء مـا محجـوب عـن الآخـرين. وعلى الرغم من أنها واصلت التريكو، وجلـست معتدلـة، فهكـذا شـعرت بذاتها؛ وهذه الذات المنسلخة من ارتباطاتها أصبحت حرة من أجل أغـرب المغامرات. فعندما غرقت الحياة لوهلة، بدا مدى التجربة بلا حـدود. ولدى الجميع كان ثمة دائمًا إحساس بالمدد اللانهائي، فيما افترضـت؛ واحـدًا وراء

الآخر، هي، لِيلي، أوجستوس كارمايكل، لا بد أن نشعر، بأن مظاهرنا، تلك الأشياء التي يعرفنا الآخرون بها، هي ببساطة طفولية. وفي الأسفل كل شيء معتم، كل شيء منتشر، عميق بلا أغوار؛ لكننا بين آن وآخر ننبثق إلى السطح وهذا ما ترانا عليه. بدا لها أفقها بلا حدود. كانت هناك كل الأماكن التي لم ترها؛ السهول الهندية؛ وشعرت بنفسها تدفع جانبًا الستائر الجلدية السميكة في كنيسةٍ ما في روما. وجوهر الظلام هذا يمكنه أن يذهب إلى أي مكان، لأن أحدًا لا يراه. لا يمكنهم إيقافه، فكرت في ذلك، وهي متهللة. كانت هناك حرية، كان هناك سلام، كان هناك، الأكثر ترحيبا مما عداه، استدعاء كل هذه الأشياء معًا، ارتياح على رقعة الاستقرار. لا كما كانت تعثر على راحتها من قبل، في تجربتها (أنجزت هنا شيئًا ما بارعًا بإبرتيها)، بل كوتد من الظلام. فقدان الشخصية، المرء يفقد القلق، التعجل، التحفز؛ وعندئذ يرتفع إلى شفتيها دائمًا بعض هتاف الانتصار على الحياة عندما تجتمع معًا الأشياء في هذا السلام، وهذا الارتياح، وهذا الخلود؛ وإذ تتوقف هناك تطلعت خارجًا لتقابل شعاع الفنار ذاك، الشعاع الكبير الثابت، آخر الثلاثة، الذي كان شعاعًا خاصًا بها، لأن رؤيتهم في هذا المزاج دائمًا في هذه الساعة لا يمكن للمرء أن يمنع نفسه من الالتصاق بشيءٍ ما خاصة من بين الأشياء التي يراها؛ وهذا الشيء، الشعاع الطويل الراسخ، كان شعاعها. لطالما وجدت نفسها تجلس وتنظر، تجلس وتنظر، وإبرتا التريكو في يديها إلى أن تصبح هي نفسها الشيء الذي تتطلع إليه- ذلك الضوء، على سبيل المثال. وقد يرفع عليها عبارة صغيرة أو أخرى مما يقبع في ذهنها مثل هذه العبارة- "الأطفال لا ينسون، الأطفال لا ينسون"- مما قد تكرره وتبدأ

في الإضافة إليه، قالت، سينتهي ذلك، سينتهي ذلك. ثم فجأةً أضافت، سيأتي ذلك، سيأتي ذلك، **فنحن** بين يدى الرب.

لكنها سرعان ما انزعجت من نفسها لهذا القول. مَن قال هذا؟ ليست هي؛ لقد وقعت في فخ التفوه بأشياء لم تقصدها. نظرت وهي ترفع عينيها من على التطريز والتقتا بالشعاع الثالث الذي بدا لها كأنما عيناه تلتقيان بعينيها، باحثةً لأنها فقط عندما تكون بمفردها يمكنها أن تبحث في ذهنها وفي قلبها، متطهرة ومتحررة من ذلك الوجود الكاذب، من أية كذبة. أثنت على نفسها بالثناء على الضوء، بلا زهو، لأنها كانت صارمة، كانت تبحث، كانت جميلة مثل ذلك الضوء. فكرت، كان ذلك غريبًا، كيف يميل المرء، عندما يكون المرء وحيدًا، إلى أن يُفقد الأشياء حياتها؛ الأشجار، والأنهار، والأزهار؛ شعرت أنهم يعبرون عن شيءٍ واحد؛ شعرت أنهم أصبحوا شيئًا واحدًا؛ شعرت أنهم يعرفون شيئًا واحدًا، بمعنًى ما كانوا واحدًا؛ وهكذا شعرت بحنان لا عقلاني (تطلعت نحو ذلك الشعاع المنتظم الطويل) مثلما يتطلع المرء إلى ذاته. هناك نهضت، وظلت تتطلع وتتطلع وإبرتا التريكو معلقتان، هناك تلولبت حول نفسها خارجةً من أرضية العقل، انبثقت من بحيرة الوجود الإنساني، غشاوة، عروس لتلتقي بعاشقها.

تساءلت عما جعلها تقول: "نحن بين يدى الرب"؟ استثارها تسلل النفاق وسط الحقائق، أغضبها. عادت مرةً أخرى للتطريز. سألت، كيف أمكن لأي رب أن يصنع هذا العالم؟ كانت بعقلها دائمًا ما تمسك بالحقيقة حين لا يكون ثمة سبب، ولا نظام، ولا عدل: فقط معاناة، وموت، وفقر. لم يكن

ثمة خيانة شديدة الحقارة يمكن للعالم أن يرتكبها أكثر من هذا، كانت تدرك ذلك. فما من سعادة دامت؛ كانت تدرك ذلك. اشتغلت بالإبرة بهدوء صارم، وهي تزم شفتيها قليلاً، بدون وعي، وصلَّبت خطوط وجهها وثبتتها كما هي عادتها في التزام الصرامة عندما يمر زوجها، رغم أنه كان يضحك بينه وبين نفسه على فكرة أن هيوم، الفيلسوف، الذي كان شديد البدانة في صباه، قد وقع في مستنقع، ولم يستطع أن يمنع نفسه، وهو يمر، من ملاحظة الصرامة في قلب جمالها. أحزنه هذا، وآلمه تباعدها عنه، وشعر، وهو يمر بجوارها، أنه ليس في وسعه أن يحميها من ذلك، وعندما وصل إلى السياج الشجري، كان حزينًا بالفعل. لم يستطع أن يفعل شيئًا لمساعدتها. كان لا بد أن يبقى قريبًا منها ويسهر عليها. في الواقع، كانت الحقيقة الجهنمية أنه جعل الأمور تصير إلى الأسوأ بالنسبة لها. كان عصبيًّا- حساسًا. لقد فقد أعصابه في الحوار بشأن الذهاب للفنار. تطلع نحو السياج الشجري، في تشابك غصونه، في عتمته.

لطالما، شعرت السيدة رمزي، أن المرء يساعد نفسه على الخروج من عزلته على مضض بالقيام بشيءٍ ما غريب أو حد، أو صوتٍ ما، أو منظرٍ ما. أرهفت السمع، لكن كل شيء كان ساكنًا؛ صمتت الصراصير؛ والأطفال كانوا في الحمامات؛ لم يكن هناك سوى صوت البحر. توقفت عن شغل الإبرة؛ أمسكت بالجورب البني المحمر الطويل مدلى في يديها للحظة. رأت الضوء مرةً أخرى. ببعض السخرية في استفهامها، لأن المرء حين يستيقظ مهما يكن، تتغير علاقاته، نظرت نحو الضوء الثابت، القاسي، بلا شفقة، الذي كان كثيرًا عليها، وفي نفس الوقت صغيرًا عليها، الذي جعلها تحت

نظره (استيقظت في الليل ورأته ينحنى على أسرتهم، مصطدمًا بالأرض)، لكن لأجل كل ذلك فكرت، وهي تراقبه مفتونة، منومة مغناطيسيًّا، كما لو كان يربت بأصابعه الفضية على شريان مسدود في دماغها إذا ما انفجر فسيفيض عليها بالبهجة، لقد عرفت السعادة، السعادة الرائعة، السعادة الكثيفة، وقد فضضت الأمواج العنيفة بإشراق أكثر قليلاً، إذ خبا ضوء النهار، واختفت زرقة البحر وهو يتدحرج في أمواج من اللون الليموني النقي انعطفت وانتفخت وتكسرت على الشاطئ وانفجرت النشوة في عينيها وأمواج من البهجة الصافية طفت على أرض عقلها وشعرت، يكفي هذا! يكفي هذا!

التفت ورآها. آه! كانت لطيفة، ألطف الآن مما اعتقد في أي وقت. لكنه لم يستطع أن يكلمها. لم يستطع أن يقاطعها. أراد بشدة أن يحدثها الآن عن أن جيمس قد رحل وها هي قد صارت وحيدة في النهاية. لكنه قرر، ألا يفعل؛ لن يقاطعها. كانت الآن منعزلة عنه غارقة في جمالها، في حزنها. سيدعها لشأنها، وتجاوزها بلا كلمة، على الرغم من أنه ينجرح إذ تبدو نائيةً هكذا، ولا يمكنه الوصول إليها، ولا يسعه أن يقدم لها يد المساعدة. ومرةً أخرى كان سيمر بجوارها بلا كلمة، لو لم تمنحه، في تلك اللحظة، بإرادتها الحرة ما تعرف أنه لن يطلبه منها مطلقًا، ونادت عليه وسحبت الشال الأخضر من فوق إطار الصورة، وذهبت إليه. فقد تمنى، وأدركت هي، أن يقوم بحمايتها.

الفصل الثّاني عشر

فردت الشال الأخضر على كتفيها. تأبطت ذراعه. كان جماله أخاذًا، قالت، وهي تبدأ الحديث عن كيندي البستاني، وتحول في الحال إلى رجل وسيم بشكل هائل، لدرجة أنها لم تستطع أن تصرف نظرها عنه. كان هناك سُلَّم نقال أمام الصوبا، وكتل صغيرة ناتئة من المعجون، لأنهم كانوا يبدأون في إصلاح الصوبا. نعم، لكن أثناء تمشيتها مع زوجها هناك، شعرت أن ذلك المصدر الخاص للقلق قد وصل إلى نهايته. كان على طرف لسانها أن تقول، وهما يتنزهان، "إنها ستكلفنا خمسين جنيهًا"، لكن بدلًا من ذلك، لأن قلبها أتعبها بشأن التفكير في النقود، تحدثت عن اصطياد جاسبر للطيور، وقال، في الحال، ليهدئها للتو، إنه أمر طبيعي لولد، وأنه واثق من أنه سيجد طرقًا أفضل يسلي بها نفسه في وقت قريب. كان زوجها شديد الحساسية، شديد النزاهة. ولذلك قالت، "نعم، الأطفال كلهم يمرون بمراحل"، وبدأت في التفكير بزهور الداليا في حوضها الكبير، متسائلة عن زهور العام القادم، وسألته عما

إذا كان قد سمع أسماء التدليل التي أطلقها أطفاله على تشارلز تانسلي. كانوا يطلقون عليه الملحد، الملحد الصغير. قال السيد رمزي، "إنه ليس شخصًا مهذبًا"، وقالت السيدة رمزي، "إنه بعيد كل البعد عن ذلك".

خمنت السيدة رمزي قائلةً أنه من المستحسن أن يدعوه وشأنه الخاص، متسائلة عما إذا كان ثمة أية فائدة من ترك بُصيلات النباتات هكذا؛ ألم يقوموا بزراعتها؟ قال السيد رمزي، " أوه، لديه مقال عليه أن ينتهي من كتابته". قالت السيدة رمزي إنها تعرف كل شيء عن ذلك. لم يقل شيئًا آخر. كان المقال عن تأثير شخصٍ ما على شيءٍ ما. قالت السيدة رمزي، "حسنًا، هذا كل ما يشغله في الحياة". قال السيد رمزي، "ندعو الله ألا يقع في حب برو". فسوف يحرمها من الميراث لو تزوجته. لم ينظر نحو الزهور، التي توليها زوجته عنايتها، بل إلى بقعة تعلوهما بقدم أو أكثر. أضاف، إنه ليس فيه ما يسوء، وأوشك أن يقول إنه على أية حال الشاب الوحيد في انجلترا الذي أعجب بـ... عندما كبحها. لا يريد أن يضايقها مرةً أخرى بالحديث عن كتبه. قال إن هذه الزهور تبدو جديرة بالإعجاب، وهو يخفض بصره ويلحظ شيئًا ما أحمر ، وزهور بنية. قالت السيدة رمزي، نعم، لكن هذه الزهور غرستها بيدَي. والسؤال هو، ماذا سيحدث لو دفنت بصيلات النباتات في التربة، هل سيقوم كيندي بغرسها جيدًا؟ لقد كان الأمر يتلخص في كسله غير القابل للشفاء، أضافت، وهي تواصل سيرها إلى الأمام. لو وقفت فوق رأسه طول اليوم والجاروف في يدها، فلربما دفعه ذلك أحيانًا للعمل بهمة ونشاط. وهكذا ظلا يتمشيان، حتى وصلا إلى أحواض زهور الكنيفوفيا الحمراء. قال السيد رمزي، في توبيخ لها، "أنت تُعلمين بناتك المبالغة". قالت

السيدة رمزي إن خالتها كاميلا كانت أسوأ منها بكثير. قال السيد رمزي، "لم يصل لعلمي أبدًا أن أحدًا اعتبر خالتك كاميلا نموذجًا للفضيلة". قالت السيدة رمزي، "إنها أجمل امرأة رأيتها في حياتي". قال السيد رمزي، "بل كانت هناك واحدة أخرى". قالت السيدة رمزي إن برو ستصبح أجمل منها بكثير. قال السيد رمزي إنه لم ير علامة على ذلك. قالت السيدة رمزي، "حسنا، إذن، فلترها الليلة". صمتا. تمنى لو أنه استطاع إقناع أندرو بالعمل بجد أكثر. فسيفقد كل الفرص في المنح الدراسية لو لم يفعل. قالت "أوه، المنح الدراسية!". اعتبرها السيد رمزي حمقاء أن تقول ذلك، عن موضوع جاد، مثل المنحة الدراسية. قال إنه سيكون شديد الفخر بأندرو لو تحَصّل على منحة دراسية. أجابت، إنها ستكون فخورة به تمامًا لو لم يحدث. كان هذا الأمر دائمًا مثار خلاف بينهما، لكنه غير مهم. أحبت إيمانه بالمنح الدراسية، وأحب فخرها بأندرو مهما فعل. فجأةً تذكرت تلك الممرات الضيقة على حافة المنحدرات الصخرية.

سألته، أليس الوقت متأخرًا؟ لم يكونا قد وصلا إلى البيت بعد. فتح ساعته بنقرة خفيفة وتركها مفتوحة بلا مبالاة. لكن الوقت لم يكن قد تجاوز السابعة إلا بدقائق قليلة فقط. ترك ساعته مفتوحة للحظة، مقررًا أن يخبرها عما شعر به في الشرفة. للبدء في ذلك، لم يكن من الحكمة أن يكون شديد العصبية. فباستطاعة أندرو أن يهتم بشئونه الخاصة. ثم، أراد أن يقول لها إنه عندما كان يسير في الشرفة منذ قليل- عندئذٍ بدأ يشعر بالقلق، كما لو كان سيقتحم تلك العزلة، وذلك التباعد، وذلك التحفظ... لكنها ضغطت عليه. سألته، ماذا كان يريد أن يقول لها، معتقدةً أنه بشأن

الذهاب إلى الفنار؛ وأنه آسف أن قال، "اللعنة عليك". لكنه لا. قال إنه لم يحب أن يراها حزينة هكذا. غائبة الذهن، اعترضت، وهي تتورد قليلًا. قالت كليهما يشعر بعدم الارتياح، كما لو كانا لا يعرفان هل يستمران في السير أم يعودان إلى المنزل. وكانت تقرأ القصص الخرافية لجيمس. لا، لا يستطيعان المشاركة في ذلك؛ ولا يستطيعان أن يقولا ذلك.

وصلا إلى الفجوة بين حوضي زهور الكنيفوفيا الحمراء، وها هو الفنار مرةً أخرى، لكنها لن تسمح لنفسها بالنظر إليه. فكرت، لو كانت تعرف أنه ينظر إليها، فلن تدع نفسها تجلس هناك، تفكر. كانت تكره أي شيء يذكرها بأنهم يرونها جالسة هناك تفكر. لذلك نظرت إلى الخلف من فوق كتفها، إلى البلدة. كانت الأضواء تتماوج وتتحرك كما لو كانت قطرات من المياه الفضية تتشبث بقوة بالريح. فكرت السيدة رمزي أن كل الفقر، وكل المعاناة قد تحولت إلى ذلك. بدت أضواء البلدة والميناء والقوارب مثل شبكة من أطياف تطفو هناك لتحدد مكان شيءٍ ما غرق. قال السيد رمزي لنفسه، حسنًا، إذا كان لا يستطيع مشاركتها أفكارها، فعليه أن يخرج منها، إذن، إلى أفكاره الشخصية. أراد أن يواصل تأملاته، ويحكي لنفسه قصة هيوم الذي انزلق في المستنقع؛ وأراد أن يضحك. لكن بدايةً كان من العبث أن يقلق بشأن أندرو. عندما كان في سن أندرو كان معتادًا على التسكع حول البلدة طوال اليوم، وليس معه سوى بسكويت في جيبه ولم يزعج أحد نفسه بشأنه، أو فكر أنه قد سقط من أعلى جرف صخري. قال بصوت مرتفع إنه يفكر في الخروج وقضاء يوم في التنزه سيرًا على الأقدام إذا سمح الطقس بذلك. لقد نال كفايته من بانكس ومن كارمايكل. ولديه رغبة في القليل من العزلة.

قالت، نعم. أزعجه أنها لم تعترض. كانت تعلم أنه لن يفعل ذلك مطلقًا. فقد تقدم بـه العمـر الآن بدرجـة لا تـسمح له بالـسير طـول النهـار وفي جيبـه بسكويت. كانت قلقة على الأولاد، لكنها ليست قلقة عليـه. منـذ سـنوات، قبل أن يتزوج، فكَّر، وهو ينظر عبر الخليج، وهما واقفـان بـين صـفين مـن زهور الكنيفوفيا الحمراء، سار ذات مرة طول اليوم. وتناول وجبة من الخـبز والجبن في حانة. كان يعمل لعشر ساعات متواصلة؛ وثمة امرأة عجوز كانـت تدس رأسها بين الحين والآخر وتنظر إلى النار. كانت تلك البلدة التي أحبهـا أكثر من أي مكان، قابعة هنـاك؛ تلـك التـلال الرمليـة تتـضاءل بعيـدًا في الظلام. ويمكن للمرء أن يسير المرء طول النهار دون أن يلتقي بأحد. بالكاد قد يكون هناك منزل واحد، ولمسافة أميـال لا توجـد حـتى قريـة واحـدة. ويمكن للمرء أن يكافح في الحياة بمفرده. كان هناك قليـل مـن الـشواطئ الرملية لم تطأها قدم منذ بدء الخليقة. وعجول البحر جالسة تنظـر إليـك. بدا له في بعض الأحيان أنه في بيت صغير هناك، وحيدًا- توقف عن التفكير، متنهدًا. لم يكن له حق في ذلك. ذكَّر نفـسه أنـه أب لثمانيـة أطفـال. وأنـه سيكون حيوانًا وخسيسًا عندما يتمنى أن يتغـير ولـو شيء واحـد. سـيكون أندرو رجلًا أفضل عما كان هو. وستكون برو جميلة، أمها قالت ذلك. ولا بد أن يوقفا الفيضان قليلًا. كان ذلك عملًا جيدًا على العموم- أطفاله الثمانية. لم يُظهروا أنه لعن ذلك العالم البائس الصغير مطلقًا، لأنـه في أمـسية مثـل هذه، فكَّر، وهو ينظر إلى الأرض تتلاشى مبتعدة، بدت الجزيرة صغيرة بشكل مثير للحزن، وقد ابتلعها البحر إلى حدٍّ ما.

تمتم وهو يتنهد، "يا له من مكان صغير بائس".

سمعته. لطالما تفوه بأكثر الأشياء سوداوية، لكنها كانت تلاحظ أنه عندما ينطق بهذه الأشياء فإنه دائمًا ما يتحول في التو إلى حال أكثر بهجة من المعتاد. فكرت أن ابتداع كل هذه العبارات كان لعبة، لأنها لو تفوهت بنصف ما قاله، فإن عقلها سينفجر في الحال.

أزعجتها، تلك اللعبة بالعبارات، وقالت له، بطريقة من يقرر حقيقة مؤكدة، إنها أمسية طيبة جدًّا. وسألته، نصف ضاحكة، نصف متذمرة، ما الذي يدعوه لكل هذا التبرم، لأنها خمنت ما كان يفكر فيه- أنه كان سيؤلف كتبًا أفضل لو لم يتزوج.

قال إنه لم يكن يشكو. كانت تعرف أنه لم يشكُ. وكانت تعرف أنه لم يكن لديه ما يشكو منه. أمسك بيدها ورفعها إلى شفتيه وقبلها قبلة عميقة جعلت عينيها تغرورقان بالدمع، وسرعان ما أسقطها من يده.

ابتعدا عن المشهد وبدءا في السير صعودًا عبر الممر الذي تنمو فيه نباتات شبيهة بقضبان فضية الخضار، ذراعًا في ذراع. فكرت السيدة رمزي، لطالما كان ذراعه مثل ذراع شاب، نحيلاً وقويًّا، وفكرت بابتهاج كيف أنه لا يزال قويًّا، على الرغم من أنه تجاوز الستين، وكيف أنه نشيط ومتفائل، وكيف أنه من الغريب أن يكون مقتنعًا، كما كان، بكل أنواع الفظاعات، التي يبدو أنها لا تصيبه بالكآبة، بل تبهجه. تساءلت، أليس هذا غريبًا؟ في الحقيقة كان يبدو لها أحيانًا كأنه مجبولٌ بطريقة مختلفة عن الآخرين، كأنه وُلد أعمى وأصم وأبكم، إزاء الأمور العادية، أما إزاء الأمور الاستثنائية، فقد كانت له عينان مثل عينَي الصقر. كان فهمه غالبًا ما يدهشها. لكن هل

لاحظ الزهور؟ لا، هل لاحظ المنظر؟ لا. هل حتى لاحظ جمال ابنته، أو ما إذا كان ما في طبقه حلوى البودنج أم اللحم البارد؟ إنه يجلس إلى المائـدة معهـم كشخص يحلم. أما عادته في الكلام بصوت مرتفع، أو تـلاوة الـشعر بـصوت مسموع، فكانت تزداد معه، وكانت خائفة؛ لأن الأمر أحيانًا يكون مروعًا...

لقد ضاع الأفضل والأروع!

مسكينة الآنسة جيدنجز، عندما صاح هكذا في وجهها، فكادت أن تقفز خارجةً من جلدها. لكن السيدة رمزي عندئذٍ، على الرغم من أنهـا سرعان ما أخذت جانبه ضد كل آل جيدنجز الحمقى في أنحاء العـالم، آنئـذٍ، فكـرت، وهي تضغط قليلًا ضغطة حميمة على ذراعه لتذكره أنه يـسير صـاعدًا التـل بسرعة أكبر مما تستطيع أن تجاريه فيها، وأن عليها أن تقف لحظة لتتأكـد إن كانت هذه التلال الترابية المكومة ناجمة عن حفر حـديث قـام بـه حيـوان الخلد على الضفة، ثم، فكرت، متسللةً لأسفل لتلقي نظرة، فعقـل كـبير مثـل عقله لابد أنه يكون مختلفًا تمامًا عن عقولنا. إن كل الرجال العظماء الذين عرفتهم في حياتها، فكرت، منتهيةً إلى أنه لابد أن أرنبًا قـد دلـف داخلهـا، كلهم هكـذا، وأنـه مـن الجميـل للـشبان (على الـرغم مـن أن جـو قـاعات المحاضرات كان فاسد الهواء ومقبضًا لها فوق الطاقـة تقريبًـا) أن يـصغوا له ببساطة، ويتطلعوا إليه ببساطة. لكن دون صيد الأرانـب، كيـف يمكـن للمرء أن يمسك بهم؟ تساءلت. ربما يكون أرنبًا؛ وربما يكون خلَدًا. كائن ما كان على أية حال يفسد أمسية حفل الزهور الخاص بها. وعندما تطلعـت لأعلى، رأت فوق الأشجار النحيلـة أول نـبض للـنجم الـرعاش، وأرادت أن

تلفت انتباه زوجها لينظر إليه؛ لأن المشهد منحها بهجة شديدة. لكنها استوقفت نفسها. إنه لا ينظر أبدًا نحو الأشياء. وعندما ينظر، كل ما سيقوله سيكون، يا له من عالم صغير بائس، مع إحدى تنهداته تلك.

لكي يسعدها، في تلك اللحظة، قال، "رائع جدًّا"، وتظاهر بإعجابه بالزهور. لكنها كانت تعي تمامًا أنه لم يعجب بها، أو حتى لاحظ أنها كانت هناك في ذلك المكان. كان ذلك لكي يسعدها فحسب... آه، لكن أليست تلك هي لِيلي بريسكو تتمشَّى هناك مع وليام بانكس؟ ركزت عينيها قصيرتَي النظر على ظهرَي الثنائي العائد. نعم، إنها هي حقًّا. ألا يعني ذلك أنهما يزمعان الزواج فعلًا؟ نعم، لابد أن الأمر كذلك! يا لها من فكرة جديرة بالإعجاب! إنهما يزمعان الزواج!

الفصل الثَّالث عشر

لقد ذهب إلى أمستردام، كان السيد بانكس يقول ذلك وهو يتمشى في المرج مع لِيلي بريسكو. لقد رأى أعمال رمبرانت[1]. وذهب إلى مدريد. لكن لسوء الحظ، كان يوم جمعة الآلام وكان متحف ديل برادو مغلقًا. وذهب إلى روما. ألم تذهب الآنسة بريسكو إلى روما من قبل؟ أوه، كان ينبغي أن تفعل- كان الأمر سيكون تجربة رائعة لها- أن تشاهد كنيسة سيستينا؛ مايكل آنجلو، ومدينة بادوفا، ولوحات جوتو دي بوندوني في كنائسها[2].

---

(1) رمبرانت Rembrandt: رسام هولندي (1606ـ1669)، يعتبر من أعظم الرسامين وفناني الحفر في التاريخ الأوروبي.

(2) كنيسة سيستينا Sistine Chapel: أشهر كنيسة بإيطاليا، ومقر البابوية، فيما تعتبر إحدى التحف الفنية النادرة في العالم. مايكل آنجلو Michael Angelo: رسام ونحات ومعماري وشاعرإيطالي (1475ـ1564)، أحد رموز عصر النهضة في الفن التشكيلي. جيوتو دي بوندوني Giotto di Bondone: رسام ومعماري فلورنسي (1266ـ1337)، ويعتبر أول فنان في سلسلة فناني عصر النهضة.

قضت زوجته سنوات طويلة مريضة، لذلك كانت رؤية تلك المشاهد قد تنفعها قليلًا.

كانت قد ذهبت إلى بروكسل؛ وذهبت إلى باريس لكن فقط في زيارة خاطفة لترى خالة مريضة لها. ذهبت أيضًا إلى درسدن؛ كانت هناك أكوام من اللوحات التي لم ترها من قبل؛ على أية حال، فكَّرت لِيلي بريسكو، ربما كان من الأفضل ألا ترى تلك اللوحات: إنها لوحات تجعل المرء ممتعضًا من لوحاته بلا أمل. فكَّر السيد بانكس أن المرء يستطيع أن يمد وجهة النظر تلك إلى أبعد حد. قال، لا يمكننا أن نكون جميعًا تيتيان* ولا يمكننا جميعًا أن نكون داروين؛ وتشكك في نفس الوقت عما إذا كان من الممكن لكل واحد أن يعثر داخله على داروين وتيتيان الخاص به إن لم يكن شخصًا متواضعًا مثلنا. أرادت لِيلي أن تبادله المجاملة؛ أحبت أن تقول له أنت لست متواضعًا يا سيد بانكس. لكنه لم يكن يحب المجاملات من أحد (فكَّرت، إن معظم الرجال هكذا)، وشعرت بالخجل قليلًا لاندفاعها ولم تقل شيئًا عندما أبدى ملحوظة أن ما قاله قد لا ينطبق على اللوحات. على أية حال، قالت ليلي، وهي تقذفه بقليل من مكرها، إنها ستواصل دائمًا الرسم، لأنه يسعدها. قال السيد بانكس، نعم، إنه واثق أنها ستواصله، وإذ وصلا إلى نهاية المرج كان يسألها عما إذا كانت قد وجدت صعوبة في العثور على موضوعات موحية للرسم في لندن، عندما التفتا ورأيا آل رمزي. فكرت ليلي، إذن فهو الزواج، رجل وامرأة يتطلعان نحو فتاة تلقى بالكرة. فكرت، إن هذا

* تيتسيانو فيتشيليو: رسام إيطالي من البندقية، ينتمي إلى عصر النهضة.

ما حاولت السيدة رمزي أن تخبرني به الليلة الماضية. فقد كانت ترتدي شالًا أخضر، وكانتا تقفان قريبتين إحداهما من الأخرى ترقبان برو وجاسبر وهما يلعبان بالكرة. وفجأةً، بلا سبب على الإطلاق، وفيما كانا يخطوان خارج النفق أو يرنان جرس الباب، تنزل عليهما المعنى الذي يحط على الناس، فيجعلهم رمزيِّين، وتمثيليين، وجعلهما وهما يقفان في الغسق، يتطلعان، رمزين للزواج، للزوج والزوجة. ثم، بعد لحظة، غرق من جديد الإطار الرمزي الذي تسامى بالشخصين الواقعيين، وأصبحا، مثلما التقيا بهما من قبل، السيد والسيدة رمزي اللذين يراقبان الأطفال وهم يلعبون بالكرة. لكنهما للحظة، على الرغم من أن السيدة رمزي حيتهما بابتسامتها المعهودة (آه، فكرت ليلي، أوه، إنها تظن أننا سنتزوج)، وقالت "لقد انتصرتُ الليلة"، قاصدة أنها للمرة الأولى جعلت السيد بانكس يوافق على تناول الطعام معهم لا أن يجري إلى مسكنه حيث يطهو له خادمه الخضروات بالطريقة الصحية؛ لكن، للحظة، كان ثمة شعور بأن الأمور قد تفككت منفصلة، بالفراغ، بانعدام المسئولية فيما الكرة تحلق عاليًا، وتتبعونها وفقدوا أثرها ورأوا النجم الوحيد والأغصان المتدلية. في الضوء الخافت بدَوا جميعًا ذوي حواف حادة وأثيريِّين ومنفصلين بمسافات شاسعة. ثم، إذ اندفعوا للخلف واثبين في الفراغ الشاسع (لأن الصلابة بدت كأنها قد تلاشت تمامًا)، جرت برو منحدرةً تمامًا إليهم وأمسكت بالكرة بصورة رائعة عاليةً في يدها اليسرى، وقالت أمها، "ألم يعودوا بعد؟" فيما يبدو أن التعويذة قد تحطمت. أحس السيد رمزي بحريته الآن في إطلاق العنان لنفسه بالضحك بصوت عالٍ على فكرة أن هيوم قد سقط في مستنقع وأن امرأة عجوزًا قد أنقذته

بشرط أن يتلو صلاة للرب، ومغمغمًا لنفسه تمشي إلى مكتبه. وسألت السيدة رمزي، وقد أعادت برو إلى لعب الكرة مرةً أخرى، بعد أن كانت قد هربت منها،

"هل ذهبت نانسي معهم؟"

الفصل الرَّابــع عشر

(مؤكد، أن نانسي قد ذهبت معهم، لأن مينتا دويل قد طلبت منها ذلـك بنظرتها الصامتة، وأخذتها من يدها، فيما اتجهت نانـسي، بعـد الغـداء، إلى علِّيتها، لتتجنب رعب الحياة العائلية. وافترضت مينتا أنها يجب أن تـذهب آنئذٍ. لكنها لم تكن تريد الذهاب. لم تكن تريد التورط في ذلك الموضـوع مطلقًا. فإذ كانا يسيران بامتداد الطريق إلى المنحدر الـصخري، ظلـت منتـا ممسكة بيدها. ثم تركتها. ثم أمسكت بها مـرةً أخـرى. فمـاذا كانـت تريـد؟ سألت نانسي نفسها. ثمة شيء، من المؤكد، أن أولئك الأشـخاص يريدونـه؛ فعندما أخذت مينتا يدها وأمسكت بها، رأت نانـسى، على مـضض، العـالم كله يمتد تحت قدميها، كما لو كانت القسطنطينية تلوح من خلال الضباب، ثم، على أية حال، مهما كانت عين المرء ثقيلة، فالمرء بحاجة إلى أن يسأل، "هل هذه كنيسة سانتا صوفيا؟" "هل هذه هي شبه جزيرة القرن الذهـبي؟" هكـذا سألت نانسي، عندما أمسكت مينتا بيدها. "ماذا تريد؟ هل هو هذا؟" ومـاذا

كان هذا؟ هنا وهناك كانت تنبثق من الضباب (فيما كانت نانسي تنظر إلى الحياة التي تناثرت تحت قدميها في الأسفل) قمةٌ عالية، قبة؛ أشياء شامخة، بلا أسماء. لكن عندما أسقطت مينتا يدها، مثلما فعلت عندما كانا يجريان أسفل التل، غرق في الضباب وتلاشى كل ذلك، القبة، والقمة العالية، أيًّا ما كان قد برز عبر الضباب. ولاحظ أندرو أن مينتا كانت مشَّاءة جيدة. كانت ترتدي ملابس مناسبة للسير أكثر مما تفعل معظم النسوة عادةً. كانت ترتدي تنورات شديدة القصر وبنطلونات سوداء قصيرة منتفخة ومزمومة عند الركبة. فهكذا يمكنها أن تقفز مباشرةً في النهر وتتخبط في مياهه. كان يحب اندفاعها، لكنه رأى أنه بلا جدوى- فقد تعرض نفسها للموت بهذه الطريقة الحمقاء يومًا ما. بدا أنها لا تخاف من شيء- عدا الثيران. فعند رؤيتها لثور في حقل تبسط ذراعيها للأمام وتطير وهي تصرخ، وهو بالطبع ما يستثير الثور تمامًا. لكنها لم تكن تمانع على الأقل في الاعتراف بذلك؛ فعلى المرء أن يُقر بذلك. قالت، إنها تعرف أنها جبانة للغاية فيما يتعلق بالثيران. وتعتقد أنه ربما طرحها ثور من عربة الأطفال عندما كانت طفلة رضيعة. لم يكن يبدو عليها أنها تبالي بما تقوله أو تفعله. فجأةً جلست الآن على الجرف الصخري وبدأت تغني أغنية عن

اللعنة على عينيك، اللعنة على عينيك.

اضطُر الجميع إلى أن يتجمعوا حولها ويغنوا في جوقة، ويصيحوا معًا:

اللعنة على عينيك، اللعنة على عينيك،

لكنه كان خطرًا جسيما أن ينتظروا قدوم المد إلى أن يغطي كل أراضي

الصيد الجيدة قبل أن يواصلوا طريقهم إلى الشاطئ.

وافقهم بول على القول "خطر جسيم"، وهو يقفز كالزنبرك، وبينما هم يهبطون منزلقين، واصل اقتبا الكتاب الإرشادى عن "هذه الجزر مشهورة جدًّا بمشاهدها الشبيهة بالمنتزهات وامتداد وتنوع غرائبها البحرية". لكن هذا لم يكن مجديًا مطلقًا، ذلك الصياح وصب اللعنة على عينيك، كما أحس أندرو، وهو يخطو أسفل الجرف، هذا التربيت على ظهره، ومخاطبته بـ"صديقي العجوز" وكل تلك الأمور؛ لن يجدي ذلك مطلقًا. كان ذلك أسوأ ما في اصطحاب النساء في التمشيات. وما إن تفرقوا على الشاطئ، حتى سار في طريقه متجها إلى جبل أنف البابا، خالعًا حذاءه، واضعًا جوربه القصير داخله، وتاركًا ذلك الثنائي وشأنهما؛ خاضت نانسي الماء متعثرةً إلى صخورها الأثيرة وبحثت عن برك الماء التي تحبها تاركة ذلك الثنائي وشأنهما. قبعت منحنيةً ولمست شقائق النعمان البحرية التي تشبه المطاط في نعومته، والتي كانت ملتصقة مثل كُتل الجيلي على جانب الصخرة. ممعنةً في التفكير، انتقلت بتفكيرها من البركة إلى البحر، وحولت سمك المنوه الصغير إلى أسماك القرش والحيتان، ورسمت السحب الكبيرة فوق هذا العالم الصغير بأن مدت يدها في مواجهة الشمس، وهكذا أتت بالعتمة والعزلة إلى ملايين المخلوقات الجاهلة والبريئة، مثلما يفعل الله نفسه، وبعدها أبعدت يدها فجأةً وتركت ضوء الشمس ينتشر مرةً أخرى. وعلى الرمال الشاحبة ذات الخطوط المتصالبة، راحت تطارد وحش لفياثان(*) خيالي، في خطوات واسعة،

(*) لِفياثان leviathan: وحش بحري خرافي، ورد ذكره في "العهد القديم"، ومنه

موشاة، وقفازات في يديها، (كانت لا تزال توسع البركة)، وانسلت نحو الشقوق الكبيرة في جانب الجبل. عندئذٍ، تركت عينيها تنسلان بلا وعي فوق البركة وتستقر فوق الخط المرتعش للسماء والبحر، وعلى جذوع الأشجار التي جعلها دخان البواخر ترتعش في الأفق، أصبحت بكل هذي القوى تزحف بوحشية للداخل متراجعةً بصورة حتمية، منومةً مغناطيسيًّا، والشعور بذلك الاتساع وهذا التضاؤل (تقلصت البركة مرةً أخرى) المزدهر بالداخل جعلها تشعر بأنها مقيدة اليدين والقدمين وغير قادرة على الحركة بفعل كثافة المشاعر التي قلصت جسدها، وحياتها، وحياة كل البشر في كل العالم، للأبد، إلى العدم. فإذ أرهفت سمعها للأمواج، وقبعت فوق البركة، راحت تمعن التفكير.

وصاح أندرو أن البحر يتقدم على اليابسة، لذلك قفزت تنثر الماء خلال الأمواج الضحلة القريبة من الشاطئ وجرت نحو الشاطئ يحملها طيشها واندفاعها ورغبتها في الحركة السريعة للتوجه نحو الصخرة وهناك- أوه، يا إلهي! وكل منهما يمسك بذراع الآخر، كان بول ومينتا ربما يتبادلان القبلات. اهتاج غضبها، وسخطها. ارتدت هي وأندرو حذائيهما وجوربيهما في صمت قاتل دون أن ينطقا بحرف عن ذلك الأمر. كان كل منهما فعلاً أكثر حدة مع الآخر. ربما تكون قد نادت عليه عندما رأت جراد البحر أو أيًّا ما كان، وغمغم أندرو متذمرًا. على أية حال، شعر كل منهما بأن الخطأ ليس خطأهما. لم يُرد أي منهما هذا الإزعاج المروع أن يحدث. ومع ذلك فقد

انتقل إلى الكتابات الحديثة، كرواية "موبي ديك" لهيرمان مِلفيل.

استثار أندرو أن نانسي ستصبح يومًا ما امـرأة، واسـتثار نانـسي أن أنـدرو سيصبح يومًا ما رجلًا، وربطا حذائيهما بدقة شديدة وأحكما ربـط العقـدة جيدًا.

وما إن تسلقوا صاعدين إلى قمة الجـرف الـصخري مـرةً أخـرى وكادوا يصلون حتى صرخت مينتا أنها فقدت "بـروش" جـدتها- فقـدت "بـروش" جدتها، الحلية الوحيـدة الـتي تمتلكهـا- على شـكل ورقـة صفـصاف، كان (وعليهم أن يتذكروا ذلك) مُطعمًا باللآلئ. قالت، لابد أنهـم رأوه، والدمـوع تنساب على خديها، البروش الذي كانت جدتها تضعه على قبعتها حـتى آخـر يوم في حياتها. وها هي الآن قد فقدته. كانت تتمنى لو تفقـد أي شيء سـواه! سوف تعود وتبحث عنه. عادوا جميعًا. نبشوا وفتشوا وبحثوا. ظلت رؤوسـهم خفيضةً للغاية، وتفوهوا بكلمات مقتضبة وفظة. بحث بول رايلي كالمجنون حول الصخرة التي كانوا يجلسون عليها. كل هذا الانزعاج حول "بروش" لـم يُجدِ إطلاقًا، فكَّر أندرو في ذلك، عندما أخبره بول أن يقوم بــ"بحـث شـامل بين هذه النقطة وتلك". كان المد يتقدم بسرعة. سيغطي البحـر المـكان الذي كانوا يجلسون فيه خلال دقيقة. ولم تكن هناك أدنى فرصـة للعثـور عليـه الآن. فجأةً صرخت مينتا، مرعوبةً فجأة "سننفصل عن الآخـرين!". كمـا لـو كان ثمة خطر من ذلك! كان نفس ما فعلته عندما انـدفعت الثيران نحوهـا من جديد- فكر أندرو أنها بلا سيطرة على انفعالاتها. لا سيطرة للنساء على انفعالاتهن. وكان على المسكين بول أن يهدئها. أخذ الرجلان (أنـدرو وبـول أصبحا في الحال ذكوريين، ومختلفين عن المعتاد) يتشاوران باختصار وقـررا أن يغرسا عصا رايلي في المكان الذي كانوا يجلسون فيه ثم يعودون إليه عندما

ينخفض المد مرةً أخرى. لم يكن في وسع أحد أن يفعل أي شيء آخر الآن. ولو كان البروش هناك، فسيظل مكانه حتى الصباح، طمأنوها، لكن مينتا ظلت تنشج، طوال الطريق حتى قمة الجرف الصخري. كان بروش جدتها؛ وكانت تتمنى أن تفقد أي شيء سواه، ومع ذلك شعرت نانسي، أنه حقيقي بالفعل أنها مشغولة بفقد بروشها، لكنها لا تبكي فقط من أجل ذلك. إنها تبكي لسبب آخر. إننا جميعًا قد نجلس ونبكي، كما أحست. لكنها لم تعرف السبب.

تقدم الجميع معًا، بول ومينتا، وهو يهدئها، ويقول لها كم أنه مشهور بالعثور على المفقودات. ذات مرة عندما كان صبيًّا صغيرًا عثر على ساعة ذهبية. وهو سيستيقظ في الفجر وهو يشعر بأنه سيعثر عليه. بدا له أن الجو وقتها سيكون مظلمًا تقريبًا، وسيكون بمفرده على الشاطئ، وأن الأمر لا يخلو بشكلٍ من الأشكال من الخطورة. بدأ يخبرها، مع ذلك، أنه بالتأكيد سيعثر عليه، وقالت إنها لم تسمع عن استيقاظه في الفجر: لقد فُقد: وهي تعلم ذلك: فقد كان لديها شعور مسبق بذلك عندما وضعته ذلك المساء. وفي السر انتهى إلى أنه لن يخبرها، لكنه سيتسلل من المنزل في الفجر عندما يكونون جميعًا نائمين وإذا لم يتمكن من العثور عليه فسيذهب إلى إدنبره ويشتري لها "بروش" آخر، يشبهه تمامًا بل أجمل. سيثبت لها ما يستطيع أن يفعله. وعندما خرجوا إلى التل ورأوا أضواء البلدة تحتهم، بدت الأضواء التي انبثقت فجأةً ضوءًا وراء الآخر كالأمور التي ستحدث له- زواجه، أطفاله، منزله؛ وفكر مرةً أخرى، أثناء خروجهم إلى الطريق السريع، المظلل بأشجار عالية، كيف سينسحبان إلى حالة العزلة معًا، ويسيران ويسيران، وهو دائمًا

يقودها، وهي تنكمش ملتصقةً به (كما تفعل الآن). وعنـدما انعطفـوا عنـد تقاطع الطرق فكر كم هي تجربة مروعة التي مر بها، وعليـه أن يفـضفض مع شخصٍ ما- السيدة رمزي بالطبع، وتنفس الصعداء عنـدما فكـر فيمـا فعله وما جرى له. كانت بعيدة أسوأ لحظات حياته حين طلب مـن مينتـا أن تتزوجه. سيمضى مباشرةً إلى السيدة رمزي، لأنه أحـس بـشكلٍ مـا أنهـا هي الشخص الذي جعله يفعل ذلك. هي مَن جعلته يظن أن بمقـدوره أن يفعـل أي شيء. لم يأخذه أي شخص آخر سـواها بـصورة جديـة. لكنهـا هي مَـن جعلته يظن أنه يمكنه فعل ما يشاء أيًّا مـا كان. لقـد أحـس بعينيهـا طـول النهار اليوم عليه، تتبعه حيثما سار (رغم أنها لـم تنطـق بكلمـة مطلقًـا) كأنها تقول له، "نعم، بوسعك أن تفعل ذلك. أنا مؤمنةٌ بك. أتوقع ذلك منك". لقد جعلته يشعر بكل ذلك، وعادوا مباشرةً (كان يبحث عن أضواء المـنزل فوق الخليج) سيذهب إليها ويقول لها، "لقد فعلتها، يا سيدة رمزي؛ أشكرك". وعندما انعطفوا إلى الممر الضيق المؤدى إلى المنزل كان بمقدوره رؤية الأضواء تتحرك في النوافذ العلوية. لابد أن الوقـت متـأخر للغايـة إذن. كان النـاس يستعدون لتناول طعام العشاء. وكان المنزل كله مضاء، الـضوء الـشديد بعـد الظلام الدامس أعشى عينيه، وقال لنفـسه، بلهجـة طفوليـة، وهـو يـصعد الدرج، أضواء، أضواء، أضواء، وراح يكررها بطريقة مَن أبهر الضوء بصره، أضواء، أضواء، أضواء، وفيما كانوا يدلفون إلى المنزل راح الآخرون يحملقون فيه بوجهه الجامد. لكن، يا لعناية السماء، قال لنفسه، وهـو يـضع يـده على ربطة عنقه، (لا يجب أن أبدو في شكل الأحمق).

الفصل الخامس عشر

قالت برو، بطريقتها اللافتة للنظر، "نعم"، وهي تجيب على سؤال والدتها، "أظن أن نانسي رحلت معهم".

الفصل السَّادس عشر

حسنا إذن، لقد ذهبت نانسي معهم، افترضت السيدة رمزي ذلك، متعجبة، وهي تضع "بروش" جانبًا، وتلتقط مشطًا، وقالت، "ادخل"، ردًّا على مَن يطرق الباب (دخل جاسبر وروز)، سواء كانت حقيقة ذهاب نانسي معهم قد جعلت حدوث أي شيء أمرًا أقل احتمالية أو أكثر احتمالية؛ شعرت السيدة رمزي، بطريقة، شديدة اللامنطقية، أن ذلك جعل الأمر أقل احتمالية، فيما عدا أن ذلك يجعل محرقة الهولوكوست بذلك القياس أمرًا غير محتمل. فلا يمكن أن يغرق الجميع. ومرةً أخرى شعرت بالوحدة في وجود غريمتها القديمة، الحياة.

قال جاسبر وروز إن ميلدرد تريد أن تعرف إن كان عليها أن تؤخر طعام العشاء قليلًا.

قالت السيدة رمزي بتشديد، "ولا حتى من أجل ملكة انجلترا نفسها".

وأضافت، وهي تضحك مع جاسبر، "ولا حتى من أجل امبراطورة المكسيك"؛ لأنه كان يشارك والدته عيبها؛ فهو، أيضًا، كان يحب المبالغة.

قالت، وإذا ما أحبت روز ذلك، فيما كان جاسبر يستوعب الرسالة، فيمكنها أن تختار أي المجوهرات ستتزين بها. وحينما يكون هناك خمسة عشر شخصًا يجلسون لتناول العشاء، فلا يسع المرء أن يجعل الأمور تنتظر للأبد. لقد بدأت الآن تشعر بالانزعاج منهم لأنهم تأخروا جدًّا؛ كان ذلك سلوكًا غير لائق منهم، وأزعجها بالإضافة لقلقها عليهم، أنهم اختاروا تلك الليلة بالذات ليتأخروا فيها خارج المنزل، بينما، في الحقيقة، كانت تتمنى أن يكون العشاء لطيفًا بشكل متميز، طالما أن وليام بانكس وافق أخيرًا على تناول العشاء معهم، ولديهم تحفة ميلدرد الفريدة، طبق "**بيف أون دوب**"(*). فكل شيء يعتمد على تقديم الأشياء بدقة في اللحظة المناسبة حين يكونون مستعدين. اللحم المقدد، وورق الغار، والنبيذ- كل ذلك يجب أن يقدم في دوره. أما أن يجعلوا ذلك ينتظر فمسألة خارج المناقشة. ومع ذلك بالطبع هذه الليلة، دون كل الليالي، غادروا المنزل، وسيعودون متأخرين، وينبغي ترتيب أصناف الطعام على المائدة، ينبغي الحفاظ عليها ساخنة؛ والـ"بيف أون دوب" سيفسد تمامًا.

قدم لها جاسبر قلادة من حجر الأوبال؛ وقدمت لها روز قلادة من ذهب. أيهما ستبدو أفضل على ردائها الأسود؟ أيهما حقًّا، قالت السيدة رمزي وهي

(*) طبق فرنسي يتكون من لحم البقر المطهي مع الجزر وغيره من الخضروات، ويعتمد على النقع عدة أيام في النبيذ الأحمر، ويسوى على نار هادئة بطيئة لعدة ساعات.

شاردة الذهن، فيما تتطلع نحو عنقها وكتفيها (لكنها تتجنب وجهها) في المرآة. وعندئذ، بينما كان الأطفال يفتشون في أشيائها، تطلعت من النافذة إلى منظر لطالما أسعدها- غربان الحقل وهم يقررون أية شجرة سيحطون فوقها. كل مرة، يبدو أنهم يغيرون رأيهم ويعودون للتحليق في الهواء مرةً أخرى، لأن الغراب الكبير، فكرت، الغراب الأب، الذي أطلقت عليه جوزيف العجوز، كان طائرًا ذا مزاج صعب وكثير التردد. كان طائرًا عجوزًا سيء السمعة، بجناحيه اللذين فقد نصف ريشهما. كان أشبه بسيد مهذب عجوز يرتدى أسمالًا بالية وقبعة عالية رأته ذات مرة ينفخ بوقه أمام حانة.

قالت، وهي تضحك، "انظروا!". كانا بالفعل يتشاجران. جوزيف وماري يتشاجران. على أية حال رحلوا جميعًا مرةً أخرى، والهواء يندفع جانبًا بفعل أجنحتهما السوداء وينقطع في أشكال معقوفة حادة. كانت الأجنحة التي تخفق، تخفق- لم يكن بوسعها أن تصفها لنفسها بدقة لتمتع نفسها- كانت واحدةً من أحب الأشياء إلى قلبها. قالت لروز، انظري إليهم، أملًا في أن تراهم روز بشكل أوضح مما تستطيع هي. لأن نظرة الطفل غالبًا ما تمنح تصورات المرء ومفاهيمه دفعةً إلى الأمام قليلًا.

لكن ماذا كان ذلك؟ كانت كل علب مجوهراتها مفتوحة أمامهم. القلادة الذهبية، إيطالية الصنع، أم القلادة المطعمة بحجر الأوبال، التي أحضرها لها العم جيمس من الهند؛ أم عليها أن ترتدى قلادتها المطعمة بحجر الجمشت؟

قالت، "اختاروا لي، يا أعزائي، اختاروا"، أملًا في أن يفعلوا ذلك بسرعة.

مع ذلك منحتهم الوقت الكافي ليختاروا لها: تركت روز، بشكل خاص،

تلتقط هذا ثم ذاك، وتضع المجوهرات فوق ثوبها الأسود، من أجل هذا الاحتفال الصغير لاختيار المجوهرات، الذي أصبح عادة ليلية تمارَس كل ليلة، وهي تعرف، أن روز تحب ذلك أكثر من أي شيء. وكان لديها سبب خفي في إضفاء أهمية كبيرة على هذا الاختيار لما سترتديه أمها. تساءلت السيدة رمزي بينها وبين نفسها عن هذا السبب، وهي واقفة بلا حراك لتدعها تغلق محبس القلادة التي اختارتها، مخمنةً، عبر ماضيها الخاص، بالشعور العميق، الدفين، الذي لا تعبر عنه الكلمات، والذي كانت تشعر به تجاه والدتها وهي في عمر روز. فكرت السيدة رمزي، إنه شأن كل مشاعر الإنسان تجاه نفسه، التي تجعله حزينًا. كانت مشاعر غير كافية بدرجة كبيرة، ما يمكن للمرء أن يمنحه في المقابل؛ وما شعرت به روز كان بلا تناسب تمامًا مع أي شيء في حياتها بالفعل. وافترضت أن روز ستكبر، وروز ستعاني، مع تلك المشاعر العميقة، وقالت إنها مستعدة الآن، وأنهم سيهبطون إلى الطابق الأسفل، وجاسبر، لأنه كان سيدًا مهذبًا، سيكون عليه أن يعطيها ذراعه لتتأبطه، وروز، لأنها الهانم، ستحمل لها منديلها (أعطتها المنديل)، وماذا أيضًا؟ أوه، نعم، ربما يكون الجو باردًا: شال. قالت، اختاروا لي شالًا، لأن هذا سيسعد روز، التي كان من المؤكد أنها ستعاني كثيرًا. قالت، "هناك"، وخطَت نحو النافذة على بسطة السُّلَّم. "ها هم هناك مرةً أخرى". كان الغراب جوزيف قد حط على قمة شجرة أخرى. قالت لجاسبر، "ألا تعتقد أنهم يهتمون بأجنحتهم المكسرة؟" لماذا أراد أن يصوب بندقيته نحو العجوز المسكين جوزيف وماري؟ جرجر قدميه قليلًا على الدرج، وشعر بالتأنيب، لكن ليس بجدية، لأنها لم تفهم متعة صيد الطيور؛ وهم لم يشعروا؛ ولأنها

أمه فقد كانت تعيش في جزء آخر من العالم، مع ذلك فهو يحب قصصها التي تحكيها عن ماري وجوزيف. فهي تجعله يضحك. لكن كيف عرفت أن هذين الاثنين هما ماري وجوزيف؟ سألها، هل تعتقد أن نفس الطائرين يأتيان إلى نفس الأشجار كل ليلة؟ لكن هنا، فجأةً، ككل الأشخاص الكبار، كفت عن أن توليه أدنى انتباه. كانت تصغي إلى قعقعةٍ ما في الصالة.

هتفت بصوت مرتفع، "لقد عادوا!"، وشعرت في الحال بالمزيد من الانزعاج منهم أكثر من الارتياح. عندئذٍ تساءلت، هل حدث يا ترى؟ ستهبط إليهم وسيحكون لها- لكن لا. فلن يستطيعوا أن يحكوا لها أي شيء، مع وجود كل هؤلاء الأشخاص حولهم. لذلك فعليها أن تهبط الدرج وتبدأ في العشاء وتنتظر. ومثل ملكة، عثرت على شعبها مجتمعًا في الصالة، تطلعت إلى الأسفل نحوهم، ونزلت بينهم، وامتنت لتحياتهم في صمت، وتقبلت ولاءهم وانحناءهم أمامها (لم يحرك بول ساكنًا بل نظر أمامه مباشرةً وهي تمر أمامه) نزلت، وعبرت الصالة وأحنت رأسها انحناءة طفيفة للغاية، كما لو كانت تتقبل ما لم يستطيعوا التفوه به: إعجابهم البالغ بجمالها.

لكنها توقفت. كانت هناك رائحة شيءٍ ما يحترق. تساءلت، هل تركوا "**البيف أون دوب**" ليغلي فوق النار أكثر مما ينبغي؟ وطلبت من الله ألا يكون الأمر كذلك! وعندما أعلنت قعقعة الجرس الصاخبة، بشكل رسمي، وصارم، أن جميع أولئك المتناثرين، في العلِّيات، وفي غرف النوم، وفي مكامنهم الصغيرة الخصوصية، يقرأون، أو يكتبون، أو يضعون آخر لمسة تلميع على شعرهم، أو يُحكمون إغلاق أرديتهم، عليهم أن يتركوا كل ذلك، وأن يتركوا

الأشياء الغريبة الصغيرة، وينتهوا من وقفتهم عند أحواض التنظيف وعند مرايا تصفيف الشعر، ويتركوا الروايات الموضوعة على مناضد الأسرَّة، واليوميات شديدة الخصوصية، ويحضروا إلى حجرة الطعام لتناول العشاء.

الفصل السابع عشر

لكن ماذا فعلت أنا بحياتي؟ فكرت السيدة رمزي، وهي تأخذ مكانها على رأس المائدة، وتتطلع نحو الأطباق كلها التي تشكل دائرة بيضاء عليها. قالت، "وليام، اجلس بجواري"، ثم قالت بقلق، "لِيلي، اجلسي هناك". فعلوا ذلك- بول رايلي ومينتا دويل- وهي، فقط هذا- مائدة طويلة جدًّا وأطباق وسكاكين. في أقصى الطرف الآخر كان زوجها، جالسًا، شارد البال، مكفهرًّا تمامًا. لِمَ؟ لم تعرف. لم تهتم. لم تستطع أن تفهم كيف شعرت يومًا ما بأية عاطفة أو انجذاب نحوه. اعتراها شعور بأنها تجاوزت كل شيء، خلال كل شيء، خرجت من كل شيء، فيما كانت تتعامل مع الحساء، كما لو كان هناك دوامة- هناك- ويمكن للمرء أن يدلف داخلها، أو يمكن للمرء أن يخرج منها، وهي كانت خارجها. فكرت، كل شيء يصل إلى نهايته، فيما كانوا يأتون واحدًا وراء الآخر، تشارلز تانسلي، قالت، "من فضلك، اجلس هناك"- أوجستوس كارمايكل- وجلست. وفي نفس الوقت انتظرت، بلا مبالاة، أن

يجيبها أحدهم، أن يحدث شيءٌ ما. فكرت، وهي تغرف الحساء، لكن هذا ليس شيئًا يمكن لأحد أن يقوله.

رفعت حاجبيها للتناقض- هذا ما كانت تفكر فيه، هذا ما كانت تفعله- تغرف الحساء- شعرت، بمزيد ومزيد من القوة، خارج تلك الدوامة؛ أو كما لو كان قد سقط ظل، ورأت الأشياء على حقيقتها، مسلوبة الألوان. كانت الحجرة (نظرت حولها) شديدة الرثاثة. ما من لمسة جمال في أي مكان. امتنعت عن النظر إلى السيد تانسلي. لم يبد أنهم قد اندمجوا. جلس الجميع منفصلين. وكل جهود الاندماج والتدفق والإبداع توقفت عليها. ومرةً أخرى أحست، كحقيقة بلا منازع، أنه عقم الرجال، لأنها إن لم تفعل هي ذلك فلن يفعله أحد، وهكذا، إذ قامت بهز نفسها هزةً طفيفة كتلك التي يهز بها المرء الساعة عندما تتوقف، بدأ النبض المألوف في الخفقان، مثلما تبدأ الساعة دقاتها- واحد، اثنان، ثلاثة، واحد، اثنان، ثلاثة. وهكذا، وهكذا، كررت، مصغيةً، حاميةً ومشجعةً النبض الذي ما يزال واهيًا مثلما يحمي المرء لهبًا ضعيفا بصحيفة. وهكذا إذن، انتهت، فيما تخاطب نفسها عن وليام بانكس وهي تنحني في صمت تجاهه، إلى أنه- رجل مسكين! بلا زوجة، بلا أطفال وحيدًا في غرف مستأجرة فيما عدا الليلة؛ وفي شفقتها عليه، بدت لها الحياة في تلك اللحظة قوية بما يكفي لتتحملها مرةً أخرى، لقد بدأت كل هذا العمل، كما لو كانت بحارًا يرى الريح في قلق وهي تنفخ شراعه ومع ذلك فبالكاد يريد مواصلة إبحاره، ويفكر كيف، إذا ما غرقت السفينة، سيظل يدور ويدور في دوامات حتى يعثر في النهاية على راحته في قاع البحر.

قالت لوليام بانكس، "هل عثرت على خطاباتك؟ لقد طلبت منهم أن يضعوها لك في الصالة؟"

راقبتها لِيلي بريسكو وهي تنجرف في تلك الأرض غير المأهولة حيث من المستحيل أن تتبع مَن يسلكون فيها، ومع ذلك فمسيرهم يصيب مَن يراقبونهم بقشعريرة، ذلك أنهم يحاولون طوال الوقت أن يتبعوهم على الأقل بعيونهم مثلما يتابع المرء سفينة تتلاشى إلى أن تختفي الأشرعة أسفل الأفق.

فكرت لِيلي، كم تبدو عجوزًا، كم تبدو منهكة، وكم تبدو شاردة. ثم عندما التفتت نحو وليام بانكس، مبتسمةً، بدا كما لو كانت السفينة قد انعطفت والشمس تضرب أشرعتها من جديد، وفكرت لِيلي ببعض السرور لأنها كانت تشعر بالارتياح، لماذا تشفق عليه؟ لأن ذلك هو الانطباع الذي قدمته، عندما أخبرته أن خطاباته في الصالة. وبدا كأنها تقول، مسكين وليام بانكس، كما لو كان قد أصبح شغلها الشاغل نوعًا ما هو الإشفاق على الناس، والحياة داخلها، وقرارها بأن تعيش من جديد، قد استثارته الشفقة. فكرت ليلي، إن ذلك لم يكن حقيقيًّا؛ بل كان أحد أحكامها السيئة تلك التي بدت فطرية وتنبع من بعض احتياجاتها الخاصة بأكثر من كونها نابعة من احتياجات الآخرين. قالت لِيلي لنفسها، إنه ليس في موقف يدعو لأقل درجة من الشفقة. فلديه عمله. تذكرت، فجأةً كما لو كانت قد عثرت على كنز، أن لديها هي أيضًا عملها. وفي ومضة خاطفة رأت لوحتها، وفكرت، **نعم**، سأجعل الشجرة أبعد إلى المنتصف؛ ثم سأتجنب تلك المساحة الفارغة المروعة. هذا ما سأفعله. ذلك ما كان يحيرني. التقطت بيدها الملاحة ثم

وضعتها مرةً أخرى فوق نقش زهرة في مفرش المائدة، لتذكر نفسها بأن تنقل الشجرة من مكانها في اللوحة.

قال السيد بانكس، "الغريب في الأمر أن المرء نادرًا ما يحصل من البريد على شيء جدير بالاهتمام، ومع ذلك فالمرء دائما يهتم بخطاباته".

أي هراء متعفن يتحدثون فيه، فكر تشارلز تانسلي، وهو يضع ملعقته بدقة في وسط طبقه، الذي مسحه تمامًا، كما لو أنه، فكرت لِيلي (كان يجلس قبالتها موليًا ظهره للنافذة في منتصف المشهد تمامًا)، قد قرر التأكد من وجباته. كل شيء يتعلق به كان له ذلك الثبات الهزيل، وذلك الكره العاري. لكن مع ذلك، ظلت الحقيقة قائمة، أنه من المستحيل أن تكره أي شخص منهم إذا نظرت إليهم. كانت تحب عينيه؛ كانت عيناه زرقاوين، عميقتين، مخيفتين.

سألت السيدة رمزي السيد تانسلي، "هل تكتب خطابات كثيرة، يا سيد تانسلي؟"، مشفقةً عليه أيضًا، فيما افترضت لِيلي؛ لأن ذلك كان حقيقيًّا بالنسبة للسيدة رمزي- فهي تشفق على الرجال دائمًا كما لو كان ينقصهم شيءٌ ما- لكنها لا تشفق مطلقًا على النساء، كما لو كان لديهن شيءٌ زائد. قال السيد تانسلي، بإيجاز، إنه يكتب إلى والدته؛ وعدا ذلك فهو لا يكتب خطابًا واحدًا في الشهر.

فهو ليس عليه أن يدخل في حديث من ذلك النوع من الهراء العفن الذي يريد الناس منه أن يتحدث فيه. ليس عليه أن يهبط بنفسه إلى ذلك المستوى المتدني بفعل تلك النسوة الحمقاوات. كان يقرأ في حجرته، وها هو

الآن قد هبط إلى الطابق السفلي وتبدو له كل الأشياء سخيفة، مفتعلة، مهلهلة. لماذا يرتدون ملابس رسمية؟ لقد نزل في ملابسه المعتادة. وليست لديه أية ملابس رسمية. "فالمرء نادرًا ما يحصل من البريد على شيء جدير بالاهتمام"- كان ذلك نوع الأمور التي يقولونها دائمًا. يجعلن الرجال يقولون ذلك النوع من الأمور. فكَّر، نعم، كان ذلك حقيقيًّا تمامًا، فهن لا يحصلن أبدًا على أي شيء جدير بالحصول عليه من نهاية عام إلى نهاية آخر. لا يفعلن سوى الكلام، الكلام، الكلام، الأكل، الأكل، الأكل. هي غلطة النساء. فالنساء يجعلن الحضارة مستحيلة "بسحرهن" ذاك كله، وحماقتهن كلها.

قال، وهو يؤكد ذاته، "لا ذهاب إلى الفنار غدًا، يا سيدة رمزي". كان يحبها؛ كان معجبًا بها؛ ولا يزال يفكر في الرجل القابع في حفرة مواسير الصرف الصحي وهو يتطلع نحوها؛ لكنه شعر بضرورة أن يؤكد ذاته.

فكرت لِيلي بريسكو، لقد كان حقيقيًّا، على الرغم من عينيه، لكن عندئذٍ فلتنظر إلى أنفه، انظر إلى يديه، إنه أكثر مخلوق يفتقر للوسامة التقته في حياتها. فلماذا إذن تهتم بما يقوله؟ النساء لا يتقنَّ الكتابة، النساء لا يتقنَّ الرسم- وما أهمية أن يخرج هذا الكلام منه، طالما من الواضح أنه لا يعتقد ذلك حقيقةً بل يقوله لسببٍ ما مساعد له، ويبقى السؤال لماذا قال ذلك؟ لماذا تنحني بكل جسدها، مثلما تنحني أعواد الذرة في وجه الريح، ثم تنصب قامتها من جديد من هذه الحقارة بمجهود كبير بل بالأحرى مؤلم؟ عليها أن تراجع الأمور مرةً أخرى. هناك رسم لغصن على مفرش المائدة؛ وهناك لوحتي؛ لابد أن أنقل الشجرة إلى المنتصف؛ ذلك ما يهم- لا شيء

آخر. سألت نفسها، ألا يمكنها أن تسرع في ذلك، وألا تفقد أعصابها، وألا تجادل؛ وإذا أرادت النيل منه فلتفعل ذلك بالسخرية منه.

قالت، "أوه، سيد تانسلي، خذني معك إلى الفنار. سأحب ذلك جدًّا".

كان بوسعه أن يدرك أنها تكذب. كانت تقول ما لا تعنيه لتضايقه، لسببٍ ما. كانت تسخر منه. كان يرتدي سرواله الصوفي القديم. لم يكن يملك سواه. شعر بالقسوة والعزلة والوحدة. كان يعلم أنها تحاول أن تغيظه لسببٍ ما؛ فهي لا تريد الذهاب إلى الفنار معه؛ كانت تحتقره: كذلك فعلت برو رمزي؛ كذلك فعلوا جميعًا. لكنه لن يدع النساء يجعلن منه مغفلًا. لذلك استدار بتأن في مقعده وتطلع خارج النافذة وقال، بوقاحة شديدة، وجسده كله يرتعش، إن الأمر سيكون شاقًّا عليها للغاية غدًا. فستمرض.

ضايقه أنها جعلته يتكلم بهذه الطريقة، فيما السيدة رمزي تصغي له. فكر، لو أنه فقط استطاع أن يكون بمفرده في حجرته يعمل، وسط كتبه. هناك فقط يشعر براحته. وهو لم يستدن في حياته بنسًا واحدًا؛ ولم يكلف والده بنسًا واحدًا منذ بلغ الخامسة عشر من عمره؛ بل كان يساعد أسرته من مدخراته، وكان ينفق على تعليم شقيقته. مع ذلك، تمنى لو عرف كيف يرد على الآنسة بريسكو الرد المناسب؛ تمنى لو لم يرتعش جسده كله بهذه الطريقة. "ستمرضين". تمنى لو استطاع التفكير في شيء يقوله للسيدة رمزي، شيء يعبر لها عن أنه ليس شخصًا قليل الأدب بالمرة. هذا ما فكروا فيه جميعًا. التفت إليها. لكن السيدة رمزي كانت تتحدث مع وليام بانكس عن أناس لم يسمع عنهم من قبل.

قالت بإيجاز، "نعم، خذيها من هنا"، متوقفة عما كانت تقوله لوليام بانكس لتتحدث مع الخادمة. "لابد أن ذلك مضى عليه خمسة عشر عامًا- لا، عشرون عامًا- تلك كانت آخر مرة رأيتها فيها"، كانت تقول ذلك، وهي تستدير نحوه مرةً أخرى كما لو كانت لا تستطيع أن تفقد لحظة من حديثهم، لأنها كانت مستغرقة فيما يقولونه. فقد سمعها تقول ذلك بالفعل تلك الأمسية! وهل كان كاري لا يزال يقطن في مارلو، وهل كل شيء ما يزال كما كان؟ أوه، بوسعها أن تتذكر ذلك كأنه بالأمس- على النهر، تشعر به كأنه كان بالأمس- الذهاب للنهر، والشعور بالبرد الشديد. لكن ماذا لو أن آل مانينج وضعوا خطة يجب أن يلتزموا بتنفيذها. إنها لم تنس أبدًا هربرت وهو يقتل دبورًا بملعقة الشاي على ضفة النهر! ومع ذلك ظل الدبور على قيد الحياة، استغرقت السيدة رمزي، منسلةً مثل شبح بين المقاعد والموائد في حجرة المعيشة تلك على ضفاف نهر التيمز حيث كان الجو باردًا جدًّا جدًّا منذ عشرين عاما؛ لكنها الآن تمضي بينهم كأنها شبح؛ وهذا يسحرها، كأن ذلك اليوم بالذات، فيما تغيرت، وأصبحت الآن هادئة جدًّا وجميلة جدًّا، قد ظل هناك، كل تلك السنوات. سألت، هل كتبت كاري له بنفسها؟

قال، "نعم. تقول إنهم يبنون حجرة بلياردو جديدة". لا! لا! ذلك غير وارد بالمرة! يبنون حجرة بلياردو جديدة! بدا لها ذلك مستحيلًا.

أما السيد بانكس فلم ير في ذلك أي شيء شديد الغرابة. إنهم في سعة من العيش الآن. فهل عليه أن يمنح حبه لكاري؟

قالت السيدة رمزي وهي تجفل قليلًا، "أوه" ثم أضافت، "لا"، موضحة

أنها لا تعرف هذه الكاري التي تبني حجرة بلياردو جديدة. لكنها كررت، إن هذا غريب، مما كان مدعاة لسعادة السيد بانكس، أن أولئك الأشخاص ما يزالون على قيد الحياة. لأنه كان من المبالغة أن تظن أنهم كانت لديهم المقدرة على مواصلة الحياة كل تلك السنوات في حين لم تكن هي لتشغل بالها بهم ولم تفكر فيهم إلا مرةً واحدة طول ذلك الوقت. كم كانت حياتها زاخرة بالأحداث، خلال تلك السنوات. ومع ذلك فمن المحتمل أن كاري مانينج لم تهتم بشأنها أو تفكر فيها، أيضًا. كانت الفكرة غريبة وبغيضة.

قال السيد بانكس، "ما أسرع ما يتفرق شمل الناس"، وهو يشعر، على أية حال، ببعض الرضا عندما فكر أنه بالإضافة لكل ما سمعه الليلة فهو يعرف جيدًا كلًّا من آل مانينج وآل رمزي. فكر أنه لم ينجرف مبتعدًا عنهم، وهو يضع ملعقته ويمسح شفتيه الحليقتين بحرص. لكنه ربما كان شخصًا فريدًا، فكَّر، فيما يتعلق بذلك؛ لم يدع نفسه يتورط في الانغلاق على ذاته. لديه أصدقاء في كل المجالات... وهنا اضطرت السيدة رمزي أن تتوقف هنا لتقول للخادمة شيئًا ما عن الاحتفاظ بالطعام ساخنًا. ذلك سبب تفضيله أن يتناول طعامه على انفراد. فكل تلك المقاطعات تضايقه. حسنًا، فكَّر وليام بانكس، محتفظًا بسلوك يتسم بالكياسة الشديدة ولم يفعل أكثر من أنه بسط أصابع يده اليسرى على مفرش المائدة مثل ميكانيكي يختبر أداة مصقولة بشكل جميل وجاهزة للاستخدام في أوقات الفراغ، فكان وجوده في هذا العشاء أشبه بالتضحيات التي يطلبها الأصدقاء من صديقهم. وقد يجرحها لو أنه رفض الحضور. لكن الأمر لم يكن يستحق من وجهة نظره أن يرفض. وإذ نظر إلى يده فكر لو أنه كان الآن يتناول عشاءه بمفرده لكان قد

انتهى منه تقريبًا الآن، وكان سيصبح حرًّا للعودة إلى عمله. فكَّر، نعـم، إنهـا مضيعة مريعة للوقت. كان الأطفال لا يزالون يتقاطرون على المـكان. وكانـت السيدة رمزي تقول، "أتمنى لو أسرع أحدكم إلى حجرة روجر". يـا لتفاهـة كل هذه الأمور، يا لملل كل هذه الأمور، فكَّر، مقارنةً بالشيء الآخر- العمل. ها هو جـالس يقـرع بأصـابعه على مفـرش المائـدة فيمـا كان المفـترض أن يكون- ألقى نظرة طائر خاطفة على عمله. مؤكدٌ أن كل هذا مضيعة شديدة للوقت! ومع ذلك، فكَّر، فهي واحدة من أقدم أصدقائي. وأنا بالمناسبة مخلص لصداقتها. ومع ذلك الآن، ففي هذه اللحظة لم يعن وجودهـا أي شيء البتـة بالنسبة له: جمالها لم يعن أي شيء البتة بالنسبة له؛ جلوسها مع ابنها الصغير في النافذة- لا شيء، لا شيء. تمنى فقط أن يكون بمفرده وأن يتناول ذلـك الكتاب. شعر بعدم الراحة؛ شعر بالخيانة، أن يجلس إلى جوارهـا هكـذا ولا يشعر بشيء نحوها. والحقيقة أنه لم يكن يستمتع بالحيـاة العائليـة. في هـذا النوع من الحالات يسأل المرء نفسه، مـا الذي يعـيش الإنـسان مـن أجلـه؟ يسأل المرء نفسه، لماذا على المرء أن يعاني كل هذه الآلام لبقاء سلالة الجنس البشري؟ أهو أمر مرغوب جدًّا؟ هل نحن جذابون كنوع إنسانى؟ فكـر، بـأن الأمر ليس لهذه الدرجة، وهو يتطلع نحو الأولاد القذرين إلى حدٍّ مـا. كانـت كام، المفضلة لديه، في فراشها، كما افترض. أسئلة حمقاء، أسئلة عبثية، أسئلة لا يمكن للإنسان أن يطرحها أبدًا لو كان مشغولًا. أهذه هي الحياة البشرية؟ أتلك هي الحياة البشرية؟ لم يملك المرء مطلقًا متسعًا من الوقت للتفكير في ذلك. لكن ها هو يسأل نفسه ذلك النوع من الأسئلة، لأن الـسيدة رمـزي كانت تصدر أوامرها للخدم، وأيضًا لأنها صدمته، وهو يفكـر كـم كانـت

السيدة رمزي مندهشة لأن كارى مانينج لا تزال على قيد الحياة، تلك الصداقات، حتى الأفضل فيها، هي مجرد علاقات هشة. فالمرء ينسحب مبتعدًا. ثم يعاود الاقتراب من ذاته. كان يجلس بجوار السيدة رمزي ولا يملك أي شيء في الدنيا يقوله لها.

أخيرًا عادت السيدة رمزي لتلتفت نحوه وتقول له، "أنا آسفة للغاية". شعر بالتصلب والعقم، كزوج من الأحذية ذات الرقبة العالية التي تشبعت بالماء ثم جفت ليصبح من الصعب بمكان أن تدفع قدميك داخلها. مع ذلك فلابد أن يدفع قدميه داخلها. لابد أن يرغم نفسه على الكلام. وإن لم يكن شديد الحرص، فستكتشف خيانته لها؛ ستعرف أنه لا يبالي بها مقدار ذرة، ولن يكون هذا مبعث سرور البتة، كما فكر. لذلك أحنى رأسه تجاهها بكياسة.

قالت، "كيف تمقتون تناول الطعام في هذه الحديقة المثمرة؟" مستفيدةً من طريقتها الاجتماعية، مثلما تفعل عادةً عندما تكون مرتبكة. هكذا، مثلما يحدث عندما يكون هناك نزاع لغات، في اجتماع ما، فيضطر رئيس الجلسة، حفاظًا على الانسجام، أن يقترح أن يتحدث الجميع بالفرنسية. ربما كانت فرنسية رديئة؛ فرنسية قد لا تتضمن المفردات التي تعبر عن أفكار المتحدث؛ ومع ذلك فالحديث بالفرنسية يفرض بعض النظام، وبعض الاتساق. إجابةً عليها بنفس اللغة، قال السيد بانكس، "لا، مطلقًا". وأما السيد تانسلي، الذي لم تكن له دراية بهذه اللغة، حتى الكلمات التي لا تزيد عن مقطع واحد، فساوره الشك في الحال في نفاقهم. وفكر، إن آل رمزي كلهم يتحدثون في التفاهات؛ وانقض على هذه الأمثلة الطازجة ببهجة،

راصدًا ملحوظة يزمع ذات يوم أن يقرأها بصوت مرتفع، لواحد أو اثنين من أصدقائه. هناك، في مجتمع يستطيع الإنسان أن يقول فيه ما يشاء، وأن يصف ساخرًا "الجلوس مع آل رمزي"، وأي هراء يتحدثون فيه. كان يود أن يقول، إن الأمر يستحق أن يقوم به الشخص ذات مرة؛ لكن لا ينبغي تكراره. كان يود أن يقول، إن النساء تصيب المرء بالملل. بالطبع هزم رمزي نفسه بزواجه من امرأة جميلة وإنجابه ثمانية أطفال. الأمر شكّل نفسه في شيءٍ شبيه بذلك، لكن الآن، في هذه اللحظة، حيث يجلس عالقًا هناك وبجواره مقعد فارغ، لا شيء يشكّل نفسه مطلقًا. بل الأمر كله محض قصاصات وشظايا. شعر إلى أقصى حد، حتى من الناحية الجسدية، بعدم الراحة. أراد أن يأتي أي شخص ويمنحه فرصة تأكيد ذاته. أراد ذلك بإلحاح شديد لدرجة أنه تململ بعصبية في مقعده، متطلعًا نحو شخص، ثم نحو آخر، محاولًا أن يقاطع حديثهم، يفتح فمه ويغلقه مرةً أخرى. كانوا يتحدثون عن صناعة صيد السمك. فلماذا لم يسأله أحد عن رأيه؟ فماذا يعرفون هم عن صناعة صيد السمك؟

أدركت لِيلي بريسكو كل هذا. وهي جالسة قبالته، أليس بوسعها أن ترى، كما في صورة أشعة إكس، الرغبة في أن يكون ذا تأثير في ضلوع وعظام فخذ الشاب، متمددةً معتمة في ضباب لحمه- ذلك الضباب الشفيف الذي ألقاه العُرف فوق رغبته الحارقة في مقاطعة الحديث؟ لكن، فكرت، وهي تدير عينيها الصينيتين، وتتذكر إلى أي مدًى يسخر من النساء، "لا يُتقِن الرسم، لا يُتقِن الكتابة"، فلماذا عليّ إذن أن أساعده في تهدئة ذاته؟

هي تعرف، أن ثمة شفرة للسلوك، في مادتها السابعة (ربما) تقول إن السلوك المعتاد من المرأة، أيًّا كان موقعها، في مثل تلك المناسبات، هو أن تهب لنجدة الشاب المخالف لموقفها ليتسنى له تعرية وتهدئة عظام وضلوع زهوه، ورغبته الملحة في تأكيد ذاته؛ لأنه واجبها حقًّا، فكرت، بوازع من عدلها العذري القديم، لمساعدتنا، مفترضةً أن الماسورة قد تنفجر بالنيران. عندئذٍ، فكرت، مؤكدُ أن عليَّ أن أتوقع أن السيد تانسلي سيخرجني منها. ثم فكرت، لكن كيف سيكون ذلك، لو لم يكن أحدنا قد فعل أحد تلك الأشياء؟ وهكذا جلست مكانها مبتسمة.

قالت السيدة رمزي، "أنت لا تخططين للذهاب إلى الفنار، أليس كذلك، يا لِيلي، تذكري مستر لانجلي المسكين؛ لقد طاف العالم اثنتي عشرة مرة، لكنه أخبرني أنه لم يعانِ في حياته مثلما عانى عندما أخذه زوجي إلى هناك". ثم سألت السيد تانسلي، "هل أنت بحار جيد، يا سيد تانسلي؟"

رفع السيد تانسلي مطرقة: لوح بها عاليًا في الهواء؛ لكنه إذ أدرك، عندما هبط بها، أنه لم يستطع أن يضرب تلك الفراشة بآلة كهذه، قال فقط إنه لم يمرض ولا مرة واحدة في حياته. لكن في تلك الجملة الوحيدة تكمن الكثافة، كالبارود، ذلك أن جده كان صياد سمك؛ ووالده كان صيدلانيًّا؛ وأنه شق طريقه بنفسه تمامًا؛ وأنه كان فخورًا بهذا؛ وأنه كان تشارلز تانسلي- وهي حقيقة يبدو أن أحدًا منهم لم يدركها؛ لكن يومًا ما من هذه الأيام سيعرفها الجميع. عبس بوجهه وهو ينظر أمامه مباشرةً. فليس بوسعه تقريبًا إلا أن يرثي لهؤلاء الأشخاص اللطيفين المهذبين، الذين سيطيرون بارتفاع

السماء، مثل بالات الصوف وبراميل التفاح، يومًا ما سيحدث ذلك بفعل البارود الكامن في أعماقه.

"هل ستصطحبني معك، يا سيد تانسلي؟" قالتها ليلي، بسرعة، وبرقة، لأن السيدة رمزي، بالطبع، إذا ما قالت لها، كرد فعل، "إنني أغرق، يا عزيزتي، في بحار من النار. إلا إذا أضفت بعض البلسم على كرب هذه الساعة وقلت شيئًا لطيفًا لذلك الشاب هناك، فإن الحياة ستمر فوق تلك الصخور- إنني أسمع الصرير والدمدمة حقًّا في هذه اللحظة. وأعصابي مشدودة مثل أوتار الكمان. لمسة أخرى وتتمزق"،- عندما قالت السيدة رمزي هذا كله، إذ قالته نظرة عينيها، فمؤكد أن لِيلي بريسكو كان عليها للمرة المائة والخمسين أن تتراجع عن التجربة- ما سيحدث إذا تصرف أحدهم بشكل غير لطيف مع ذلك الشاب هناك- وهكذا كانت لطيفة.

راحت تقيِّم تحول مزاجها بشكل محايد- ذلك أنها تعامله بود الآن- وقد تحرر من غروره، وأخبرها كيف كانوا يلقون به من القارب عندما كان طفلًا رضيعًا؛ وكيف اعتاد والده أن يلتقطه من خارج القارب بصنارة الصيد؛ وأن ذلك ما اضطره لتعلم السباحة. قال إن أحد أعمامه كان يبقي على الضوء على صخرة أو أخرى خارج الشاطئ الاسكتلندي. وقد كان بصحبته ذات مرة أثناء هبوب عاصفة. قيل هذا الكلام بصوت مرتفع لحظة توقف فيها الجميع عن الكلام. اضطروا إلى الإصغاء لما يقوله عن أنه كان بصحبة عمه في الفنار أثناء هبوب عاصفة. آه، فكرت لِيلي بريسكو، عندما أخذ الحوار مجراه إلى مسار مبشر بالنجاح، وشعرت بامتنان السيدة رمزي لها (لأن السيدة رمزي

نفسها أصبحت الآن حرة للحظات في أن تتحـدث هي أيـضًا)، فكـرت، آه، لكن ما الذي حصلت عليه أنا مقابل ذلك؟ فهي لم تكن مخلصة معي.

قامت بالحيلة المعتادة- أن تكون لطيفة. فهي لن تعرفه أبدًا. وهـو لـن يعرفها أبدًا. فكرت، إن العلاقات الإنسانية كلها تشبه ذلك، والأسوأ (إن لـم يكن الأمر كذلك بالنسبة للسيد بـانكس) هي العلاقـات بـين الرجـل والمرأة. فكرت بأن هذه العلاقات تفتقر بصورة محتومـة للإخـلاص لأقـصى حد. عندئذٍ التقطت عيناها الملّاحة، التي وضعتها هناك لتذكرها، وتـذكرت أن عليها في الصباح التالي أن تنقل الشجرة إلى منتصف اللوحة، وارتفعـت معنوياتها جدًّا لدى فكرة الرسم غدًا حتى أنها ضحكت بصوت مرتفـع على ما كان السيد تانسلي يقوله. فليتحدث طوال الليل إذا شاء.

سألت، "لكن كم من الوقت يتركون الناس في الفنار؟". أخبرها. كانت لديه معلومات مدهشة. ولأنه كان ممتنًّا، ولأنـه أحبهـا، ولأنـه بـدأ يـستمتع بوجوده بينهم، في تلك اللحظة، فكرت السيدة رمزي أن بوسعها أن تعود إلى أرض الأحلام، ذلك المكان غير الحقيقي لكن الساحر، قاعـة الاسـتقبال في منزل آل مانينج في مارلو منذ عشرين عامًا، حين كان المرء يتحرك بحرية بلا عجلة أو قلق، فلم يكن هناك مستقبل يقلق بشأنه. لقد عرفت ما حـدث لهم، وما حدث لها. كان الأمر بمثابة إعادة قراءة كتاب ممتع مرةً أخرى، لأنها على دراية بنهاية القصة، فقـد حـدثت منـذ عـشرين عامًـا، والحيـاة، الـتي انطلقت في شلالات حتى من مائدة حجرة الطعام هـذه، والـسماء وحـدها تعلم من أين، قد اختتمت هناك، واستقرت، كبحـيرة، بـصورة شـفافة بـين

ضفتيها. قال إنهم قد بنَوا حجرة بلياردو- أهذا ممكن؟ هل سيستمر وليام في الحكي عن آل مانينج؟ أرادته أن يفعل. لكن، لا- لسببٍ ما لم يعد في الحالة المزاجية المواتية. لقد حاولت. لكنه لم يستجب لها. ولم تستطع أن ترغمه. فشعرت بالإحباط.

قالت، وهي تتنهد، "الأولاد يبعثون على الخزي". قال شيئًا ما عن دقة المواعيد باعتبارها إحدى الفضائل الثانوية التي لا نكتسبها إلا في وقت متأخر من العمر.

قالت السيدة رمزي فقط لملء الفراغ، "هذا إذا اكتسبناها أساسًا"، وهي تفكر إلى أي مدًى تغير وليام الأعزب العجوز. واعيةً بمعاناته ممن خانوه، واعيةً برغبتها في أن يتحدث في شيء أكثر حميمية، لكنه- وقد أصبح الآن خارج الحالة المزاجية اللائقة- أحس بسماجة الحياة تنهال عليه، وهو يجلس هناك، ينتظر. أربما يقول الآخرون شيئًا مسليًا؟ ماذا يقولون؟

إن موسم الصيد كان سيئًا؛ إن الرجال يهاجرون. كانوا يتحدثون عن الأجور والبطالة. كان الشاب تشارلز تانسلي يلعن الحكومة. ووليام بانكس، معتقدًا أنه لمبعثٌ للراحة أن يمسك بخيط من الحديث من هذا النوع عندما تكون الحياة الخاصة سمجة، سمعه يقول شيئًا ما عن "واحدة من أكبر الفضائح التي ارتكبتها الحكومة الحالية". كانت لِيلي تصغي؛ والسيدة رمزي تصغي؛ كانوا جميعهم يصغون. لكنهم بالفعل يشعرون بالملل، وشعرت لِيلي أن ثمة شيئًا ما ينقصهم، وشعر السيد بانكس أن ثمة شيئًا ما ينقصهم. وإذ سحبت السيدة رمزي شالها حول كتفها شعرت أن ثمة شيئًا ما ينقصهم.

انحنوا جميعًا لينصتوا وهم يفكـرون، "أدعـو الله ألا ينكـشف مـا يـدور في ذهني"، لأن كلًّا منهم فكر، "الآخرون يشعرون بهذا. إنهـم يتمـيزون غـضبًا وسخطًا فيما يتعلق بما تفعله الحكومة مع صيادي السمك. ومع ذلك، فأنا لا أشعر بشيء مطلقًا"، فكر السيد بانكس، وهو ينظـر نحـو الـسيد تانـسلي، لكن ربما، هذا هو الرجل المنتظر. فالمرء دائمًا ينتظـر الرجـل إيـاه. وهنـاك دائمًا فرصة. ففي أية لحظة قد يظهر القائد؛ الرجل العبقري، في السياسة كما في أي شيء آخر. ومن المحتمل أنه سيكون بالنسبة لنا غير مقبول نهائيًّا نحن الرجعيين العجائز، فكر السيد بانكس، وهو يبذل أقصى ما لديه لالتمـاس الأعذار، لأنه كان يعرف من خلال بعـض الإحـساس الجـسماني الغريـب، كأنما أعصابه تنفر داخل عموده الفقري، أنه غيور، جزئيًّا مـن أجـل ذاتـه، وجزئيًّا والأكثر ترجيحا من أجل عمله، ووجهه نظره، وعِلمه؛ وبناءً على ذلك فلم يكن منفتح الذهن بشكل كامل أو منـصفًا على الإطـلاق، لأنـه بـدا أن السيد تانسلي يوشك أن يقول، لقد أضعتم حياتكم. كلكم جميعًا على خطأ. أيها المحافظون العجائز البائسون، لقد تجاوزكم الزمن بصورة ميئوس منهـا. بد أنه أكثر ثقة مما ينبغي؛ هذا الشاب؛ وسلوكه سيء. لكن السيد بـانكس منع نفسه من إبداء الملاحظة، كانت لديه الشجاعة؛ كانت لديه المقـدرة؛ كان يعلم حقائق الأمور علمًا تامًّا. ربما، فكر السيد بـانكس، إذ شـتم تانـسلي الحكومة، فهناك قدر كبير من الحقيقة فيما يقوله.

قال، "قل لي الآن...". وهكذا راحوا يتناقشون حول موضوعات سياسـية، ونظرت لِيلي نحو ورقة الـشجرة المرسـومة على مفـرش المائـدة؛ وإذ تركـت، السيدة رمزي المناقشة تمامًا بين يدي الرجلين، تساءلت لماذا اعتراها الملـل

الشديد من هذا الكلام، وتمنت، وهي تنظر إلى زوجها في أقصى الطرف الآخر من المائدة، أن يقول شيئًا. قالت لنفسها، كلمة واحدة فقط. لأنه لو قال شيئًا، فسيصنع كل الفارق. فهو يدخل مباشرةً في لُب الموضوع. وهو يهتم بصيادي السمك وأجورهم. ولا يستطيع النوم من التفكير فيهم. كان الأمر سيختلف كلية لو تكلم؛ أدعو الله أن لا تتصور أن اهتمامي بك ضعيف، لأني حقيقةً مهتمة كثيرًا، لكنك لا تدرك ذلك. عندئذٍ، إذ أدركت أنها تنتظره أن يتكلم لأنها معجبة به كثيرًا، شعرت كما لو كان شخصٌ ما قد أثنى على زوجها أمامها وأثنى على زواجهما، وتوهجت كلها بالانفعال دون أن تلاحظ أنها هي نفسها مَن أثنت عليه. نظرت إليه معتقدةً أنها ستجد ذلك في وجهه؛ أن يبدو مهيبًا... لكنها لم تجد ذَرة من ذلك! كان يلوي وجهه لأعلى، كان يعبس ويتجهم، ويحمر وجهه من الغضب. تساءلت، عن ماذا كل هذا بحق الأرض؟ ماذا يمكن أن يكون الموضوع؟ لم يكن سوى أن ذلك العجوز المسكين أوجستوس قد طلب طبقًا آخر من الحساء- هذا كل ما في الأمر. شيء لا يصدق، شيء بشع (لهذا أشار إليها عبر المائدة) أن أوجستوس سيبدأ في تناول حسائه من جديد. كان يشمئز من الأشخاص الذين يأكلون بعدما ينتهي هو من طعامه. رأت غضبه يتطاير من عينيه كقطيع من الكلاب، ومن جبينه، وأدركت أنه في خلال لحظة سينفجر شيءٌ ما عنيف، وعندئذٍ- حمدًا لله! رأته يسيطر على نفسه ويمسك بالمكابح، وبدا جسمه كله يقذف شررًا لكن بلا كلمات. جلس في مكانه عابسًا. لم يقل شيئًا، كان يريدها أن تلاحظ، منتظرًا منها أن تمنحه توكيدًا لما يفعله! لكن على الرغم من كل هذا لماذا ليس من حق المسكين أوجستوس أن يطلب طبق حساء آخر؟ لمس ذراع

إلين لمسة طفيفة وقال:

"إلين، من فضلك، طبق حساء آخر"، وعندئذٍ عبس السيد رمزي هكذا.

وتساءلت السيدة رمزي، ولم لا؟ فمن المؤكد أنهم يمكنهم السماح لأوجستوس أن يحصل على الحساء إذا أراد. تجهم السيد رمزي لها، لأنه يكره الأشخاص الذين يأكلون بانغماس. فهو يكره كل شيء يتواصل لساعات هكذا. لكنه سيطر على نفسه، وكان السيد رمزي يريدها أن تلاحظ ذلك، مشمئزًا من المنظر. تساءلت السيدة رمزي، لكن لماذا يكشف عن هذا بكل هذا الوضوح (تبادلا النظرات عبر المائدة الطويلة وهما يرسلان لبعضهما البعض تلك الأسئلة والإجابات، وكل منهما يعلم تمامًا ما يشعر به الآخر). فكرت السيدة رمزي، إن الجميع قد يرون ذلك. كانت هناك روز تحملق في أبيها، وهناك روجر يحدق في والده، وقد ينفجران في نوبات من الضحك في لحظة، كانت تعرف ذلك، وهكذا قالت دون إبطاء (الحقيقة كان الوقت مناسبا):

"أضيئوا الشموع"، فقفزوا في التو وذهبوا يتلمسون طريقهم نحو البوفيه.

تساءلت السيدة رمزي، لماذا لا يمكنه أبدًا أن يخفي مشاعره؟ وتساءلت عما إذا كان أوجستوس كارمايكل قد لاحظ ذلك. ربما لاحظ؛ وربما لم يلاحظ. لم تستطع أن تمنع نفسها من احترام رباطة جأشه في جلسته هناك، يشرب حساءه. إذا أراد حساءً، يطلب حساء. وسواء سخر منه الناس أو غضبوا فالأمر سيان بالنسبة له. لم يكن يحبها، كانت تعرف ذلك، لكن جزئيًّا لذلك السبب عينه كانت تحترمه، متطلعةً نحوه، وهو يشرب حساءه،

ضخمًا وهادئًا للغاية في هذا الضوء الخافت، شاحًا، ومستغرقًا في التأمل، تساءلت عما يشعر به آنئذٍ، ولماذا هو دائمًا راضٍ ومهيب؛ وفكرت كم كان مخلصًا ومتفانيًا مع أندرو، وكيف كان يدخله إلى حجرته، وكان أندرو يقول، "إنني أعرض عليه أشياءً". ويتمدد طول اليوم هناك على المرج في سكينة ممعنًا في التفكير في أشعاره، إلى أن يذكّر المرء بقطة تراقب الطيور، ثم ينشب يديه معًا عندما يعثر على الكلمة الضالة التي يبحث عنها، ويقول زوجها عنه، "أوجستوس العجوز المسكين- إنه شاعر حقيقي"، وذلك يعد بمثابة إطراء شديد من زوجها.

والآن ها هي ثماني شموع منتصبة فوق المائدة، وبعد الانحناءة الأولى انتصب اللهب في وضع مستقيم وسحب معه إلى مجال الرؤية المائدة الكبيرة كلها، وفي منتصفها طبق فاكهة باللون الأصفر والأرجواني. تساءلت السيدة رمزي عما فعلته في هذا الصدد، لأن ترتيب روز للعنب والكمثرى، والثمار المنزلية المخططة باللون الوردى، والموز، جعلها تفكر في تذكارات الصيد التي أتوا بها من قاع البحر، وفي مأدبة نبتون، وفي عنقود العنب بأوراقه المتدلية فوق كتف باخوس (في لوحةٍ ما)، بين جلود الفهد والمشاعل المتواثبة باللون الأحمر والذهبي... هكذا إذ غمرها فجأةً الضوء الذي بدا مستحوذًا على حجم كبير وعمق هائل، فكرت أنه أشبه بعالم يمكن للمرء فيه أن يحمل أغراضه ويتسلق التلال، ويهبط إلى الوديان، ومما أسعدها (لأنها استحضرت هذه المشاهد في انسجام لحظة بلحظة) أنها رأت أوجستوس يمتع عينيه جدًّا بنفس طبق الفاكهة، وينغمس فيه، ويلتقط ثمرة من هنا، وثمرة من هناك، ويعود، بعد الوليمة، إلى مكمنه. كانت تلك طريقته في النظر للأشياء، مختلفة

عن نظرتها. لكن نظرتهما معًا وحدتهما.

الآن كانت كل الشموع مضاءة، وبدت الوجوه على جانبي المائدة أقرب بفعل ضوء الشموع، وهادئة، كأنهم ليسوا وقت الشفق، في حفل حول مائدة، لأن الليل الآن أسدل ستائره على النوافذ الزجاجية، التى كانت، بعيدًا عن تقديم أي منظر دقيق من العالم الخارجى، متماوجةً بشكل غريب إلى حد أن هنا، داخل الحجرة، بدا أرضًا نظيفة وجافة؛ أما هناك، في الخارج، فهو انعكاس تتماوج فيه الأشياء وتتلاشى، بشكل سائل.

حدث تغييرٌ ما للجميع في الحال، كأن هذا قد حدث بالفعل، وكأنهم أصبحوا جميعًا مدركين بأنهم مجتمعون معًا في حفل في مغارة، أو على جزيرة؛ ولديهم موقف مشترك ضد تلك السيولة بالخارج. أحست السيدة رمزي، التي اعتراها القلق، وهي في انتظار قدوم بول ومينتا، وتشعر بعدم قدرتها على السيطرة على الأمور، بأن قلقها قد تحول الآن إلى توقع. لأنهم الآن لا بد أن يصلوا، ولِيلي بريسكو تحاول تحليل سبب الابتهاج المفاجئ، مقارنةً بتلك اللحظة في ملعب التنس على المرج، حين تلاشت فجأةً الصلابة، وفصلت بينهم مساحات شاسعة؛ والآن ها هو نفس التأثير قد حدث بفعل الشموع الكثيرة في الحجرة شحيحة الأثاث، والنوافذ الخالية من الستائر، ونظرات الوجوه الشاحبة الشبيهة بالأقنعة في ضوء الشموع. انزاح عنهم عبءٌ ما، وأحست أن أي شيء قد يحدث. لابد أن يصلوا الآن، هكذا فكرت السيدة رمزي، وهي تنظر نحو الباب، وفي تلك اللحظة، دخل معًا مينتا دويل، وبول رايلي، وخادمة تحمل طبقًا كبيرا بيديها. قالت مينتا، وهم يشقون طريقهم إلى

مقاعدهم حول المائدة، إنهم تأخروا تأخيرًا شديدًا، تأخيرًا مرعبًا.

قالت مينتا بصوت يحمل نبرة رثاء، "لقد فقدت بروشي- بروش جدتي"، وعيناها البنيتان الواسعتان مشتتان، فتنظر لأسفل، وتنظر لأعلى، ثم جلست بجوار السيد رمزي، مما رفع عنده روح الفروسية فراح يُسرِّي عنها.

سألها، كيف تكون ساذجة إلى هذه الدرجة، حتى تتسلق الصخور بمجوهراتها؟

كانت بالمناسبة تخشاه- كان ماهرًا بشكل مخيف، وفي أول ليلة اضطرت فيها للجلوس بجواره، وتحدث عن جورج إليوت، كانت بالفعل مرعوبة، لأنها تركت المجلد الثالث من رواية "ميدلمارش"[*] في القطار ولم يتسن لها أن تعرف نهاية الأحداث مطلقًا؛ لكنها بعد ذلك سايرت الموقف بشكل مثالي، وجعلت من نفسها جاهلة حتى أكثر مما كانت جاهلة بالفعل، لأنه كان يحب أن يقول لها إنها حمقاء. وهكذا ففي هذه الليلة، راح يضحك عليها مباشرةً، لكنها لم تكن مرعوبة. بالإضافة لذلك، فقد دخلت مباشرةً الحجرة حيث حدثت المعجزة؛ التفت بضبابها الذهبي. أحيانًا كانت تلتف به، وأحيانًا لا. ولم تعرف أبدًا لماذا يأتي هذا الضباب أو لماذا يرحل، أو ما إذا كان يواتيها إلى أن تدخل الحجرة، ثم أدركت ذلك فورًا من طريقة نظر بعض الرجال إليها. نعم، كان يواتيها الليلة، بشكل هائل، أدركت ذلك من طريقة السيد رمزي وهو يقول لها ألا تكون حمقاء. جلست بجواره، مبتسمة.

---

[*] ميدلمارش ***Middlemarch***: أهم الأعمال الروائية للبريطانية جورج إليوت، بل تعتبر من أهم الأعمال في التاريخ الروائي عامةً.

فكرت السيدة رمزي، لابد أن ذلك قد حدث بالفعل إذن؛ لقد تمت خطبتهما. ولوهلة شعرت بما لم تتوقع أبدًا الشعور به مرةً أخرى- الغيرة. لأنه هو، زوجها، شعر أيضًا بذلك- بتوهج مينتا؛ إنه يحب تلك الفتيات، الفتيات الذهبيات المتوردات، ففيهن شيءٌ يطير، شيءٌ متوحش ومتهور قليلًا، الفتيات اللاتى "لا يُزِلن الشعر من أجسادهن" اللاتى لسن مثل المسكينة لِيلي بريسكو التي قال عنها "شديدة الضآلة". كانت هناك صفة معينة لم تكن هي نفسها تمتلكها، بريقٌ ما ، ثراءٌ ما، تلك الصفة تجذبه، تسعده، تدفعه لتفضيل فتيات مثل مينتا. ربما يحلقن له شعره، أو يضفرن له سلاسل لساعة الجيب، أو يقاطعنه أثناء عمله، ويهللن له (سمعتهن بنفسها)، "هيا تعال، يا سيد رمزي، إنه دورنا أن نهزمهم الآن"، ويخرج ليلعب التنس معهن.

لكنها في الحقيقة لم تكن غيورة، فقط، بين حين وآخر، عندما تتطلع إلى نفسها في المرآة، بقليل من السخط لأن العمر تقدم بها، ربما، من جراء أخطائها. (فاتورة الصوبا وباقي كل تلك الأمور). كانت ممتنة لهن لسخريتهن منه. ("كم غليونًا دخنت اليوم، يا سيد رمزي؟" وأشياء من هذا القبيل)، إلى أن بدا شابًا؛ رجل شديد الجاذبية لدى النساء، لا ترهقه الأعباء، لا تثقل كاهله عظمة عمله وآلام البشرية وشهرته أو فشله، لكن مرةً أخرى كما عرفته لأول مرة، هزيلًا لكنه أنيق؛ تذكرته، ويمد يده ليساعدها على الخروج من القارب؛ بطرق مبهجة، مثل تلك، (نظرت إليه، وبدا لدهشتها شابًا، يغيظ مينتا). بالنسبة لها- قالت "ضعيه هناك"، مساعدةً الفتاة السويسرية لتجلس برقة وأمامها القدر البني الضخم وبه "البيف أون

دوب"- هي شخصيًّا، كانت تحب أصدقاءها المغفلين. المفروض أن يجلس بول بجوارها. واحتفظت له بمكان. حقيقةً، كانت تفكر أحيانًا أنها تحب أصدقاءها المغفلين أكثر من غيرهم. فهم لا يضايقون أحدًا بخطب مسهبة. ومع ذلك، فكم يفتقدون ذلك النوع من الرجال الأذكياء! كم أصبحوا صاروا ذابلين بدرجة كبيرة. كان هناك شيءٌ ما، فكرت في ذلك إذ جلس، شيءٌ شديد السحر في بول. كانت تبهجها سلوكياته، وأنفه الحاد وعيناه الزرقاوان اللامعتان. وكان شديد المراعاة للآخرين. فهل سيخبرها- الآن إذ يتحدث الجميع- عما حدث؟

قال، وهو يجلس بجوارها، "لقد عدنا أدراجنا للبحث عن بروش مينتا". "عدنا"- كانت...نا كافية. أدركت من المجهود، ومن ارتفاع نبرة صوته ليتغلب على كلمة صعبة كان ينطقها للمرة الأولى "... نا". "نحن فعلنا هذا، نحن فعلنا ذلك". فكرت أنهما سيظلان يقولان ذلك طيلة حياتهما، وانبعثت من الطبق البني الكبير رائحة زيتون وزيت وعصير لاذعة عندما رفعت مارثا غطاء الطبق، بقليل من النشاط. لقد استغرقت الطباخة ثلاثة أيام في إعداد هذا الطبق. وعليها أن توليه عناية فائقة، فكرت السيدة رمزي، وهي تغوص في الكتلة اللينة لتختار خصيصًا وبعناية قطعة طرية من أجل وليام بانكس. وحدقت في الطبق، بجدرانه اللامعة واختلاط الطعم الشهي للزعتر البني باللحم الأصفر وأعشاب البحر والنبيذ، وفكرت، سيكون هذا احتفالًا بالمناسبة- تصاعد داخلها شعور غريب، شعور طائش ولطيف في آن واحد، شعور مَن يحتفل بمهرجان، كما لو كان انفعالان مختلفان يُستدعيان داخلها، أحدهما عميق- فما الذي يمكن أن يكون أكثر جدية

من حب الرجل للمرأة، ذلك الشيء الأكثر تطلبًا، الأكثر تأثيرًا، الذي يحمل في ريعانه بذور نهايته؛ وفي نفس الوقت هؤلاء العشاق، هؤلاء الأشخاص الذين يدخلون الوهم بعيون لامعة، لابد أن يراوغوه بمكر، مزدانين بأكاليل الغار.

قال السيد بانكس، وهو يضع سكينه جانبًا لوهلة، "إنه حفل حقيقي". كان قد تناول طعامه باهتمام. كان طعامًا وافرًا؛ سهل المضغ. جيد الطهي. سألها، كيف استطاعت صنع هذه الأنواع في أعماق الريف؟ كانت امرأة رائعة. عاد إليه كل حبه، كل إحساسه بالإحترام والتقدير؛ وأدركت هي ذلك.

قالت السيدة رمزي، وفي صوتها رنين سعادة كبيرة، "إنها وصفة فرنسية ورثتها عن جدتي". بالطبع كان طعامًا فرنسيًّا. فما يقدمه المطبخ الإنجليزي هو بشاعة (وافقوا على ذلك). تقوم هذه الطبخة على سلق أوراق الكرنب في الماء. ثم تحميص اللحم حتى يصبح كالجلد. ثم تقطيع القشور الشهية للخضروات. قال السيد بانكس، "إنها طبخة تحتوي على كل فوائد النباتات". قالت السيدة رمزي، وفضلات الخضار. ويمكن لعائلة فرنسية كاملة أن تعيش على ما يرميه طباخ إنجليزي. وإذ حفزها إحساسها بأن مشاعر وليام نحوها قد عادت إلى طبيعتها، وأن كل الأمور قد أصبحت على ما يرام مرةً أخرى، وأن شكوكها وقد انتهت، وأنها الآن حرة في ممارسة الاحتفال والتهكم، ضحكت، وأومأت، إلى أن فكرت ليلي كم كانت طفولية، كم كانت عبثية، وهي تجلس هناك وقد تفتح فيها مرةً أخرى كل جمالها، تتكلم عن قشور النباتات. كان ثمة شيء مرعب فيها. كانت شخصية

لا تقاوَم. فكرت ليلي أنها في نهاية المطاف تصل دائمًا إلى غرضها بأسلوبها الخاص. والآن نجحت في ذلك- فللمرء أن يظن أن بول ومينتا قد خُطبا أحدهما للآخر. والسيد بانكس يتناول طعامه هنا. لعلها تلت تعويذة عليهم جميعًا، بالتمني، ببساطة شديدة، بمباشرة شديدة، وقارنت لِيلي تلك الوفرة بفقر روحها، وافترضت أنه إلى حدٍّ ما ذلك الاعتقاد (لأن وجهها كله كان مضيئًا تماما- دون أن تبدو شابة في العمر، كانت تبدو مشعة) في هذا الشيء الغريب، هذا الشيء المرعب، هو الذي جعل بول رايلي، وهو يجلس بجوارها، في حالة نفسية طيبة، ومع ذلك يبدو شاردًا، غارقًا في ذاته، صامتًا. شعرت ليلي أن السيدة رمزي، وهي تتكلم عن قشور النباتات قد أعلت من قدر ذلك، عبدت ذلك، وهي تضم يديها معًا لتدفئهما، لتحمي ذلك، ومع ذلك، نجحت في ذلك كله، فشعرت ليلي، أن ضحكتها تقود ضحاياها، بشكل أو آخر، إلى المذبح. والآن ها هو يتسرب نحوها هي أيضًا- انفعال الحب، وذبذبته. فكم شعرت بنفسها غامضةً وهي بجوار بول! هو، بتورده، وتوهجه؛ وهي، بتباعدها، وتهكمها؛ هو، محكومٌ بالمغامرة؛ وهي، راسية بالشاطئ؛ هو، منطلق، بلا حذر؛ وهي وحيدة، غادرت المكان- ومستعدةً لتوسل المشاركة، لو كانت هناك أية مصيبة، في مصيبته، قالت بخجل:

"متى فقدت مينتا بروشها؟"

ابتسم الابتسامة الأشد فتنة، محتجبًا بالذاكرة، مشوبًا بالأحلام. هز رأسه، وقال، "على الشاطئ".

قال، "سأذهب للبحث عنه، سأستيقظ مبكرا". كان هذا سرًّا يخفيه عن

مينتا، فخفض صوته، وأدار عينيه إلى حيث تجلس، تضحك، بجوار السيد رمزي.

أرادت لِيلي أن تسفر بعنف وهياج عن رغبتها في مساعدته، متخيلةً كيف ستكون الشخص المناسب في وقت الفجر على الشاطئ الذي ينقض على البروش وهو نصف مختبئ تحت صخرةٍ ما، وبهذا تضم نفسها إلى قائمة البحارة والمغامرين. لكن ماذا كانت إجابته على عرضها؟ لقد قالت بالفعل بانفعال وعاطفة نادرًا ما تظهرها، "دعني أذهب معك"، وضحك. كان يعنى الموافقة أم الرفض- أم ربما الاثنين. لكن هذا لم يكن ما يعنيه- بل كانت الضحكة المكتومة التي خرجت منه، كأنه يقول، فلتُلق بنفسك من فوق أي جرف يعجبك، فالأمر لا يعنيني. أشعل في وجنتها نار الحب، ورعبه، وقسوته، وتجرده من الضمير. لقد سفعها، وإذ تطلعت لِيلي إلى مينتا، التي بدت ساحرةً للسيد رمزي على طرف المائدة من الجهة الأخرى، أحجمت عن كشف مخالبها، وتظاهرت بالشكر. لأنها على أي حال، قالت لنفسها، وهي تلتقط بعينيها منظر الملاحة على النموذج، الحمد لله على أنها لا ترغب في الزواج؛ ولا ترغب في تحمل انحطاطه. كانت محمية من تلك الميوعة. وعليها أن تنقل الشجرة إلى المنتصف أكثر.

هكذا كان تعقيد الأمور. فما حدث لها، خاصة الإقامة مع آل رمزي، جعلها تشعر بعنف بشيئين متعاكسين في نفس الوقت؛ أولهما، ما تشعر به أنت؛ وثانيهما ما أشعر به أنا؛ ثم يتصارع الشعوران معًا في عقلها، كما الآن. إنه بالغ الروعة، بالغ الإثارة، هذا الحب، الذي أرتعش على حافته، والذي

يجعلني أعرض، على غير عادتي تمامًا، أن أبحث عن بروش على الشاطئ؛ وأيضًا فهي العواطف الإنسانية في أقصى درجات غبائها، وبربريتها، التي تحول شابًّا لطيفًا له وجه يشبه في روعته جوهرة منحوتة (كان جانب وجه بول فاتنًا) إلى شخص متوحش يحمل عتلة (كان يختال تيهًا، كان متغطرسًا) في طريق مايل إند رود. قالت لنفسها، ومع ذلك، فمنذ فجر التاريخ تخرج لنا أغاني الحب، وتتكوم أكاليل الزهور والورود؛ وإذا طرحت السؤال فإن تسعة من كل عشرة أشخاص سيقولون لك إنهم لا يريدون سوى هذا- الحب، فيما النساء، إذ يحكمن على الأمور من خلال تجاربهن الخاصة، فسيشعرن طوال الوقت، ليس هذا ما نريده؛ فلا شيء أكثر مللًا، ولا صبيانية، ولا وحشية من هذا؛ ومع ذلك فهو أيضًا جميل وضروري. سألت، وماذا إذن؟ ماذا إذن؟ وإذ توقعت أن يستمر الآخرون في جدلهم بطريقةٍ ما، كما لو كان في مناقشة مثل هذه يلقى فيها أحدهم بسهمه الصغير الذي سرعان ما يسقط بصورة واضحة ويترك الآخرون يتدبرون أمره. لذلك راحت تصغي من جديد لما يقولونه لربما يلقون أي ضوء على قضية الحب.

قال السيد بانكس، "إذن، فهناك ذلك السائل الذي يسميه الإنجليز قهوة".

قالت السيدة رمزي، "أوه، قهوة!" لكن ذلك كان أكثر من مجرد سؤال (كانت قد انتبهت تمامًا، أدركت لِيلي ذلك، وتكلمت بشكل تأكيدي للغاية) عن الزبدة الحقيقية والحليب الصافي. وإذ تحدثت بدفء وفصاحة، وصفت فساد نظام معامل الألبان الإنجليزية، وبأية حال كان يوزع الحليب على

البيوت، وأوشكت أن تبرهن على كلامها، لأنها استطردت في الموضوع، عندما بدا الجميع حول المائدة، ابتداءً بأندرو في المنتصف، مثل نار تتقافز من كتلة أعشاب إلى أخرى، فانفجر أولادها في الضحك؛ وضحك زوجها؛ كانوا يضحكون عليها، وهي مطوقة بالنار، وأرغمت على إخفاء كبريائها، وتقلل من هجومهم عليها، وتثأر فقط بالتظاهر بالمرح والسخرية من المائدة للسيد بانكس كمثال على ما يعانيه المرء إذا ما هاجم الأحكام المسبقة للشعب الإنجليزي.

مع ذلك، فعن عمد، لأنها أضمرت في ذهنها أن لِيلي، التي ساعدتها في أمورها مع السيد تانسلي، كانت خارج الموضوع، استثنتها من الآخرين؛ وقالت، "على أية حال فلِيلي توافقنى الرأي"، وهكذا جرتها إلى الموضوع، وهي مرتبكة قليلًا، وجافلة قليلًا. (لأنها كانت تفكر في الحب). كانت السيدة رمزي تظن أن كلًّا من لِيلي وتشارلز تانسلي خارج الموضوعات. فكل منهما عانى من حماسة الثنائي الآخر. هو، كان واضحًا، شعر بنفسه تمامًا في دائرة البرودة؛ فلن تنظر امرأة نحوه في وجود بول رايلي في الحجرة. شخص مسكين! ومع ذلك، فلديه أطروحته، سيطرة شخصٍ ما على أمرٍ ما، وبوسعه الانتباه إلى نفسه. أما مع لِيلي فالأمر مختلف. لقد ذوت، تحت وهج مينتا؛ وأصبحت أكثر غموضًا عن ذي قبل، في ثوبها الرمادي البسيط ووجهها الضئيل المجعد وعينيها الصينيتين الضيقتين. كل ما فيها كان شديد الضآلة. وفكرت السيدة رمزي، أنها مع ذلك، مقارنة بمينتا، فهي الوحيدة التي تستنجد بها (لأن لِيلي ستؤكد أنها لم تتحدث عن معامل الألبان بأكثر مما تحدث زوجها عن حذائه ذي الرقبة- كان يمكنه أن يظل يتكلم عن حذائه لساعة كاملة) ومن بين

الاثنتين، فعندما تصل لِيلي للأربعين فستكون أفضل. كان في شخصية لِيلي ثمة خيط من شيءٍ ما؛ وهج من شيءٍ ما، شيءٍ ما خاص بها أحبته حقًّا السيدة رمزي كثيرًا، لكنها تخشى أنه شيء لن يحبه الرجال. لا، إلا إذا كان رجلًا يكبرها بكثير، بشكل واضح، مثل وليام بانكس. لكنه عندئذٍ انتبه لشيءٍ ما، حسنًا، فالسيدة رمزي تظن أحيانًا أنه، منذ وفاة زوجته، كان ربما منتبهًا لها. بالطبع ليس لدرجة القول إنه "واقع في الحب"؛ بل مجرد أحد تلك المشاعر خارج التصنيف التي يوجد منها الكثير. فكرت في نفسها، أوه، لكن كل هذا هراء، لابد أن يتزوج وليام بانكس من لِيلي. فلديهما أشياء كثيرة مشتركة. فلِيلي شديدة الولع بالزهور. وكلاهما منعزل ورصين وأكثر اكتفاءً بذاته. ولابد أن ترتب لهما تمشية طويلة معًا.

بصورة حمقاء، جعلتهما يجلسان أحدهما مقابل الآخر. يمكن إصلاح ذلك غدًا. ولو سيكون الجو صحوًا، فسيخرجون في رحلة خلوية في الهواء الطلق. بدا كل شيء ممكنًا. بدا كل شيء بخير. والآن فقط (فكرت أن هذا لا يمكن أن يستمر، فاصلةً نفسها عن اللحظة الراهنة فيما كان الجميع يتحدثون عن الأحذية ذات الرقبة) الآن فقط وصلت للإحساس بالأمان؛ حلَّقت مثل صقر معلَّق في الهواء؛ مثل علَم يطفو ببعض البهجة التي ملأت شرايين جسدها كلها وبعذوبة، دون ضجة، بل بجلال، لأنها تصاعدت، هكذا فكرت، وهي تتطلع إليهم وهم جميعًا يأكلون، من الزوج إلى الأبناء إلى الأصدقاء؛ وكلهم يتصاعدون في ذلك السكون العميق (كانت تمد يدها إلى وليام بانكس بقطعة أخرى بالغة الصغر، وتحدق في أعماق القدر الخزفي) بدا الآن أنه لا سبب بعينه لأن تبقى هناك كدخان، كبخار يتصاعد عاليًا،

يضمهم ويحويهم معًا في أمـان. لا حاجـة لأي كلام؛ لا شيء يمكـن قـوله. هكذا كان الأمر، يحيطون بعضهم بعضًا. شارك ذلك بعناية، كما أحست، في تقديم قطعة طرية خاصة إلى السيد بـانكس، مـن الخلـود؛ تمامًـا مثلمـا أحست بالفعل إزاء موضوع مختلف قبل ذلـك المـساء؛ فهنـاك تـرابط بـين الأشياء، واستقرار؛ شيء ما، قـصدَته، شيء عـصي على التغيـير، شيء مـشع وبراق (حملقت في النافذة بموجاتها الصغيرة الرقراقة من انعـكاس الأضـواء عليها) في وجه التدفق، والانطلاق، والأشكال الطيفية، مثل أحجار الياقوت؛ وهكذا اعترتها الليلة مرةً أخرى مشاعر أحـست بهـا مـرةً سـابقة اليـوم، بالفعل، مشاعر من الـسلام، ومـن الارتيـاح. فكـرت أنهـا في مثـل تلـك اللحظات، قادرة على تحمل ما يدور حولها من أمور.

طمأنت وليام بانكس، "نعم، هناك الكثير الذي يكفي الجميع".

قالت، "أندرو، أخفض طبقك، وإلا سأسكبه". (كانت وجبة "البيـف أون دوب" احتفالًا حقيقيًا). شعرت، هنا، وهي تضع الملعقة جانبًا، أين يمكنها أن تتحرك أو تبقى ساكنة؛ ويمكنهـا الآن أن تنتظـر (كان هنـاك مـن قـام على خدمة الجميع) وأن تصغي؛ يمكن إذن، مثل الصقر الذي يهـوي فجـأةً مـن موقعه المرتفع، أن تتطاوس وتغرق في الضحك بسهولة، ملقيةً بثقلها كله على ما كان يقوله زوجها على الطرف الآخر من المائدة عن الجذر التربيعي لمائتين وخمس وثلاثين. بدا أن ذلك رقمٌ في ساعة يده.

ما معنى هذا كله؟ حتى اليوم ليس لديها أدنى فكرة. الجذر التربيعي؟ مـا هو الجذر التربيعي؟ كان أولادها يعرفون. مالت عليهم؛ على المكعب والجـذر

التربيعي؛ فهذا ما كانوا يتحدثون عنه في تلك اللحظة؛ عن فولتير ومدام دي ستايل؛ عن شخصية نابليون؛ عن النظام الفرنسى في ملكيـة الأرض؛ عـن اللورد روزبري، عن مذكرات كريفي؛ تركت ذلـك يـدعمها ويـسندها، إنـه نسيج الذكاء الذكوري المثير للإعجاب، الذي يعلو ويهبط، ويعبر هذا الطريق وذاك، مثل العوارض الحديدية التي تربط بين قطع النسيج المتأرجح، مدعمةً للعالم، ولهذا فيمكنها أن تثق فيها ثقة تامة، حتى لـو أغمـضت عينيهـا، أو طرفت بهما لومضة خاطفة، مثل طفل يحدق من نعاسه على وسادته في آلاف الطبقات من أوراق الأشجار. ثم استيقظت. كانت عملية التـشييد لا تـزال مستمرة. كان وليام بانكس يثنى على روايات ويفرلي.

قال إنه يقرأ واحدة منها كل ستة شهور. ولماذا أغضب هذا الأمر تشارلز تانسلي؟ لقد اندفع (فكرت السيدة رمزي، أن كل ذلك، لأن بـرو لـم تكـن لطيفة معه)، وقلل من قيمة روايات ويفرلى في حين أنه لا يعرف عنها شيئًا، فكرت السيدة رمزي، لا يعرف عنها أي شيء مهمـا كان، وهي ترقبـه بـدلًا من أن تصغي لما يقول. كان بمقدورها أن ترى أنه شيء نـابع مـن تـصرفاته- كان يريد أن يؤكد ذاته، وهكذا سيكون الأمر دائمًا إلى أن يحصل على درجـة الأستاذية أو يتزوج، وعندئذ لن يكون بحاجة لأن يقول دائمًا "أنا- أنا- أنا". لأنه كان ينتقد سير والتر المسكين على نفس الشيء، أو ربمـا جـين أوسـتن. "أنا- أنا- أنا" كان يفكـر في ذاتـه، وفي الانطبـاع الذي يتركـه في الآخـرين، وبوسعها أن تقول ذلك من رنين طبقة صـوته، ومـن تـشديده على الكلمـات وقلقه. سيكون النجاح أمرًا طيبًا له. على أي حال فقد صـمتوا مـرةً أخـرى. والآن ليست بحاجة للإصغاء إليهم. وهي تدرك أن ذلك لا يمكن أن يستمر

طويلًا، لكن عينيها أصبحتا في هذه اللحظة بالغتيّ الصفاء إلى حد أن بدتا كأنهما تطوفان حول المائدة لتكشفا ما يخفيه كل هؤلاء الأشخاص، وأفكارهم ومشاعرهم، دون عناء مثل ضوء ينسل تحت الماء حتى أن مويجاته وما فيها من أعشاب وسمك المنوه الذي يأرجح نفسه، وسمك التروت الصامت المفاجئ يطفو كله مضيئًا، ومرتعشًا. هكذا رأتهم؛ وسمعتهم؛ لكن أيًّا كان ما قالوه فقد اتسم أيضًا بهذه السمة، كما لو كان ما قالوه مثل حركة سمك التروت، حيث يمكن للمرء، في نفس الوقت، أن يرى المويجات والحصى، شيئًا ما إلى اليمين، وشيئًا ما إلى اليسار؛ ثم يلتئم الجميع معًا؛ حيث أنها في الحياة العملية عليها أن تلتقط وتفصل كل شيء عن الآخر؛ عليها أن تقول إنها تحب روايات ويفرلي أو تقول إنها لم تقرأها؛ وعليها أن تدفع بنفسها إلى الأمام؛ أما الآن فلم تتفوه بحرف. لأنها في هذه اللحظة، التزمت بوضعها المعلق.

قال أحدهم، "آه، لكن كم من الوقت في ظنك ستستمر؟" كأن ثمة قرون استشعار ارتعشت منبثقةً عنها، وأرغمتهم- باعتراضها لبعض الجمل- على الخضوع لملاحظتها. كانت هذه إحدى تلك الجمل. فقد اشتمت رائحة خطر يحيق بزوجها. فسؤال كهذا قد يؤدى، تقريبًا بشكل مؤكد، إلى شيءٍ ما قد قيل بما يذكره بفشله الخاص. فكم من الوقت ستستمر أعماله مطروحة للقراءة- سيفكر في ذلك في الحال. ضحك وليام بانكس (الذى كان متحررًا تمامًا من كل هذا الغرور)، وقال إنه لا يعلق أية أهمية على تغير الأساليب. فمن ذا الذي بوسعه أن يقول ما الذي سيستمر- في الأدب أو حقيقةً في أي شيء آخر؟

قال، "دعونا نستمتع بما نستمتع به". بدا للسيدة رمزي أن استقامته جديرة بالإعجاب. لم يبدُ للحظة أنه يفكر، لكن كيف أثّر فيّ ذلك؟ لكن عندئذ لو كان لديك المزاج المناقض لذلك، الذي لا بد أن يدفعك للإطراء، ويدفعك للتشجيع، لكان من الطبيعي أن تبدأ (وهي تعرف أن السيد رمزي كان يبدأ) في الشعور بالقلق؛ في الرغبة في أن يقول أحدهم، أوه، لكن عملك سيستمر، يا سيد رمزي، أو شيئًا شبيهًا بذلك. وقد أفصح عن قلقه بوضوح شديد الآن عندما قال، ببعض العصبية، إن "سكوت"، على أية حال (أم كان شكسبير؟) سيستمر طول حياته هو. قال ذلك بعصبية. فكرت، أن الجميع قد شعروا بقليل من الإحراج، دون أن يدركوا السبب. ثم مينتا دويل، التي كانت تتمتع بفطرة جيدة، قالت بلا مواربة، وبعبثية، إنها لا تعتقد أن أي واحد يستمتع حقيقة بقراءة أعمال شكسبير. قال السيد رمزي بتجهم (فيما شرد عقله منه مرةً أخرى) إن القليلين جدًّا من الناس قد أحبوه كثيرًا مثلما قالوا. وأضاف، لكن مع ذلك فهناك قيمة كبرى لبعض مسرحياته، وأدركت السيدة رمزي أنه سيكون على ما يرام في خلال لحظة على أية حال؛ وسيسخر من مينتا، ورأت السيدة رمزي، مدركةً قلقه المفرط تجاه ذاته، وسترى- بطريقتها الخاصة- أنه تم الاهتمام به، وإطراؤه، بشكل أو آخر. لكنها تمنت لو لم يكن الأمر ضروريًّا: ربما كانت غلطتها أن الأمر ضروري. وعلى أية حال، فقد كانت حرة الآن في الإصغاء لما كان بول رايلي يحاول أن يقوله عن الكتب التي يقرأها الناس في سن الصبا. قال إنها كتب قيمتها مستمرة. لقد قرأ بعضًا من كتب تولستوي في سنوات المدرسة. وثمة كتاب بعينه يتذكره دائمًا، لكنه نسي اسمه. قالت السيدة رمزيّ إن الأسماء

الروسية مستحيلة. قال بول، "فرونسكي". لقد تذكره لأنه كان دائمًا يظن أنه اسم مناسب لشخص شرير. قالت السيدة رمزي، "فرونسكي؛ أوه، آنَّا كارينينا"، لكن ذلك لم يبتعد بهم كثيرًا؛ فالكتب لم تكن محط اهتمامهم. لا، فتشارلز تانسلي سيعيدهم جميعًا في ظرف ثانية واحدة إلى الحديث عن الكتب، لكن كل الأمور كانت متمازجة ومختلطة معًا، فهل أقول الشيء الصائب؟ هل أترك انطباعًا جيدًا؟ فذلك، علاوة على هذا، ما يعرفه المرء أكثر مما يعرف عن تولستوى، في حين أن ما قاله بول كان عن هذا الأمر ، ببساطة، لا عنه هو بذاته، لا شيء آخر. ومثل كل الأغبياء، كان لديه أيضًا نوع من التواضع، اعتبارٌ لما تشعر به، مما وجدته شيئًا جذابًا، ذات مرة عابرة على الأقل. والآن ها هو يفكر، لا في نفسه، أو في تولستوي، لكن فيما إذا كانت باردة، فيما إذا كانت تشعر بأنها مشدودة، ما إذا كانت ترغب في ثمرة كمثرى.

قالت، لا، لا أرغب في ثمرة كمثرى. في الحقيقة كانت ترقب طبق الفاكهة بعين حارسة (بلا وعي) غيورة، على أمل ألا يلمسها أحد. كانت عيناها تطوفان إلى الداخل والخارج بين انحناءات وظلال الفاكهة، وسط ثراء اللون الأرجواني للعنب المقطوف من الأراضي المنخفضة، ثم فوق الحواف القَرنية للثمار، لتضع الأصفر مقابل الأرجواني، والشكل المنحني مقابل الشكل المستدير، دون أن تعرف لماذا تفعل ذلك، أو لماذا، كل مرة تفعل فيها ذلك، تشعر بالمزيد والمزيد من السكينة؛ إلى أن، أوه، يا للحسرة، لماذا يفعلون ذلك- امتدت يد، وأخذت ثمرة كمثرى، وأفسدت الأمر برمته. نظرت نحو روز في تعاطف. نظرت نحو روز الجالسة بين جاسبر وبرو. كم من الغريب أن يكون للمرء طفلة تفعل ذلك!

كم من الغريب أن تراهم جالسين هناك، في صف، وأطفالها، جاسبر، روز، برو، أندرو، تقريبًا صامتون، لكن مع بعض الدعابة الخاصة بهم يتداولونها بينهم، كما خمنت، من حركة شفاههم. كان شيئًا منفصلاً تمامًا عن كل الأشياء الأخرى، شيئًا يحتفظون به ليضحكوا عليه في حجرتهم. تمنت ألا يكون عن والدهم. لا، لم تظن ذلك. وتساءلت، ما هو، وهي حزينة نوعًا ما، لأنهم فيما بدا لها سيضحكون عندما لا تكون معهم. هناك الكثير مما يحتفظون به وراء مثل هذه الجلسة، ساكنين، بوجوه أشبه بالأقنعة، لأنهم لا يندمجون مع الآخرين بسهولة؛ كانوا أشبه بمراقبين، أو مشرفين، أعلى قليلًا أو منفصلين عن الكبار. لكنها عندما نظرت إلى برو هذه الليلة، أدركت أن ذلك ليس صحيحًا تمامًا عنها. فقد كانت توشك أن تبدأ، توشك أن تتحرك، توشك أن تنزل. والبصيص الخافت من الضوء على وجهها، كما لو كان انعكاسًا لوهج مينتا التي تجلس قبالتها، وينعكس داخلها بعض الإثارة، بعض الحدس بالسعادة، كما لو كانت شمس حب الرجال والنساء قد فاضت على حافة مفرش المائدة، ودون أن تعرف ماهيته انحنت نحوه وحيته. ظلت تنظر نحو مينتا، بخجل، لكن بفضول، وراحت السيدة رمزي تنقل بصرها من واحد لآخر وقالت، وهي توجه الكلام إلى برو في ذهنها، ذات يوم ستكونين سعيدة مثلها. بل ستكونين أكثر سعادة، أضافت، لأنك ابنتي، كانت تقصد؛ فابنتها لابد أن تحظى بالسعادة أكثر من بنات الآخرين. لكن العشاء انتهى. وحان وقت المغادرة. كانوا فقط يعبثون بالأشياء في أطباقهم. وكان عليها أن تنتظر حتى ينتهوا من الضحك على قصة رواها لهم زوجها. كان قد روى دعابة لمينتا حول إحدى المراهنات. ثم كان عليها أن تنهض.

فكرت، فجأةً، أنها تحب تشارلز تانسلي[*]؛ تحب ضحكته. تحبه لأنـه كان غاضبًا جدًّا من بول ومينتا. تحب ارتباكه. فقد كان لدى هذا الشاب الكثير من المزايا في النهاية. وفكرت أن لِيلي، التي وضعت منشفتها بجوار طبقهـا، لديها دائما دعابةٌ ما من تأليفها. فما من داعٍ أبدًا للقلق بشأن لِيلي. انتظرت. وضعت فوطتها تحت حافة طبقها. حسنًا، فهل سينتهون مـن ذلـك الآن؟ لا. فتلك القصة قادتهم إلى قصة أخرى. وزوجها الليلة في مزاج طيب، وتمنت، مفترضةً، أن تسير الأمور على ما يرام مع العجـوز أوجـستوس بعـد مـشهد الحساء ذاك، الذي ورطه فيه- كانا يرويان قصصًا عن شخصٍ ما يعرفانه منذ أيام الدراسة بالكلية. نظرت نحو النافذة حيث كان لهب الشمعة يتـوهج أكـثر سطوعًا الآن حتى بدت ألواح الزجاج سوداء، وإذ نظرت نحو الخارج راحـت الأصوات تأتيها بالغة الغرابة، كأنها أصوات تراتيل في كاتدرائيـة، لأنهـا لـم تتبين الكلمات. وبانفجارات الضحك المفاجئة ثم صـوت (مينتـا) تتحـدث بمفردها، تذكرت الرجال والأولاد وهم يصيحون بكلمات لاتينية في تراتيل كاتدرائية كاثوليكية رومانية. انتظرت. تحدث زوجها. كان يكرر شـيئًا مـا، وأدركت أنه شعر من خلال إيقاع الكلمات ورنين البهجة، والحزن في صوته:

فلتخرجي واصعدي ممر الحديقة، يا لوريانا لوريلي.
أزهار الأزادرخت كلها تزهر وتئز مع النحلة الصفراء.

بدت الكلمات (وكانت تنظر إلى النافذة) كأنهـا تطفـو كزهـور على المـاء

[*] كلمة "تحب" هنا ليست ترجمة لـ love، بل لـlike، الأقرب للتعبير عن المودة، والمحبة؛ وهي الأكثر ورودًا في الرواية بهذا المعنى..

هناك بالخارج، منفصلة عنهم جميعًا، كأنما لم ينطق بها أحد، بل أتت هكذا إلى الوجود من تلقاء نفسها.

وكل الحيوات التي عشناها والحيوات التي سنعيشها
مليئةٌ بالأشجار وأوراقها المتجددة.

لم تكن تفهم معناها، لكن الكلمات، كالموسيقى، بدت كأنها منطوقة بصوتها هي، من خارج ذاتها، لتقول بمنتهى البساطة والتلقائية ما كان يجول بخاطرها طيلة الأمسية، فيما كانت تقول أشياءً أخرى. كانت تعلم، دون أن تنظر حولها، أن الجميع حول المائدة يصغون للصوت القائل:

أتساءل إن كانت تتبدَّى لك، لوريانا، لوريلي

بنفس نوع الارتياح والسعادة الذي شعرت به من قبل، كما لو كان هذا، في النهاية، الشيء الطبيعي لأن تقوله، وأن ذلك هو صوت ذلك الارتياح وتلك السعادة منطوقًا.

لكن الصوت توقف. تطلعت حولها. أنهضت نفسها. نهض أوجستوس كارمايكل، وإذ أمسك بمنشفة المائدة التي بدت كرداء أبيض كبير راح ينشد:

لتَرَي الملوك امتطى صهوة جوادك
على المرج وزهور اللؤلؤ الصغيرة
وسعف النخيل وأشجار الأَرز
يا لوريانا، لوريلي،

وإذ مرت بجواره، التفت نحوها برقة وكرر الكلمات الأخيرة:

يا لوريانا، لوريلي

وانحنى لها كما لو كان ليقدم إجلاله لها. دون أن تعرف السبب، شعرت أنه يحبها أكثر مما كان يحبها من قبل؛ وبشعور بالراحة والامتنان ردت له انحناءته وعبرت من خلال الباب الذي فتحه لها.

أصبح من الضروري الآن أن تخطو بكل شيء خطوةً للأمام. وقدماها على عتبة الباب انتظرت دقيقةً أخرى في مشهد كان يتلاشى حتى وهي تنظر إليه، وعندئذٍ، وفيما تحركت وتأبطت ذراع مينتا وغادرت الحجرة، تغير المشهد، صاغ نفسه في شكل مختلف؛ أصبح، كما أدركت، يقدم نظرة أخيرة إليه من فوق كتفها، إنه بالفعل الماضي.

الفصل الثَّــامن عشر

فكرت لِيلي، كالمعتاد. كان دائمًا ثمة ما ينبغي أن يُنجـز في تلـك الدقيقـة المحددة، شيء قررت السيدة رمزي لأسباب خاصة بها أن تقوم به حالًا، قـد يكون مرتبطًا بكل مَن يقف هناك يلقي النـكات، كالآن، غـير قـادرة على تحديد ما إذا كانوا سيتجهون إلى حجرة التدخين، أم إلى حجرة الاستقبال، أم إلى العلّيات. ثم يرى المرء السيدة رمزي في وسط هذا الهـرج والمـرج تقـف هناك متأبطةً ذراع مينتا، وتُذكّرها، "نعم، حان الآن الوقت لذلك"، ثم تهرب في الحال محاطةً بجو من الغموض لتفعل شيئًا مـا بمفردهـا. وهكـذا مـضت مباشرةً بنوع من التشتت؛ أما الآخرون فقد ترددوا، ثم مـضوا في اتجاهـات مختلفة، أخذ السيد بانكس تشارلز تانسلي من ذراعـه وخرجـا إلى الـشرفة ليكملا المناقشة التي بدآها وقت العشاء في أمور تتعلق بالسياسة، منعطفين بذلك إلى مجمل ما دار بتلك الأمسية، مركـزين على اتجـاه مختلـف، كأنمـا، كما فكرت لِيلي، إذ رأتهما يذهبان، ملتقطة كلمة أو اثنتين من حوارهما عن

سياسة حزب العمال، قد اتجها إلى ناحية رصيف الميناء ويتخذان مجلسهما هناك؛ صدمها التحول من الشعر إلى السياسة؛ وهكذا مضى كل من السيد بانكس وتشارلز تانسلي بينما وقف الآخرون يتطلعون إلى السيدة رمزي وهي تصعد الدرج على ضوء المصباح بمفردها. تساءلت لِيلي، إلى أين تمضي هكذا بهذه السرعة الشديدة؟

لم تجرِ في الحقيقة أو تسرع خطواتها؛ بل كانت تسير ببطء حقًّا. فقد شعرت بالأحرى أنها تميل فحسب إلى أن تقف ساكنة للحظة بعد كل تلك الثرثرة، وأن تلتقط شيئًا محددًا؛ الشيء الذي أثار اهتمامها؛ لتعزله؛ لتفرزه؛ لتنقيه من كل الانفعالات وأهداب الأشياء وأطرافها، وتمسك به هكذا أمامها، وتقدمه للمحاكمة، حيث أجلست القضاة، في جلسة سرية، ليقرروا هذه الأمور. هل هذا طيب، هل هذا سيء، هل هو صحيح أم خطأ؟ إلى أين نمضي نحن جميعًا؟ وهلم جرًا. وهكذا عدلت من شأنها بعد صدمة ذلك الحدث، ودون وعي تام ودون معرفة، استخدمت فروع أشجار الدردار خارج المنزل لمساعدتها على ترسيخ وضعها. كان عالمها يتغير: وكانوا ساكنين. وقد منحها الحدث شعورًا بالحركة. ولابد لكل شيء أن يخضع للنظام. فكرت أن عليها أن تضع كل شيء في مكانه المناسب، مستحسنةً دون إدراك مهابة سكون الأشجار، والشموخ العالي الرائع الآن مرةً أخرى (مثل مقدمة سفينة تعلو على الأمواج) لأغصان الدردار فيما الريح تدفعها إلى أعلى. لأن الجو كان عاصفًا (توقفت لوهلة لتنظر إلى الخارج). كان الجو عاصفًا، لذلك بين فينة وأخرى كانت أوراق الأشجار تلامس نجمًا في السماء، ولاحت النجوم ذاتها تهتز وترمي بضوئها محاولةً أن تومض متخللة حواف أوراق الشجر. نعم، كان

ذلك ما حدث وقتئذٍ، ما اكتمل؛ ومثلما مع كل الأشياء المكتملة، تحول إلى نوع من الجلال. الآن يتأمله المرء، نقيًا من الثرثرة والانفعال، بدا كأنه كان دائما هكذا، غير أنه أظهر جوهره الآن وبدا واضحًا للعيان، ومنح الاستقرار لكل شيء. فكرت أنهم لابد سيواصلون ذلك مرةً أخرى، ومهما عاشوا طويلًا، فسيعودون إلى هذه الليلة؛ هذا القمر؛ وهذه الريح؛ وهذا البيت: وإليها أيضًا. أشعرها بالإطراء، لأنها كانت سريعة التأثر بالإطراء، أن تفكر كيف، ستراوح في قلوبهم، مهما عاشوا طويلًا ستكون جزءًا من نسيجهم؛ وهذا، وهذا، وهذا، فكرت في هذا الأمر، وهي تصعد الدرج، ضاحكةً، لكنها مفعمة بالعاطفة، عند الأريكة على بسطة الدرج (أريكة والدتها)؛ والكرسي الهزاز (كرسي والدها)؛ وخريطة اليهود. كل ذلك سيعود إلى الحياة مرةً أخرى في حياة بول ومينتا؛ "آل رايلي"- حاولت تكرار نطق الاسم الجديد؛ وشعرت، ويدها على مقبض باب غرفة نوم الأطفال، ذلك الزخم من المشاعر المتوحدة مع مشاعر الآخرين التي منحتها لها العاطفة كما لو كانت جدران الحاجز قد أصبحت رفيعة جدا إلى حد أنها بشكل خاص (كان هذا الشعور واحدًا من مشاعر الارتياح والسعادة) كانت تيارًا واحدًا من الأحاسيس، والمقاعد، والموائد، والخرائط، كانت ملكًا لها، وملكًا لهم، لا يهم مِلك مَن، وستكون ملكًا لبول ومينتا بعد موتها.

أدارت مقبض الباب، بثبات، حتى لا تصدر صريرًا، ودخلت، وهي تزم شفتيها بنعومة، كأنها لتذكر نفسها أنها لا ينبغي أن تتحدث بصوت مرتفع. لكنها بمجرد دخولها رأت، بانزعاج، أن ذلك الحذر لم تكن له ضرورة. فلم يكن الأولاد نائمين. كان ذلك مزعجًا لها بدرجة كبيرة. فعلى ميلدرد أن

تكون أكثر انتباهًا. كان جيمس مستيقظًا بشكل تام، وكام تجلس معتدلةً كالسهم، وميلدرد خارج فراشها حافية القدمين، وكان الوقت تقريبًا الحادية عشرة، وكانوا جميعًا يتحدثون، ما الأمر؟ إنها مرةً أخرى تلك الجمجمة المرعبة. لقد طلبت من ميلدرد أن تنقلها، لكن ميلدرد، بالطبع، نسيت، وها هم الآن، كام مستيقظة تمامًا، وجيمس مستيقظ تمامًا يتشاجران بينما المفترض أنهما نائمان منذ ساعات. فأي شيطان تلبس إدوارد ليرسل لهم هذه الجمجمة المرعبة؟ لقد كان حمقًا شديدًا منها أن تدعهم يعلقونها هنا. قالت ميلدرد، لقد علقوها بسرعة. وكام لا تستطيع أن تنام وهي موجودة في الحجرة، وجيمس يصرخ إذا لمستها.

إذن فلابد أن تنام كام (قالت كام إن لها قرونًا كبيرة)- لابد أن تنام وتحلم بأماكن لطيفة، قالت السيدة رمزي ذلك، وهي تجلس على الفراش بجوارها. قالت كام إنها تستطيع رؤية القرون تملأ الحجرة. كان ذلك صحيحًا. فحيثما وضعوا المصباح (وجيمس لا يستطيع أن ينام دون إضاءة) فهناك دائما ظِل لها في مكانٍ ما.

قالت السيدة رمزي، "لكن فكري، يا كام، إنها مجرد عنزة عجوز، عنزة سوداء لطيفة مثل الماعز الموجودة في المزرعة". لكن كام كانت تراها شيئًا مرعبًا، تتفرع في كل أنحاء الحجرة.

قالت السيدة رمزي، "حسنًا إذن، سنغطيها"، وراح الجميع يراقبونها وهي تتجه نحو أدراج الخزانة، وتفتح درجًا صغيرًا بسرعة وراء الآخر، وعندما لم تجد شيئًا مناسبًا لهدفها من البحث، سحبت بسرعة شالها من على كتفها

ولفته حول الجمجمة، وظلت تلفه حولها في عـدة لفـات، ثـم عادت إلى كام ووضعت رأسها بجوارها تقريبًا مستلقية على الوسادة بجوار رأس كام وقالـت كم تبدو لطيفة الآن، وكم ستحبها الحوريات، إنها تشبه عش عصافير، إنها تشبه جبلًا جميلًا مثل تلك الجبال التي نـشاهدها في المنـاطق الـصحراوية، وحولها الوديان والزهور والأجـراس تـدق والطيـور تغـنى والمـاعز الـصغير والظباء و... كانت ترى الكلمات يتردد صداها وهي تنطقها موقعـة موسـيقيًّا في ذهن كام، وكانت كام تكرر وراءها كم أنها تشبه جبلًا، وعش عصافير، وحديقة، وكان هناك قليل مـن الظبـاء، وكانـت تفـتح عينيهـا وتغمـضهما، واستمرت السيدة رمزي تتحدث في هدوء وأكثر رتابة، وأكثر إيقـاعًا وأكـثر تخريفًا، كيف أنها لابد أن تغمض عينيهـا وتنـام وتحلـم بالجبـال والوديـان والنجوم المتساقطة والبغاوات والظباء والحدائق، وبكل الأشـياء الجميلـة، قالت ذلك، وهي ترفع رأسها ببطء شديد وتتحدث بشكل أكثر فـأكثر آليـة، إلى أن اعتدلت ورأت كام تستغرق في النوم.

الآن، همست، وهي تعبر الحجرة متجهةً إلى سريره، جيمس أيـضًا لابـد أن ينام، قالت له إن رأس الخنزير ما تزال مكانها، لم يلمسها أحد، لقد فعلوا تمامًا ما أراد؛ فهي مكانها لم يمسها سوء. تأكد أن الجمجمة ما تـزال مكانهـا تحت الشال. لكنه أراد أن يـسألها عـن شيء آخـر. هـل سـيذهبون غـدًا إلى الفنار؟

قالت له، لا، لن يذهبوا غدًا، لكنها وعدتـه، أنهـم سـيذهبون قريبًـا؛ في أقرب يوم يكون فيه الجو لطيفًا. كان طيبًا جـدًّا. تمـدد في فراشـه. غطتـه.

لكنه لن ينسى أبدًا، أدركت ذلك، وشعرت بالغضب من تشارلز تانسلي، ومن زوجها، ومن نفسها، لأنها رفعت من سقف آماله. عندئذٍ، فيما تحسست كتفها بحثًا عن شالها وتذكرت أنها لفته حول جمجمة الخنزير البري، نهضت، وسحبت زجاج النافذة إلى أسفل بوصةً أخرى أو بوصتين، وسمعت صوت الريح، والتقطت أنفاسها من هواء الليل البارد النقي، وتمتمت متمنية ليلةً طيبة لميلدرد، وغادرت الحجرة وهي تترك لسان مقبض الباب يدخل في محبسه ببطء، ومضت في سبيلها.

كانت تأمل ألا يخبط كتبه على الأرض فوق رؤوسهم، وهي ما تزال تفكر كم كان تشارلز تانسلي مزعجًا. فلم ينم أحدٌ منهم جيدًا؛ كانوا أطفالًا حساسين، وبدا لها أنه طالما قال أشياءً هكذه عن الفنار، فعلى الأرجح أن سيخبط كومة كتب فوقهم، تمامًا في الوقت الذي سيذهبون فيه للنوم، بدفع الكتب بشكل أخرق من على المنضدة بمرفقه. فهي تفترض أنه قد صعد إلى الطابق الأعلى ليعمل. ورغم ذلك يبدو شديد العزلة؛ ورغم أنها شعرت بالراحة حين رحل؛ ورغم أنها سترى غدًا أنه يلقى معاملة أفضل؛ ورغم أنه كان مثيرًا للإعجاب في نقاشه مع زوجها، ورغم أن سلوكياته بحاجة مؤكدة للتهذيب؛ لكنها تحب ضحكته- إذ فكرت في هذا، وهي تهبط الدرج، لاحظت أن بوسعها الآن أن ترى القمر ذاته عبر نافذة الدرج- قمر الحصاد الأصفر- واستدارت، ورأوها، تقف أعلى منهم على الدرج.

قالت برو لنفسها، "إنها أمي". نعم؛ لابد أن تتطلع مينتا إليها؛ وأن يتطلع بول رايلي إليها. شعرت أن هذا هو ما يحدث، كأنما ليس هناك سوى شخص

واحد في العالم؛ أمها. ومن إحساسها، منذ لحظة، بأنها كبرت، وهي تتحدث مع الآخرين، عادت طفلةً مرةً أخرى، وتساءلت عما إذا كان كل ما فعلوه محض لعبة، وما إن كانت والدتها قد أقرت لعبتهم وصدَّقت عليها، أم أدانتها. وفكرت كم كانت فرصةً لمينتا وبول وليلي ليروها، وإذ شعرت كم كانت خبطة حظ غير عادية لها، أن تحظى بها، وكيف أنها لن تكبر مطلقًا ولن تغادر البيت مطلقًا، قالت، مثل طفلة، "لقد فكرنا في الذهاب إلى الشاطئ ومشاهدة الأمواج".

في الحال، وبلا سبب على الإطلاق، تحولت السيدة رمزي إلى فتاة في العشرين، مفعمة بالبهجة. تملكها فجأةً مزاج من المرح الصاخب. صاحت، وهي تضحك، بالطبع لابد أن يذهبوا؛ بالطبع لا بد أن يذهبوا؛ وإذ هبطت الدرجات الثلاث أو الأربع الأخيرة ركضًا، بدأت تلتفت من شخص لآخر وهي تضحك وتسحب عباءة مينتا وتلفها حولها، وتقول إنها فقط كانت تتمنى الذهاب هي أيضًا، ولكنهم تأخروا كثيرًا، وهل لدى أحدهم ساعة يد؟

قالت مينتا، "نعم، بول لديه ساعة". سحب بول ساعة يد ذهبية جميلة من علبة من الشامواه ليريها لها. وإذ أمسكها في راحة يده أمامها، شعر، "أنها تعرف كل شيء عن الموضوع. لست بحاجة لقول أي شيء". كان يقول لها وهو يريها الساعة، "لقد فعلتها، يا سيدة رمزي. أدين لك بكل شيء"، وعند رؤيتها الساعة الذهبية قابعة في يده، شعرت السيدة رمزي كم هي محظوظة مينتا بدرجة غير عادية! إنها تتزوج رجلا لديه ساعة ذهبية في علبة من الشامواه!

صاحت، "كم أتمنى أن آتي معكم!" لكن كان ثمة ما يكبحها بقوة إلى حد أنها لم تفكر مطلقًا في سؤال نفسها عن ماهيته. بالطبع كان من المستحيل أن تذهب معهم. لكنها كانت تحب أن تذهب، وألا تستجيب للشيء الآخر، ودغدغتها عبثية فكرتها (كم هي محظوظة مينتا أن تتزوج رجلًا لديه علبة من الشامواه يضع فيها ساعته) وبابتسامة على شفتيها مضت إلى الحجرة الأخرى، حيث كان زوجها جالسًا يقرأ.

الفصل التَّاســع عشر

قالت لنفسها، وهي داخلة إلى الحجرة، بالطبع، إنها اضطرت أن تـأتي إلى هنا لتأخذ شيئًا كانت تريده. في البداية أرادت أن تجلس في مقعدٍ بعينه تحت مصباح بعينه. لكنها كانت تريد ما هو أكثر، رغم أنها لم تعرف ما هـو، ولـم تستطع أن تفكر ما هو الشيء الذي كانت تريده. نظرت إلى زوجها (ملتقطـةً جوربهاوبدأت في شغل التريكو)، ورأت أنه لا يريد أن يقاطعه أحـد- كان ذلك واضحًا. كان يقرأ شيئًا ما استحوذ عليه جدًّا. كان شبه مبتسم وعندئـذٍ أدركت أنه يسيطر على انفعالاته. كان يحرك الصفحات بأصبعه وهو يقلبهـا. كان يمثل ذلك- ربما كان يعتقد نفسه الشخص الذي يتحدث عنه الكتاب. تساءلت أي كتاب هذا. أوه، رأته، لقد كان أحد كتب سـير والـتر العجـوز، وهي تضبط ظل المصباح فوقها حتى يسقط الضوء على الجورب الذي تشتغل فيه. فتشارلز تانسلي كان يقول (تطلعَت لأعلى كأنها تتوقع أن تـسمع خبطـة الكتب على الأرض بالطابق العلوي)، كان يقول إن الناس لم يعودوا يقـرأون

سكوت. عندئذٍ فكر زوجها، "ذاك ما سيقولونه عني"؛ لذلك ذهب والتقط أحد تلك الكتب. وإذا وصل إلى نتيجة أن "ذلك صحيح" وهو ما قاله تشارلز تانسلي، فإنه سيتقبلها بشأن سكوت. (كان بوسعها أن ترى أنه يزن، ويتأمل، ويضع هذا مع ذاك أثناء قراءته). لكن ليس فيما يخصه هو نفسه. كان دائما قلقًا على نفسه. وذلك ما أزعجها. سيكون دائمًا مشغولًا فيما يخص مؤلفاته- هل ستُقرأ، هل هي كتب جيدة، لماذا ليست أفضل مما هي عليه، هل يفكر الناس فيَّ؟ لا يحب أن يفكر في نفسه هكذا، متسائلاً إن كانوا قد خمنوا أثناء العشاء لماذا أصبح فجأةً عصبيًّا حين تحدثوا عن استمرار الشهرة والكتب، متسائلاً ما إذا كان الأولاد يضحكون على ذلك، انتشلت الجورب من إبرة التريكو، وارتسمت كل النقوش الجميلة بآلات من حديد على شفتيها وجبهتها، وسكنت كشجرة كانت تتخبط وترتعش، وفي لحظة، عندما خمد الهواء، التزمت، ورقة ورقة، الهدوء.

قالت لنفسها، لا يهمني الأمر، ولا أي شيء يتعلق به. رجل عظيم، كتاب عظيم، شهرة- مَن بوسعه أن يحدد ذلك؟ لم تكن تعرف شيئًا عن ذلك. لكنها كانت طريقته مع نفسه، صِدقه- على سبيل المثال في العشاء كانت تفكر تمامًا بغريزتها، لو أنه فقط يبوح! فلديها ثقة مطلقة فيه. ثم إذ طردت كل ذلك من عقلها، مثل غوَّاص يمر في لحظة بأعشاب البحر، وفي أخرى يمر بقشة، وفي ثالثة بفقاعة مائية، شعرت مرةً أخرى، وهي تغرق في الأعمق، مثلما شعرت في حجرة الطعام عندما كان الآخرون يتكلمون، ثمة شيء أريده- شيء أتيت لآخذه، وهوت أعمق وأعمق مغمضة العينين دون أن تدرك تمامًا ما هو ذلك الشيء. انتظرت قليلًا، وهي تطرز، متسائلة،

وببطء انبثقت تلك الكلمات التي قالوها في العشاء، "زهرة الأزادرخت مزدهرة كلها وتئز مع نحلة العسل"، وبدأت تنتقل في ذهنها من جانب لآخر بشكل إيقاعي، وفي انتقالها، مثل الأضواء الظليلة الصغيرة، بظل أحمر، وظل أزرق، وظل أصفر، أضاءت الكلمات أضاءت ظلام عقلها، وبدا أنها تغادر مكامنها عاليًا هناك لتطير هنا وهناك، أو تصيح وتُردد صداها؛ هكذا التفتت وتحسست المنضدة بجوارها بحثًا عن كتاب.

وكل الحيوات التي عشناها
والحيوات التي سنعيشها،
مليئةٌ بالأشجار وأوراقها المتجددة،

تمتمت، وهي تغرز إبرتي التريكو في الجورب. وفتحت الكتاب وبدأت في القراءة في صفحة هنا وصفحة هناك بشكل عشوائي، شعرت، وهي تفعل ذلك، أحست أنها تتسلق عائدة للخلف، ومتقدمة للأمام، وهي تشق طريقها صاعدةً من تحت البتلات الملتفة عليها، وهكذا عرفت فحسب أن هذا أبيض، أو هذا أحمر. لم تعرف في البداية ما معنى الكلمات مطلقًا.

انطلقوا، انطلقوا بأشجاركم الصنوبرية المجنحة، أيها البحارة المهزومون

قرأت وقلبت الصفحة، وهي تؤرجح نفسها، في شكل زجزاج إلى هذه الناحية وتلك، من خط إلى آخر كأنما من غصن لآخر، من زهرة حمراء وأخرى بيضاء إلى سواهما، إلى أن أيقظها صوت واهن- زوجها يصفع فخذيه. التقت عيونهما لوهلة؛ لكنهما لم يرغبا أن يتحدث أحدهما للآخر.

فليس لديهما ما يقولانه، لكن بدا، مع ذلك، أن ثمة شيئًا قد انتقل منه إليها. إنها الحياة، إنها قوى الحياة، الدعابة الهائلة، كما أدركت، التي جعلته يصفع فخذيه. بدا أنه يقول لها، لا تقاطعيني، لا تقولي أي شيء؛ اجلسي هناك فحسب. وواصل قراءته. التوت شفتاه. لقد أفعمته. دعمته. ونسي تمامًا كل الانتقادات والخلافات الصغيرة التي حدثت هذا المساء، وكيف أصابه الملل بشكل لا يوصف من الجلوس ساكنًا فيما يأكل الآخرون ويشربون طيلة الوقت، وكونه عصبيًّا جدًّا مع زوجته وشديد الحساسية والقلق عندما تجاوزوا الحديث عن كتبه كأنها لم تكن مطلقًا. لكن الآن، أحس، اللعنة، لا يهم من وصل إلى حرف الـZ (إذا كانت الفكرة تجرى مثل الأبجدية من الـA إلى الـZ). لا بد أن شخصًا ما سيتوصل إليها- إن لم يكن هو، فشخص آخر إذن. وقوة هذا الرجل وحكمته، وإحساسه بالأمور الصغيرة المباشرة والصادقة، وأولئك الصيادون، وذلك المخلوق المجنون العجوز البائس في كوخ موكليباكيت جعله يشعر بالحيوية البالغة، بالتحرر من شيءٍ ما شعر به يتصاعد وينتصر ولم يملك كبح دموعه. رفع الكتاب قليلًا ليخفي وجهه، وترك دموعه تنساب وهز رأسه من ناحية لأخرى ونسي نفسه تمامًا (لا ينحصر الأمر في فكرة أو فكرتين عن الأخلاق والروايات الفرنسية والروايات الإنجليزية ويدَي سكوت المغلولتين إنما هي وجهة نظره التي قد تكون حقيقية كغيرها من وجهات النظر)، نسي مضايقاته وفشله تمامًا إزاء غرق ستيني المسكين وأحزان موكليباكيت (كانت هذه من أفضل ما كتب "سكوت") والبهجة المدهشة والشعور بالحيوية التي منحته إياه.

فكر، وهو ينتهي من قراءة ذلك الفصل في الرواية، حسنًا، لعلهم يفيدون

من ذلك. أحس كأنه يتنافش مع شخصٍ ما، وقد نال أفضل ما لديه. إنهم لا يستطيعون أن يستفيدوا من ذلك، مهما يكن ما قد يقولونه؛ وأصبح مركزه الشخصى أكثر أمنًا. فكر أن العشاق تافهون، وهو يلملم الرواية في ذهنه من جديد. ذلك تافه، وذلك من الطراز الأول، فكر، وهو يضع شيئًا بجانب الآخر. لكن عليه أن يعيد قراءتها ثانيةً. فليس بمقدوره أن يتذكر الشكل كاملًا. وعليه أن يحتفظ بأحكامه معلقة. وهكذا عاد إلى الفكرة الأخرى- إذا كان الشباب لا يولون أهمية لهذا، فمن الطبيعي كذلك أن لا يهتموا به أيضًا. فلا ينبغي على المرء أن يشكو، فكر السيد رمزي، محاولاً كظم رغبته في الشكوى لزوجته من أن الشباب لا يعجبون به. لكنه كان مصممًا؛ ألا يزعجها ثانيةً. نظر إليها وهي جالسة تقرأ. بدت جالسةً في سلام شديد، تقرأ. أحب أن يعتقد أن الجميع قد غادروا وأنه هو وهي بمفردهما. فكر، لا يمكن أن نختصر الحياة بأكملها في ذهاب الرجل مع امرأة إلى الفراش، ثم عاد إلى سكوت وبلزاك، عاد إلى الرواية الإنجليزية والرواية الفرنسية.

رفعت السيدة رمزي رأسها، ومثل شخص في غفوة من النوم الخفيف بدا أنها تقول إذا كان يريدها أن تستيقظ فستستيقظ، فعلاً ستستيقظ، وإلا، فيمكنها مواصلة نومها، لمدة أطول قليلاً، أطول قليلاً؟ كانت تتسلق تلك الأغصان، من هذه الناحية وتلك، مادةً يديها نحو زهرة فأخرى.

"ولا أفضل الوردة ذات اللون القرمزي الداكن"

راحت تقرأ، ومع القراءة استمرت في صعودها، شعرت، أنها في طريقها للقمة، في طريقها للذروة. كم هو شعور مشبع! كم هو مريح! كل بقايا

اليوم التصقت بهذا المغناطيس؛ شعر عقلها أنه مكنوس، أنه نظيف. ثم كانت هناك، فجأةً تمامًا؛ أمسكت بها بيديها، جميلة ومنطقية، واضحة وكاملة، ها هي- السوناتا.

لكنها أصبحت واعية بأن زوجها ينظر نحوها. كان يبتسم لها، بسخرية، كما لو كان يسخر بلطف من نومها في وضح النهار، لكنه في الوقت نفسه كان يفكر، أنتِ لا يبدو عليكِ الحزن الآن. وتساءل عما كانت تقرأ، وبالغ في إحساسه أنها جاهلة، وسطحية، لأنه كان يحب أن يعتقد أنها ليست ماهرة، ليست مطلعة على الكتب مطلقًا. تساءل عما إذا كانت تفهم ما تقرأ. فكر، من المحتمل أنها لا تفهم. كانت جميلة بشكل مدهش. بدا له جمالها، كما لو كان من الممكن، أنه يزداد

لكن يبدو أنه ما يزال الشتاء، وأنت بعيد
مثلما مع ظلك ألعب أنا مع هذه الأشياء،

انتهت من القراءة.

قالت، "وماذا بعد؟" ورفعت عينيها من على كتابها، وعلى وجهها ابتسامة حالمة كصدى لابتسامته.

مثلما مع ظلك ألعب أنا مع هذه الأشياء،

تمتمت، وهي تضع الكتاب على المنضدة.

تساءلت، وهي تلتقط شغل التريكو، ماذا حدث، منذ رأته بمفرده؟ تذكرت جلستها أمام المرآة تتزين، ورؤيتها للقمر؛ وأندرو يمسك بطبقه في

العشاء ويرفعه عاليًا جدًّا؛ لإحباطه من شيءٍ مـا قـاله وليـام؛ والطيـور على الأشجار؛ والأريكة على بـسطة الـسلم؛ والأطفـال الذيـن كانـوا لا يزالـون مستيقظين؛ وتشارلز تانسلي يوقظهم بكتبه المتـساقطة- أوه- لا، ذلـك مـا اخترعته هي؛ وامتلاك بول لعلبـة مـن الـشامواه لـساعته. فأيهـا ينـبغي أن تحكيها له؟

قالت، وهي تبدأ في التريكو، "لقد تمت خطبتهما، بول ومينتا".

قال، "لقد خمنت هذا". لم يكن هناك الكثير ليقال عن هـذا الموضـوع. كان ذهنها لا يزال يتحرك إلى أعلى وأسفل، وأعلى وأسفل مع الشِّعر؛ أمـا هـو فكان لا يزال يشعر بالحيوية البالغة، وبالوضوح الشديد، بعد قراءته عن دفن "ستيني". وهكذا جلسا صامتين. ثم أدركت أنها تريده أن يقول لها شيئًا.

فكرت، وهي تواصل العمل في شـغل التريكـو، أي شيء، أي شيء. أي شيء سيقوله سيفي بالغرض.

قالت، "لطيف جدًّا أن تتزوج فتاة من رجـل لديـه علبـة مـن الـشامواه لساعته"، لأن ذلك كان نوع النكات التي يتشاركانها معًا.

شخر. كان شعوره إزاء تلك الخطوبة هـو نفـس شـعوره الدائـم إزاء أيـة خطوبة؛ فالفتاة أفضل بكثير من ذلك الشاب. وببطء خطر بـذهنها، لمـاذا إذن يريد المرء من الناس أن يتزوجوا؟ ما القيمـة الكامنـة، ومـا معـنى هـذه الأشياء؟ (كل كلمة سيقولانها الآن ستتحقق). فكرت، قل شيئًا، متمنيةً فقط أن تسمع صوته. لأن الظل، ذلك الشيء الذي يلفهما كان يبدأ، فيما شـعرت،

في الانغلاق عليها مرةً أخرى. توسلت، وهي تنظر إليه، كما لو كانت تستغيث به وتطلب مساعدته، قل أي شيء.

كان صامتًا، يؤرجح البوصلة المعلقة بسلسلة ساعته للأمام وللخلف، ويفكر في روايات سكوت وبلزاك. لكن من خلال الجدران الغسقية الغامضة المطوقة لحميميتهما، لأنهما كانا مشدودين معًا داخلها ، لا إراديًا، جنبًا إلى جنب، ملتصقين بشدة، كان بوسعها أن تشعر أن ذهنه أشبه بيد مرفوعة تلقي بظلالها على ذهنها؛ وقد بدأ هو أيضًا يشعر أن أفكارها الآن تأخذ منحى يكرهه- نحو هذا "التشاؤم" كما يسميه- لتثير عصبيته، رغم أنه لم يقل شيئًا، وهو يرفع يده إلى جبينه، ويلف خصلة من شعره، ثم يتركها تسقط مرةً أخرى.

قال، وهو يشير إلى الجورب في يدها، "أنتِ لن تنتهي من هذه الحياكة الليلة". ذاك ما أرادته- خشونة صوته التي وبختها. لو أنه قال إنه من الخطأ أن تكون متشائمة فلربما كان هذا خطأً، كما فكرت؛ وسينتهي الزواج على خير.

قالت، وهي تمسد الجورب على ركبتها، "لا، لن أنتهي منه".

وماذا بعد؟ لأنها شعرت أنه لا يزال ينظر إليها، لكن نظرته تغيرت. كان يريد شيئًا ما- كان يريد الشيء الذي طالما وجدته شديد الصعوبة أن تمنحه له؛ كان يريدها أن تقول له إنها تحبه. وذلك، لا، ليس بمقدورها. كان أكثر سهولة منها في الكلام. كان يستطيع أن يقول أشياءً- لا يمكنها مطلقًا أن تقولها. لذلك كان طبيعيًا أنه دائمًا هو مَن يقول تلك الأشياء، ثم لسببٍ ما

ينتبه فجأةً لهذا، ثم يوبخها. يقول عنها إنها امرأة بلا قلب، لم تقل له مطلقًا إنها تحبه. لكن الأمر لم يكن كذلك- لم يكن كذلك. كان الأمر وما فيه أنها فقط لا تستطيع أبدًا البوح بما تشعر به. هل كان هناك فتات خبز على معطفه؟ أليس هناك ما يمكنها أن تفعله من أجله؟ نهضت، وقفت بجوار النافذة والجورب البني المحمَر في يديها، إلى حدٍّ ما لتبتعد عنه، وإلى حدٍّ ما لأنها تذكرت كم هو جميل غالبًا- البحر في الليل. لكنها أدركت أنه استدار برأسه وهي تلتفت، كان يراقبها. كانت تعرف أنه يفكر، أنتِ جميلة أكثر مما كنتِ. وشعرت بنفسها أنها جميلة جدًّا. ألن تقولي لي ولو مرةً واحدة فقط أنك تحبينني؟ كان يفكر في ذلك، لأنه انتبه، لما كان بشأن مينتا وكتابه، وأنها نهاية اليوم وأنهما تشاجرا بشأن الذهاب إلى الفنار. لكنها لم تستطع فعل ذلك؛ لم تستطع نطقها. عندئذٍ، وهي مدركة أنه يراقبها، بدلًا من أن تقول أي شيء التفتت، وهي ممسكة بالجورب الذي تحيكه، ونظرت نحوه. وإذ نظرت إليه بدأت في الابتسام، فعلى الرغم من أنها لم تنطق بكلمة، كان يعلم، بالطبع كان يعلم، أنها تحبه. لا يمكنه إنكار ذلك. مبتسمةً نظرت خارج النافذة وقالت (مفكرةً مع نفسها، لا شيء على وجه الأرض يمكن أن يساوى هذه السعادة)-

"نعم، أنت على حق. سيكون الجو ممطرًا غدًا. لن تستطيع الخروج". وتطلعت إليه مبتسمة. ذلك لأنها انتصرت مرةً أخرى. لم تنطقها؛ ومع ذلك أدرك.

الجزء الثَّـــاني

الوقت يمضِـي

الفصل الأول

قال السيد بانكس، وهو قادم مـن الـشرفة، "حـسنًا، علينـا أن ننتظـر المستقبل ونرى".

قال أندرو، وهو قادم من الشاطئ، "الجو تقريبًا شديد الظلام بدرجـة لا تسمح بالرؤية".

قالت برو، "بالكاد يمكن للمرء التمييز بين البحر والأرض".

قالت لِيلي، وهم يخلعون معاطفهم، "هل سنترك ذلك الضوء مشتعلًا؟"

قالت برو، "لا، إلا إذا كان الجميع قد عادوا للبيت".

عادت تنادى، "أندرو، من فضلك أطفئ نور الصالة".

مصباحًا وراء آخرأطفئت الأنوار جميعًا، فيما عدا أن السيد كارمايكل، الذي أحب أن يتمدد يقظًا ليقرأ فرجيل، قد أبقى على شـمعته مـضاءة لفـترة أطول من الآخرين.

الفصل الثَّـــاني

وهكذا مع كل المصابيح التي أطفئت، وغياب القمر، والمطر النحيل الذي ينقر السقف بدأ انهمار ظلام كثيف. بدا أنه لا شيء يمكن أن ينجو من السيل، ومن كثافة الظلام الذي ينسل، زاحفًا من ثقوب المفاتيح والشقوق، حول ستائر النافذة، ويدلف إلى حجرات النوم، يبتلع هنا قِدرًا وطستًا، وهناك وعاءً من زهور الداليا الحمراء والصفراء، وهناك الحواف الحادة والكتل الصلبة لخزانة الأدراج. لم يكن الأثاث وحده ما تشوش تمييزه؛ بل لم يُترك إلا بالكاد أي شيء من الجسد أو العقل يمكن للمرء به أن يميز، "إنه هو" أو "هذه هي". وأحيانًا ما كانت يدٌ ترتفع كأنما لتتشبث بشيءٍ ما أو تصد شيئًا ما، أو شخصٌ ما يئن، أو شخصٌ ما يضحك بصوت عالٍ كأنه يشارك دعابة مع العدم.

لا شيء تحرك في حجرة الاستقبال أو في حجرة الطعام أو على درجات

السُّلم. فقط من خلال المفصلات الصدئة وبعض أشغال الخشب المنتفخة بالرطوبة، انفصلت بعض تيارات الهواء الصغيرة عن جسد الريح (على الرغم من أن المنزل كان آيلاً للسقوط على أية حال) وزحفت حول الأركان وجازفت بالولوج داخل البيت. كان يمكن للمرء أن يتخيلها تقريبًا، وهي تدخل قاعة الاستقبال متسائلة متعجبة، متلاعبةً بالأجزاء المتساقطة من ورق الحائط، سائلةً، هل سيظل معلقًا مكانه فترة أطول من ذلك، متى سيسقط؟ ثم إذ تحتك بنعومة بالحوائط، تمر متأملةً كما لو كانت تسأل الورود الحمراء والصفراء المنقوشة على ورق الحائط عما إذا كان لونها سيبهت، وسائلةً (بلطف، لأن ذلك كان وقت التخلص منها) الخطابات الممزقة في سلة المهملات، والزهور، والكتب، وكل ما هو ظاهر للعيان أمامها، هل هم حلفاء؟ هل هم أعداء؟ إلى متى سيتحملون؟

هكذا يوجهها ضوء عشوائي، بوقع أقدامه الباهتة فوق الدرج وممسحة الأحذية، من نجم عارٍ، أو سفينة هائمة، أو حتى الفنار، بوقع أقدامه الباهتة على الدرج وممسحة الأحذية، فتصعد تيارات الهواء الصغيرة الدرج وتدس أنفها حول أبواب حجرات النوم. لكن هنا من المؤكد، لابد أن تتوقف. فأيًّا كان ما تلاشى أو اختفي، إلا أن ما يكمن هنا ثابت. هنا يمكن للمرء أن يقول لهذه الأضواء المتسللة، وتلك التيارات المتعثرة التي تتنفس وتنحني فوق الفراش ذاته، هنا ليس بوسعِكِ أن تلمسي ولا أن تحطمي. ففوقها بملل، بشبحية، كما لو كانت لديها أصابع بخفة الريش وخفة مثابرة الريش، قد تنظر، ذات مرة، إلى العيون المغمضة، والأصابع المتشابكة بارتخاء، وتطوي أرديتها بملل وتختفي. وهكذا، فيما تدس أنفها، وتحتك، تذهب إلى نافذة

بسطة الدرج، وإلى حجرات نوم الخدم، وإلى الصناديق الموضوعة في العلّيات؛ هابطةً، ملونةً بالأبيض التفاح على مائدة حجرة الطعام، لتتحسس بتلات الورود، وتتفحص اللوحة على الحامل، وتمسد ممسحة الأحذية وتنثر قليلًا من الرمال على أرض المنزل. في النهاية إذ تتوقف، يتوقف كل شيء، يتجمعون معًا، يتنهدون جميعًا؛ يطلقون جميعًا عاصفة من العويل بلا هدف يجيب عليها بابٌ ما في المطبخ؛ منفتحًا عن آخره، بلا دخول شيء؛ ثم ينصفق.

(هنا يطفئ السيد كارمايكل، الذي كان يقرأ فرجيل، شمعته. كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل).

الفصل الثَّالث

لكن على الرغم من ذلك فما قيمة ليلة واحدة؟ حيز قصير، خاصةً عندما يُعتم الظلام سريعًا، وسرعان ما يغرد طائرٌ ما، ويصيح ديكٌ، أو تُسرع خُضرةٌ واهنةٌ ما، مثل دوران ورقة شجرة، في تجويف موجة. فالليل، على أية حال، يعقبه ليلٌ آخر. والشتاء يحتفظ بمجموعة من تلك الليالي مخزونة ويتعامل معها بمساواة؛ بلا تحيز، بأصابع لا تكل ولا تمل. تطول ساعاتها؛ تُظلم. بعضها يحتوي عاليًا كواكب واضحة، وأطباقًا من الوهج. وأشجار الخريف، الجرداء كعادتها، تستخدم وميض الأعلام الممزقة في إشعال عتمة كهوف كاتدرائية باردة حيث الحروف الذهبية على صفحات من المرمر تصف الموت في المعارك وكيف للعظام أن تبيَض وتحترق بعيدًا في الرمال الهندية. أشجار الخريف تومض في ضوء القمر الأصفر، وفي ضوء أقمار الحصاد، الضوء الذي يصقل طاقة الكدح، ويزيل بقايا الحصاد، ويأتي بالموجة تلعق الزرقة على الشاطئ.

بدا الآن كما لو كانت الرعاية الإلهية، وقد مستها توبةٌ إنسانية وكل

عنائها، قد أزاحت الستائر وأظهرت خلفها، وحيدًا، واضحًا، ذلـك الأرنـب البرى منتصبًا؛ وسـقوط الموجـة؛ واهـتزاز القـارب؛ وكل الأشـياء الـتي- إذ نستحقها- ستكون ملكًا لنا دائمًا. لكن يا للحسرة، فالرعاية الإلهيـة، تـشد الحبل فتسدل الستائر؛ لم يسعدها هذا؛ وهي تغطي كنوزهـا في منقـوع مـن وابل البرد، فيحطمها، ويشوشها إلى حد أن يبدو مستحيلاً أن يعـود هـدوؤها مرةً أخرى، أو نستطيع أبدًا أن نكوِّن من شذراتها كُلًّا مكتملًا أو نقرأ مـن القصاصات المبعثرة الكلمات الواضحة للحقيقة. لأن توبتنا لا تستحق سوى نظرة خاطفة؛ وعناؤنا مؤجل فحسب.

الليالى الآن مفعمة بالريح والدمار؛ الأشجار تغـوص وتنحـني وأوراقهـا تتطاير في فوضى إلى أن يلتصق بها المرج وتستلقي مكدسةً في قنوات الصرف وتسد أنابيب تصريف المطر وتنثر الوحل في الطرقات. أيـضًا يقـذف البحـر نفسه ويحطم نفسه، وإذا ما خلع أي نائم ملابس نومه، متخيلاً أنه قد يعـثر على الشاطئ على إجابة لـشكوكه، أو مـشاركٍ له في عزلتـه، وذهـب منفـردًا ليسير على الرمـال، دون أن يـأتي أدنى أثـر مـن الطقـوس الدينيـة واليقظـة السماوية متأهبةً لتُلزم الليل بالنظام وتجعل العالم انعكاسًا لبوصـلة الـروح. تتضاءل اليد في يده؛ ويجأر الصوت في أذنه. فسيتضح تقريبًا أنه بلا جـدوى في تلك الفوضى أن تطرح على الليل هذه الأسئلة مثل ماذا، ولماذا، وإلى أيـن، تلك التي تغري النائم بأن ينهض من فراشه للبحث عن إجابة.

(ذات صباح مظلم، إذ كان السيد رمزي يتعثر في ممرٍّ ما، فرد ذراعيه على اتساعهما، لكن ذراعيه المفرودتان، إذ كانت السيدة رمزي قد ماتت بشكل مفاجئ الليلة السابقة، ظلتا فارغتين).

الفصل الرَّابع

وهكذا مع خواء المنزل وانغلاق الأبواب والمراتب مطوية، عصفت هذه التيارات الهوائية الضالة، كحراس متقدمين لجيوش عظيمة، وراحت تحتك بألواح الخشب العارية، المقروضة والمبعثرة، دون أن تقابل في البدروم أو قاعة الاستقبال ما يقاومها مطلقًا سوى أشياء معلقة تتلاطم، وأخشاب تقرقع، وأرجل المناضد العارية، وآنية المطبخ والأواني الخزفية التي أُطيح بها، فتشوهت، وتصدعت. وكل ما خزنه الناس وتركوه- زوج من الأحذية، قبعة صيد، تنانير ومعاطف بهت لونها في الخزانات- هو ما احتفظ وحده بالشكل الإنساني وأشار في الفراغ إلى كيف كان ذات يوم ممتلئًا وحيويًا؛ كيف كانت الأيدي ذات يوم مشغولة بمحابس الملابس وأزرارها؛ كيف احتوت المرآة وجهًا ذات يوم؛ احتوت عالمًا مجوفًا فيه تحرك شخصٌ ما، ومضت يدٌ ما، وانفتح باب، منه أتى الأولاد للداخل مندفعين يهرولون ويتعثرون؛ وخرجوا مرةً أخرى. الآن، يومًا وراء الآخر، وكزهرة تنعكس في الماء، حوَّل الضوء

صورته الحادة على الحائط المقابل. ليس سوى ظلال الأشجار، منتعشةً في الريح، هي التي تقدم الإكبار على الجدار، ولوهلة أظلمت البركةَ التي عكَس فيها الضوء نفسه؛ أو الطيور، المحلقة، وقد صنعت بقعة ناعمةً ترفرف ببطء عبر أرضية حجرة النوم.

هكذا ساد الجمال والسكون، وكوَّنا معًا شكل الجمال ذاته، شكلًا انفصلت عنه الحياة؛ معزولةً مثل بركة في المساء، بالغة الابتعاد، مرئيةً من نافذة القطار، متلاشيةً في سرعة بالغة إلى حد أن البركة الشاحبة في المساء، نادرًا ما يسلبها أحدٌ عزلتها، على الرغم من أنها شوهدت ذات مرة. تشابكت أيدي الجمال والسكون في حجرة النوم، ووسط الأواني الفخارية المغطاة والمقاعد المغطاة بالملاءات حتى أن فضول الريح، والأنف المرهفة لتيارات هواء البحر الرطبة، متحككةً، متشممةً، مكررةً، ومكررةً أسئلتها- "هل ستخفتون؟ هل ستنهارون؟"- نادرًا ما خدشت السلام، واللامبالاة، وسيماء الكمال التام، كأنما السؤال المطروح نادرًا ما احتاج إلى أن يجيبوا: نحن باقون.

لا شيء يبدو أنه قادر على تحطيم تلك الصورة، أو تلويث تلك البراءة، أو تشويش عباءة الصمت المتأرجحة التي دمجت في نفسها، أسبوعًا وراء أسبوع، في الحجرة الشاغرة، الصيحات المتساقطة من الطيور، وأصوات السفن، ودندنة وهمهمة الحقول، ونباح كلب، وصياح رجل، وطوتهم حول المنزل في صمت. ذات مرة وحيدة قفز لوح خشبي على بسطة السلم؛ ذات مرة مُصدرًا دويا هائلًا، في منتصف الليل، بقَطعٍ ما، كأنما بعد قرون من السكينة،

فصلت صخرة نفسها عن الجبل وقذفت بنفسها مندفعة إلى الوادي، وقد انحلت إحدى طيات الشال وراحت تتأرجح للأمام والخلف. ثم حل السلام مرةً أخرى؛ وارتعش الظل؛ انحنى الضوء في إجلال إلى صورته المعلقة على حائط حجرة النوم؛ وإذ مزقت السيدة ماكناب حجاب الصمت بيديها وهي واقفة في حوض الغسيل، وسحقته بحذائها ذي الرقبة الذي اعتاد على سحق الحصى، أتت كأنما موجهةً لتفتح كل النوافذ، وتنفض الغبار من حجرات النوم.

الفصل الخامس

وإذ تمايلت (لأنها لفَّت مثل سفينة في بحر) ونظرت شزرًا (لأن عينيها لم تقعا على شيء بشكل مباشر، بل بنظرة جانبية مفعمة بازدرائها للعالم وغضبها منه- كانت معتوهة- وكانت تعرف ذلك)، غنت، وهي تتشبث بسياج السُّلَّم وتجرجر نفسها من حجرة لأخرى. وفيما تمسح زجاج المرآة الكبيرة وتنظر شزرًا بطرف عينها إلى صورتها المتمايلة خرج صوتٌ من بين شفتيها- شيئًا ما ربما كان مرحًا منذ عشرين عامًا مضت على المسرح، تتم غمغمته والرقص على إيقاعه، لكنه الآن، إذ يصدر عن امرأة بلا أسنان، تغطي رأسها، وتنظف البيوت، فقد فقَد معناه، وأصبح مثل صوت العَتَه، مثيرًا للسخرية، مُلحًّا، ينخفض لكنه ينفجر عاليًا مرةً أخرى، لذلك إذ تمايلت، وهي تنفض الغبار، وتمسح الأرض، بدا كأنها تقول كيف كان حزنًا طويلًا ومتاعب كثيرة، وبأية حال كانت تستيقظ وبأية حال كانت تعود للنوم مرةً أخرى، وهي تخرج الأشياء من مكانها ثم تعيدها مكانها مرةً أخرى.

لم يكن سهلًا ولا مريحًا هذا العالم الذي عاينته عن قرب لمدة سبعين عامًا. انحنت لأسفل مصحوبة بتعبها. سألت، حتى متى وهي تَصِر وتئن على ركبتيها تحت السرير، تنفض الغبار عن الألواح الخشبية، إلى متى ستتحمل؟ لكنها عرجت بقدميها مرةً أخرى، وسحبت نفسها منتصبة، ومرةً أخرى بنظرتها الجانبية التي انسلت وانفلتت جانبًا حتى من وجهها، ومن أحزانها، وقفت وحدقت وهي تفغر فمها في المرآة، مبتسمةً بلا هدف، وبدأت مرةً أخرى العرج والتمهل القديم، وهي ترفع المراتب، وترص الأواني الخزفية، تنظر بجانب عينها في المرآة، كأنها قد عثرت في النهاية على عزائها الخاص، كأنها حقيقةً قد اقترن لحنها الحزين ببعض الأمل الحرون. لابد أن رؤى البهجة كانت هناك عند حوض الغسيل، تتحدث مع أولادها (مع أن اثنين منهما غير شرعيين وواحدًا قد هجرها)، في الحانة، تحتسى الخمر؛ تقلب القصاصات في أدراجها. لابد أن شقًّا صغيرًا في الظلام قد حدث هناك، لابد أن ضوءًا كافيًا قد انبثق من قناةٍ ما في أعماق العتمة ليجعلها تدير وجهها وهي تبتسم في المرآة ويجعلها، إذ تلتفت لعملها مرةً أخرى، تغمغم لحن أغنية القاعة القديم. والتمشية الغامضة، الخيالية، على الشاطئ في ليلة لطيفة، وتحريك الماء في بركة صغيرة، والتطلع إلى حجَر، سائلين أنفسهم "ماذا أنا؟"، و"ماذا هذا؟" فجأةً واتتهم الإجابة تتلطف بهم: (ليس بوسع أحد أن يعرف) لذلك حظوا بالدفء في الجليد، وحظوا بالراحة في الصحراء. لكن السيدة ماكناب واصلت الشرب والنميمة كما من قبل.

الفصل السَّادس

حل الربيع بلا ورقة شجر، عاريًا وساطعًا كعذراء وحشية في طهارتها، محتقِرة في نقائها، أخرجوها إلى الحقول مفتوحة العينين على اتساعهما تراقب بلا مبالاة تمامًا بما يفعله أو يفكر فيه مَن يحملونها. [برو رمزي، متكئةً على ذراع والدها، استسلمت للزواج. فهل كان من الممكن أن يكون الأمر لائقًا أكثر من ذلك، كما قال الناس؟ وأضافوا، كم بدت جميلة!)

مع اقتراب الصيف، مع امتداد الأمسيات، أتت هناك إلى المستيقظين، الآملين، المتمشين على الشاطئ، يحركون مياه البرك، خيالاتٌ من أغرب الأنواع- عن لحم يتحول إلى ذرَّات تندفع أمام الريح، وعن نجوم تومض في قلوبهم، وعن منحدرات صخرية، وبحر، وغيمة، وسماء، أتت كلها خصيصًا معًا لتجمع ظاهريًّا الأجزاء المتناثرة من الرؤى داخلهم. في تلك المرايا، في عقول البشر، في تلك البرك بمائها المضطرب، التي تدور فيها السُّحب إلى

الأبد وتُشكل الظلال، تثابر الأحلام، وكان من المستحيل أن تقاوم الحميمية الغريبة التي بدا أن كل طيور النورس، والزهور، والأشجار، والرجال والنساء، والأرض البيضاء ذاتها يعلنون بها (لكن إذا طُلب منها أن تتراجع في التو واللحظة) أن الخير ينتصر، والسعادة تسود، والنظام يحكم؛ أو أن تقاوم الحافز غير العادي للاصطفاف هنا وهناك بحثًا عن خير مطلق، عن بلورة قوةٍ ما، بعيدًا عن المسرات المعروفة والفضائل المعتادة، شيءٍ ما مغاير لمعاملات الحياة المنزلية، فريد، صعب، براق، مثل ماسة في الرمال، بما يمنح مالكه الأمن. علاوةً على ذلك، ناعمًا ومذعنًا، ألقى الربيع- بنحله الطنان وبعوضه المتراقص- عباءته عليها، فأخفت عينيها، وتفادت رأسها، ووسط الظلال العابرة وطيران رذاذ المطر بدا أنها تضطلع بمعرفة أحزان البشر.

[ماتت برو رمزي ذلك الصيف بسبب مرض أصابها أثناء الولادة، مما كان حقًّا مأساة، حسب قول الناس، فكل شيء، قالوا، كان مبشرًا تمامًا].

والآن في حر الصيف أرسلت الريح جواسيسها حول المنزل مرةً أخرى. نسج الذباب شبكةً في الحجرات المشمسة؛ والأعشاب التي نمت قُرب المرآة كانت في الليل تنقر بانتظام على زجاج النافذة. وعندما حل الظلام، أتى الآن الشعاع القادم من الفنار- الذي تمدد بسطوة على السجادة في الظلام، متتبعًا نمطه- في الضوء الرهيف للربيع ممتزجًا بضوء القمر منسلًّا بنعومة كأنه وضع ملاطفته وسار متمهلًا خلسةً ثم نظر حوله وتقدم بحب في طريقه مرةً أخرى. لكن في قلب هدوء هذه الملاطفة المحبة، وفيما كان الشعاع الطويل منحنيًا على الفراش، كانت الصخرة قد انشقت متفرقة في أجزاء؛ فقد انحلت

طية أخرى من طيات الشال؛ وهناك تدلت، وتأرجحت. وخلال ليالي الصيف القصيرة ونهارات الصيف الطويلة، حين بدا أن الغرف الفارغة تتمتم مع صدى الحقول وطنين الذباب، لوحت السفينة الكبيرة برقة، وتمايلت بلا هدف؛ بينما قامت الشمس بتخطيط الحجرات وتقليمها بأشعتها وبالغيوم الصفراء التي بدت- عندما دخلتها السيدة ماكناب، وتجولت فيها، تنفض الغبار، وتمسح الأرض- مثل سمكة استوائية تجدف لتشق طريقها في المياه المقلمة بأشعة الشمس.

لكن النعاس والنوم على الرغم من أنهما قد يأتيان فيما بعد في أصوات الصيف المشئومة مثل طرقات المطارق الرتيبة التي تبلد الأحاسيس، والتي، مع صدماتها المتكررة لا تزال ترخي أكثر طيات الشال وترتطم بفناجين الشاي. وبين حين وآخر يرن كأس في خزانته كما لو كان صوت عملاق قد جأر عاليًا للغاية في ألمه إلى حد أن ارتعشت الكؤوس الواقفة في خزانتها أيضًا. ثم يحل الصمت من جديد؛ ثم، ليلةً وراء ليلة، بل أحيانًا في وضح النهار عندما تكون الورود مشرقةً والضوء حوَّل شكلها على الحائط بوضوح هناك يبدو أنها تسقط في هذا الصمت، وهذا التجاهل، وهذا الكمال، والصوت المكتوم لشيءٍ ما يسقط.

[انفجرت قذيفة. سقط عشرون أو ثلاثون شابًّا في فرنسا، من بينهم أندرو رمزي، الذي كان موته سريعًا، مشفوعًا بالرحمة].

في ذلك الموسم كان أولئك الذين ذهبوا يذرعون الشاطئ ويسألون البحر والسماء عن الرسالة التي بلغوها أو الرؤية التي أكدوها ويجب أخذها في

الاعتبار بين الإشارات المألوفة من العطاء السماوي- الغروب على البحر، شحوب الفجر، سطوع القمر، قوارب الصيد في ضوء القمر، والأطفال الذين يصنعون فطائر من الطمي، أو يقذفون أحدهم الآخر بحفنات من العشب، شيءٌ ما ناشز عن هذا المرح وهذا الصفاء. كان هناك الظهور الصامت لسفينة رمادية اللون للحظة، تأتي، وترحل؛ كانت هناك بقعة أرجوانية فوق السطح اللطيف للبحر كأن شيئًا ما، غير مرئي، قد سكبها وأدماها، من أسفل. وهذا التطفل على المشهد المقصود ليحث الانعكاسات الأكثر سموًّا ويقودها إلى النتائج الأكثر راحة أبقت على سيرهم. كان من الصعب بصورة مداهنة التغاضي عنهم، وإلغاء أهميتهم في المشهد الطبيعي؛ والاستمرار، كما يسير المرء قرب البحر، ليتعجب كيف للجمال بالخارج أن يكون انعكاسًا للجمال بالداخل.

هل أضافت الطبيعة لما أنجزه الانسان؟ هل أكملت ما بدأه؟ مع رضا مساوٍ رأت بؤسه، ووضاعته، وعذابه. وذلك الحلم، بالمشاركة، والتكامل، والعثور في العزلة على الشاطئ على إجابة، ألم يكن عندئذٍ سوى انعكاس من مرآة ، والمرآة نفسها ألم تكن سوى سطح من الزجاج يتشكل في هدوء حين تنام أسفل منها القوى الأكثر نبلًا؟ نافدة الصبر، يائسةً مع ذلك تمضي على مضض (لأن الجمال يمنحها إغواءاتها، ولديه عزاءاتها)، فأن تذرع الشاطئ كان مستحيلًا؛ والتأمل كان غير محتمل؛ والمرآة تحطمت.

[في ذلك الربيع أصدر السيد كارمايكل ديوانًا شعريًا، حقق نجاحًا غير متوقع. قال الناس إن الحرب قد أحيت اهتمامهم بالشعر).

الفصل السَّابع

ليلةً بعد ليلة، وصيفًا وشتاءً، عذاب العواصف، سكون النهاية الشبيه بالسهم (إن كان هناك مَن يصغى) من الغرف العلوية في البيت الفارغ لا يمكن سماع سوى هباء هائل مبرقش بالبرق وهو يتعثر ويتخبط، فيما كانت الرياح والأمواج تلهو مع نفسها مثل الكتل الهلامية لوحوش بحرية حواجبها مثقوبة بلا أدنى سبب، وتمتطي إحداها الأخرى، تندفع وتغوص في الظلام أو في ضوء النهار (لأن الليل والنهار، الشهر والسنة كانوا يجرون معًا بلا شكل محدد) في ألعاب بلهاء، إلى أن بدا كأن الكون كان يتقاتل ويتشقلب، في فوضى وحشية وشهوة مفرطة مع نفسه بلا هدف.

تزدهرت الحديقة في الربيع، وتمتلئ مصادفة بنباتات ذرتها الريح، كانت بهيجةً كعادتها. ظهرت زهور السوسن والنرجس. لكن سكون النهار وإشراقه كانا غريبين شأن هباء الليل واضطرامه، والأشجار واقفة هناك، والأزهار واقفة هناك، تتطلع أمامها، تتطلع إلى أعلى، دون رؤية شيء مع ذلك، بلا عيون، بصورة رهيبة.

الفصل الثَّـــامن

معتقدةً أنه لا يوجد ما يسيء، لأن العائلة لن تأتي أبدًا مرةً أخرى، كمـا قال البعض، وأن المنزل ربما يُباع في عيد الملاك ميخائيل، تـسللت الـسيدة ماكناب وقطفت باقة زهور لتأخذها معها إلى البيـت. وضـعتها على المائـدة حتى تنتهي من إزالة الغبار. كانت مولعة بـالزهور. شيء مؤسـف أن تتركهـا تذبل. وبافتراض أن المنزل قد بيع (وقفت أمام المرآة وهي تضع ذراعيهـا على خاصرتها) فربما احتاج إلى... ربما. لقد ظل واقفًا كل تلك السنين بـلا روح فيه. الكتب والأشياء كانت متعفنة، لأنه، باندلاع الحرب وصعوبة الحـصول على مساعدة، لم يتم تنظيف المنزل كمـا كانـت ترغـب. كان يتجـاوز قـدرة شخص واحد أن يفعل ذلك الآن. كانت طاعنة في السن. ساقاها تؤلمانها. وكل تلك الكتب كانت بحاجة لأن توضع على العشب في الشمس؛ كان الجص قـد تساقط في الصالة؛ ومواسـير صرف الأمطـار انـسدت فـوق نافـذة المكتـب وسمحت لمياه الأمطار بالدخول؛ والسجادة خربت تمامًا. لـكن الناس لا بـد

أن يأتوا بأنفسهم؛ أو يرسلوا شخصًا ليرى بعينيه. فثمة ملابس في الخزانات، وقد تركوا ملابس في كل غرف النوم. فماذا تفعل بها؟ لقد انتشرت العثة بها- أشياء السيدة رمزي. سيدة مسكينة! لن تحتاج إليها مرةً أخرى أبدًا. يقولون إنها ماتت؛ منذ سنوات، في لندن. كانت هناك عباءتها القديمة الرمادية التي كانت ترتديها وهي تعتني بالحديقة (مستها السيدة ماكناب بأصابعها). يمكنها أن تراها، وهي تصعد الطريق ومعها الغسيل، منسلةً عبر زهورها (الحديقة أصبحت الآن منظرًا مؤسفًا، كل شيء فيها يؤول إلى الخراب، والأرانب تقفز عليك من فوق الأسرَّة)- يمكنها أن تراها بصحبة أحد أطفالها وهي في عباءتها الرمادية تلك. كانت هناك أحذية ذات رقبة وأخرى عادية؛ وفُرَش وأمشاط متروكة على التسريحة، لأنها من جميع النواحي كانت تتوقع أنها عائدةٌ غدًا. (يقولون إنها في النهاية ماتت بشكل مفاجئ تمامًا). ولا بد أنهم كانوا قادمين ذات يوم، لكنهم توقفوا عن القدوم، بسبب اندلاع الحرب، وصعوبة السفر تلك الأيام؛ لم يأتوا مطلقًا كل تلك السنوات، فقط يرسلون لها النقود؛ لكنهم لم يكتبوا لها رسائل مطلقًا، لم يأتوا مطلقًا، ويتوقعون أن يجدوا الأشياء كما تركوها، آه، يا عزيزتي! لماذا تمتلئ أدراج التسريحة بالأشياء (سحبت الأدراج وفتحتها)، مناديل، أجزاء من شرائط زينة. نعم، تستطيع أن ترى السيدة رمزي وهي قادمة في الطريق ومعها الغسيل.

قد تقول، "مساء الخير، يا سيدة ماكناب".

كانت تعاملها بطريقة لطيفة. البنات كلهن أحببنها. لكن، يا عزيزتي،

أمور كثيرة تغيرت منذ ذلك الحين (أغلقت الدُّرج)؛ عائلات كثيرة فقدت أعزاءها. وهكذا هي أيضًا وافتها المنية؛ وقُتل السيد أندرو؛ والآنسة برو كذلك، كما قالوا، وهي تضع مولودها الأول؛ لكن الجميع في تلك الأيام فقدوا أشخاصا أعزاء عليهم. وارتفعت الأسعار بشكل مؤسف، ولم تنخفض أيضًا مرةً أخرى. وهي تستطيع أن تتذكرها جيدًا في عباءتها الرمادية.

قالت، "مساء الخير، يا سيدة ماكناب"، وطلبت من الطاهية أن تحتفظ لها بطبق من حساء الحليب- هذا بالضبط ما فكرت أنها تريده، وهي تحمل تلك السلة الثقيلة طوال الطريق من البلدة. بوسعها أن تراها الآن، منحنيةً على زهورها؛ ضعيفةً ومهزوزة، مثل شعاع أصفر أو الدائرة الموجودة في نهاية التليسكوب، سيدةً راقية في عباءة رمادية، منحنيةً على زهورها، ذهبت تتجول حول حائط حجرة النوم، وفوق التسريحة، وحول المغسلة، بينما السيدة ماكناب تعرج وهي تسير ببطء، تنفض الأتربة، وتسوى الأشياء. والآن تسأل نفسها، ما اسم الطاهية؟ ميلدرد؟ ماريان؟- اسم من هذا القبيل. آه، لقد نسيت تمامًا- إنها تنسى الأشياء. نارية، ككل النساء ذوات الشعر الأحمر. كن يتضاحكن كثيرًا. وكانت دائمًا موضع ترحيب في المطبخ. كانت تجعلهم يضحكون، بالفعل. كانت الأمور أفضل من الآن.

تنهدت؛ كان العمل يفوق كثيرًا قدرة امرأة بمفردها. هزت رأسها في هذه الناحية وتلك. كانت هذه حجرة الأطفال. غريبة، كانت كلها رطبة؛ والجص متساقط. ما الذي حدا بهم لأن يعلقوا جمجمة حيوان هنا؟ لقد تعفنت هي أيضًا. والفئران تجري في كل العلّيات. والأمطار هطلت داخلها. لكنهم لم

يكتبوا إليها أبدًا، ولم يأتوا أبدًا. بعض الأقفال غير موجودة، لذلك تنصفق الأبواب بعنف. ولذلك فهي لا تحب البقاء بمفردها في الطابق العلوي بعد مغيب الشمس. كان ذلك كثيرًا جدًّا على امرأة واحدة، كثيرًا جدًّا، كثيرًا جدًّا. جزت على أسنانها، أنَّت. صفقت الباب. أدارت المفتاح في القفل، وتركت المنزل وحيدًا، موصدًا، مغلقًا.

الفصل التَّاسـع

كان المنزل متروكًا؛ كان المنزل مهجورًا. كان مـتروكًا مثـل صَـدفَة على تـل رملي لتمتلئ ببلورات الملح الجافة التي غادرتها الآن الحيـاة. بـدا أن الليـل الطويل قد استقر؛ وتيارات الهواء العابثة، التي تقضمه على مهل، والأنفـاس الرطبة، التي تتحسسه وتتلمسه، بـدا أنهـا انتـصرت. صـدأت آنيـة المطـبخ وتهرأت ممسحة الأحذية. دست الضفادع أنفها فيه. والشال يتـأرجح للأمـام وللخلف، بكسل، وبلا هدف. ألقت نباتات شائكة بنفسها بين القرميـد في غرفة حفظ اللحوم. بنت طيور السنونو أعشاشها في حجـرة الاسـتقبال؛ اكتست الأرضـية بـالقش؛ سـقط الجـص أكوامًـا؛ تعـرت ألـواح الـسقف الخشبية؛ نقلت الفئران هذا وذاك لتحفر وراء الكسوة الخـشبية للجـدران. خرجت الفراشات من طور اليرقة وواصلت أطوار حياتها على زجاج النوافذ. نبت الخشخاش من تلقاء نفسه بين زهور الداليـا؛ مـاج المـرج بالأعـشاب الطويلة؛ شمخ خرشوف عملاق بين الـورود؛ ازهـرت أزهـار القرنفـل ذات

الأهداب وسط الكرنب؛ بينما استحال النقر اللطيف للأعشاب على النافذة، في ليالي الشتاء، إلى قرع طبول من الأشجار القوية والورود الشائكة البرية التي جعلت الحجرة كلها خضراء في الصيف.

فأية قوى الآن بوسعها أن تمنع الخصوبة، وعدم إدراك الطبيعة؟ مَن يمنع حلم السيدة ماكناب بسيدة مهذبة، وطفل، وطبق من حساء الحليب؟ لقد ترنح مستندًا إلى الحوائط مثل بقعة من شعاع الشمس وتلاشى. أغلقت الباب، ورحلت. قالت إن الأمور تفوق قدرات امرأة بمفردها. لم يرسلوا لها أحدًا أبدًا. لم يكتبوا لها أبدًا. كانت هناك أشياء تتعفن في الأدراج العلوية- قالت، من العار أن تترك تلك الأشياء هكذا. كان المكان يوشك أن ينهار ويخرب. وحده الشعاع القادم من الفنار كان يدلف إلى الحجرات لوهلة، فيرسل نظرته المحدقة فوق الفراش فجأة وفوق الحائط في عتمة الشتاء، ينظر برصانة نحو النباتات الشائكة وطيور السنونو، والفئران والقش. لا شيء الآن يقاومهم؛ لا شيء يردعهم. فلتهب الريح؛ فلينَمُ الخشخاش من تلقاء نفسه، وليختلط القرنفل مع الكرنب. فليَبنِ السنونو أعشاشه في حجرة الاستقبال، والنباتات الشائكة تلقي بنفسها جنبًا إلى جنب القرميد، والفراشات تتشمَّس على القماش القطني المطبوع الذي بهت لونه على المقاعد ذات المساند. فليظل الزجاج المشهم والفخار المكسر ملقًى على المرج مختلطًا بالعشب والتوت البري.

فالآن حانت تلك اللحظة، ذلك التردد حين يرتعش الفجر ويتمهل الليل، حين تهبط ريشة طائر في كفة الميزان فترجحها. ريشة واحدة، والمنزل،

غارقًا، منهارًا، قد التوى وترنح نحو الأسفل إلى أعماق الظلام. وفي الغرفة الخربة، أشعل المتنزهون غلاياتهم للشاي؛ وبحث العشاق هناك عن ملاذ، ممددين على الألواح الخشبية العارية؛ وخزن الراعي طعامه بين القرميد، ونام عابر السبيل ملتفًّا بمعطفه محتميًا به من البرد. ثم سقط السقف؛ وانتشرت الورود البرية ونبات الشوكران السام على الممر، والعتبة والنافذة؛ نبت، بشكل غير متساو لكن بشراهة فوق الرابية، حتى ضل أحد المعتدين على الأملاك طريقه، فلم يجد سوى أحواض زهور الكنيفوفيا الحمراء ذات السيقان الطويلة وسط نبات القراص ذي الوبر الشائك، أو شظية من إناء خزفي ملقاة بين نبات الشوكران السام، لتدل على أنه ذات يوم عاش هنا شخصٌ ما، وذات يوم كان هنا منزل.

وإن سقطت الريشة، إن هبطت بالميزان إلى أسفل، فسيغوص المنزل بأكمله إلى الأعماق ويتمدد على رمال النسيان. لكن كانت هناك قوة تعمل؛ شيءٌ ما ليس رفيع الوعي؛ شيءٌ ما ينظر شزرًا، شيء ما مترنح، شيءٌ ما غير ملهم للمضي في عمله مع طقس مبجل أو غناء مقدس. أتت السيدة ماكناب؛ جرَّت السيدة باست على أسنانها. كانتا عجوزين، كانتا يابستين؛ سيقانهما تتألم. أتتا في النهاية ومعهما مقشاتهما ودلاؤهما؛ وبدأتا العمل. فجأةً تمامًا، رأت السيدة ماكناب أن المنزل كان جاهزًا، فقد كتبت لها إحدى السيدات الصغيرات: عليها أن تنجز هذا الشيء؛ عليها أن تنجز ذاك الشيء؛ بسرعة. فربما يأتون هذا الصيف؛ وقد تركوا كل شيء حتى آخر لحظة؛ متوقعين أن يجدوا الأشياء كما تركوها. ببطء وألم، بالمقشة والدلو، مسحت السيدة ماكناب والسيدة باست الأرضيات، ونظفتا وصقلتا كل

شيء، وأزالتا الفساد والعفن؛ وأنقذتا من بركة الزمن التي كانت تقترب مسرعة منهما طستًا حينًا، وحينًا خزانة ملابس؛ وذات صباح أخرجتا من دائرة النسيان كل روايات ويفرلي وطاقم شاي؛ وفي الظهيرة وضعتا في الشمس والهواء سياج مدفأة نحاسيًّا وعددًا من أدوات تحريك الفحم في المدفأة. أمسك جورج، ابن السيدة باست، بالفئران، وجز العشب وهذبه. جاءا بالمعماريين. وإذ أولتا عناية بالغة لصرير المفصلات في الأبواب والنوافذ ومزاليج الأقفال، وانصفاق وقرقعة الأبواب الخشبية المشبعة بالماء، بدا أن ثمة مولودًا مُجهدًا واهنًا في سبيله للخروج إلى الحياة، بينما المرأتان، المنحنيتان، الناهضتان، المتأوهتان، المغنيتان، تندفعان وتتخبطان بقوة، في الطابق العلوي في لحظة، ثم تهبطان إلى البدرومات في لحظة أخرى. قالتا، أوه، إنه العمل!

كانتا تحتسيان الشاي في حجرة النوم أحيانًا، أو في المكتب؛ وهما تأخذان فترة راحة من العمل في منتصف النهار ووجهاهما ملطخان بالوسخ، وأياديهما الشائخة تتشبث وتتشنج على مقابض المقشات. وإذ ترتميان على المقاعد، تفكران حينًا في الانتصار العظيم على صنابير المياه والحمَّام؛ وحينًا في الانتصار الأكثر عناءً، الأكثر جزئيةً على الصفوف الطويلة من الكتب، التي كانت ذات يوم سوداء مثل الغربان، وأصبحت الآن ملطخةً بالبياض، تدفع الفطر الشاحب للتكاثر وتولد العناكب الهاربة. مرةً أخرى، وهي تشعر أن الشاى ساخن في يدها، ضبط التلسكوب نفسه من خلال عينَي السيدة مكناب، وفي حلقة من الضوء رأت السيد الراقي العجوز ينحني مثل الجاروف، وهو يهز رأسه، إذ أتت بالغسيل، معتقدةً أنه كان يتحدث إلى

نفسه، على المرج. لم يلاحظها مطلقًا. قال البعض إنه مات؛ قال البعض إنها ماتت. فأيهما كانت الحقيقة؟ ولم تعرف السيدة باست أيضًا على وجه الدقة. مات السيد الراقي الشاب. ذلك ما كان مؤكدًا. فقد قرأت اسمه في الصحف.

والآن كانت هناك الطاهية، ميلدرد، أو ماريان، اسم من هذا القبيل- امرأة ذات شعر أحمر، سريعة الغضب ككل نمطها، لكنها طيبة، أيضًا، إذا عرفت الطريقة المناسبة للتعامل معها. لقد ضحكتا كثيرًا معًا. كانت تعد طبقًا من الحساء لماجي؛ وقطعة من لحم الخنزير، أحيانًا؛ حسب ما هو جاهز. كانوا يعيشون حياة رغدة تلك الأيام. كان لديهم كل ما يريدونه (بعفوية، وبمرح، والشاى ساخن في يدها، أرخت خيط ذكرياتها، وهي جالسة على المقعد ذي المسندين المجدول من الأغصان قرب سياج مدفأة حجرة الأطفال). كان هناك دائمًا الكثير من العاملين في البيت، أحيانًا يقيم عشرون منهم، ويظلون ينظفون لوقت طويل بعد منتصف الليل.

السيدة باست (لم تعرفهم من قبل مطلقًا؛ كانت تعيش في جلاسكو في ذلك الوقت) تساءلت، وهي تضع كوبها جانبًا، ما السبب الذي حدا بهم لأن يعلقوا جمجمة الحيوان تلك؟ لاشك أنهم اصطادوها من بلاد خارجية.

قالت السيدة ماكناب، وهي تجهد نفسها في استدراج ذكرياتها، ربما كان ذلك كذلك؛ فقد كان لديهم أصدقاء في بلدان مشرقية؛ السادة يقيمون هناك، أما السيدات فيرتدين ثياب السهرة؛ لقد رأتهم ذات مرة من خلال باب حجرة الطعام وهم جالسون جميعًا يتناولون العشاء. يمكنها أن تجرؤ على القول إنهن كن عشرين يرتدين الحلي والجواهر، وقد طلبوا منها أن تبقى

للمساعدة في الغسيل، ربما إلى ما بعد منتصف الليل حتى.

قالت السيدة باست، آه، سيجدون كل هذا قد تغير. انحنت خارج النافذة. راقبت ابنها جورج وهو يجز العشب. ربما سيسألون، ما الذي حدث له؟ لأنه من المفترض أن العجوز كيندى كان مسئولًا عنه، لكن ساقه وصلت إلى حالٍ شديدة السوء بعد ما سقط من العربة؛ وربما بعد ذلك لم يتول أحد العناية به لمدة عام، أو تولاها شخصٌ لم يؤد عمله على أكمل وجه؛ ثم كان هناك ديفي ماكدونالد، وربما أُرسلت البذور، لكن مَن يستطيع أن يجزم بما إن كانت قد زرعت من الأصل؟ سيجدون الأمور قد تغيرت.

راقبت ابنها وهو يجز العشب. كان شابًّا يافعًا مناسبًا للعمل- شاب من أولئك الشبان الهادئين. حسنًا، افترضت أن عليهما العمل طويلًا بخصوص الخزانات. أنهضتا نفسيهما بصعوبة.

في النهاية، بعد أيام من العمل داخل المنزل، والجز والحفر خارجه، تم تنفيض المنافض من النوافذ، ثم أغلقت النوافذ دونها، ودارت المفاتيح في كل أنحاء المنزل؛ انصفق الباب الأمامي؛ وانتهى العمل.

والآن كأن التنظيف والحك والجز والتخزين والتخلص من القاذورات قد حجب الصوت وأضعفه فارتفع ذلك اللحن نصف المسموع، تلك الموسيقى المتقطعة التي تلتقطها الأذن نصف التقاط ثم تتخلى عنها؛ نباح، ثغاء؛ غير منتظم، متقطع، ومع ذلك مترابط بشكلٍ ما، همهمة حشرة، اهتزازة عشب يجز، غير متصلة ببعضها البعض لكنها بشكلٍ ما متناغمة، أزيز خنافس، صرير عجلة، مرتفع، منخفض، لكنه مترابط بطريقة غامضة،

شيء ما يقتضى جهدًا من الأذن ليصلها معًا ودائمًا على حافة التناغم، لكنه لا يُسمع مطلقًا بشكلٍ صاف، ولا يصل إلى حد التناغم التام مطلقًا، وفي النهاية، في المساء، واحدًا وراء الآخر تموت كل تلك الأصوات، ويصفو التناغم، ويحل الصمت. مع فقدان حدة شمس المغيب، ومثل غمامة ترتفع، ارتفع تمامًا، انتشر تمامًا، واستقرت الريح؛ هز العالم نفسه في ارتخاء لينام، بصورة مظلمة هنا دون بصيص ضوء، فيبقي على ما هو مخضب بالأخضر من خلال الأوراق، أو شاحب وسط الزهور البيضاء في المشتل بجوار النافذة.

[في وقت متأخر ذات مساء من سبتمبر أحضروا حقيبة لِيلي بريسكو إلى المنزل. وجاء السيد كارمايكل في نفس القطار].

الفصل العاشـــر

وقتئذٍ حل السلام بالفعل. نشرت رسائل سلام أنفاسـها مـن البحـر إلى الشاطئ. لن يُقطع نومه مرةً أخرى، ليهدهده بمزيد من العمق ليرتاح، أيًّا ما كانت أحلام الحالمين قدسيةً، رصينةً، للتأكيد- أي شيء آخر كان يتمتم بـه- إذ وضعت لِيلي بريسكو رأسـها على الوسـادة في الحجـرة الـساكنة النظيفـة وسمعت صوت البحر. من خلال النافـذة أتى صـوت جمـال العـالم متمتمًـا، شديد النعومة لتسمع بوضوح ما يقوله- لكن ما أهمية أن يكـون المعـنى واضحًا؟ مستعطفًا النائمين (كان المـنزل ممتلئًـا مـن جديـد، كانـت الـسيدة بيكويث جالسة هناك، وأيضًا السيد كارمايكل)، إن لم يـذهبوا بالفعـل إلى الشاطئ ذاته على الأقل ليرفعوا الستارة وينظروا إلى الخارج. سيرون عندئـذٍ الليل ينساب في عباءته الأرجوانية؛ ورأسه متوج؛ وصولجانه مرصَّع، وكيف يمكن أن يبدو طفلٌ في عينيه. وإذا ما ظلوا يتخبطون في سيرهم (كانت لِيلي متعبةً من السفر ونامت تقريبًا في الحال، لكن السيد كارمايكل راح يقرأ

كتابًا على ضوء شمعة)، لو ظلوا على موقفهم رافضين، أنه بخار، وأن إشراقه، والندى لديه من القوة ما هو أكثر مما هو عليه، وفضلوا النوم على ذلك؛ برقة ولطف آنئذٍ بلا شكوى، أو جدال، لغنَّى الصمت أغنيته. برقة ونعومة تكسرت الأمواج (سمعتها لِيلي أثناء نومها)؛ بلطف سقط الضوء (بدا أنه يخترق رموشها). وبدا كل شيء، كما فكَّر السيد كارمايكل، وهو يغلق كتابه، ويسقط في النوم، تمامًا كما اعتاد أن يبدو.

في الحقيقة قد يبدأ الصوت من جديد، فيما ستائر العتمة تلف نفسها حول المنزل، وحول السيدة بيكويث، والسيد كارمايكل، ولِيلي بريسكو لذلك رقدوا ملتفين بطبقات متعددة من الظلام على عيونهم، لماذا لم يتقبلوا ذلك، وهم راضون عنه، مذعنين مستسلمين؟ كانت تهدهدهم تنهدات كل البحار المتكسرة إلى حدٍّ ما حول الجزر؛ والليل يلفهم، لا شيء يقطع نومهم، إلى أن رفعت الشمس الستائر، ومزقت الحجاب عن عيونهم، فيما تبدأ الطيور وينسج الفجر أصواتها الرقيقة مندمجةً في إشراقه، وعربة ترتطم، وكلب ينبح في مكانٍ ما، وتتحرك لِيلي بريسكو في نومها حركة خفيفة. تتشبث بأغطيتها مثلما يتشبث بحفنة أعشاب شخصٌ يهوي من على حافة جرف. تفتح عينيها على اتساعهما. فكرت، ها هي هنا مرةً أخرى، وجلست بشجاعة مستقيمة في فراشها. استيقظت.

الجزء الثَّـــالث

الفنَـــار

الفصل الأول

ما معنى ذلك إذن، ماذا يمكن أن يكون معنى هذا كله؟ هكذا سألت لِيلي بريسكو نفسها، وهي حائرة، لأنهم تركوها في المكان بمفردها، هل من المستحسن أن تذهب إلى المطبخ بنفسها وتحضر قدحًا آخر من القهوة أم تنتظر هنا. ما معنى هذا؟- كانت تلك عبارة مقتبسة، التقطتها من كتابٍ ما، تناسب فكرتها بشكل فضفاض، لأنها لم تستطع، في هذا الصباح الأول مع آل رمزي، أن تقلص من مشاعرها، فليس بوسعها سوى التفكير في عبارة رنانة تغطى بها الفراغ المسيطر على ذهنها إلى أن تختفي هذه الأبخرة. لأنه حقيقة، ما الذي كانت تشعر به، لدى عودتها بعد كل هذه السنوات وموت السيدة رمزي؟ لا شيء، لا شيء- لا شيء يمكنها أن تعبر به مطلقًا.

لقد وصلت في ساعة متأخرة ليلة أمس حين كان كل شيء يلفه الغموض، والظلام. والآن ها هي مستيقظة، في نفس مكانها القديم المعتاد

أمام مائدة الإفطار، لكنها وحيدة. كان أيضا الوقت مبكرًا جدًّا، فلم تصل الساعة إلى الثامنة بعد. كانت هناك تلك الرحلة السريعة- كانوا ينوون الذهاب إلى الفنار، السيد رمزي، كام، وجيمس. لابد أنهم ذهبوا بالفعل- كانوا عليهم أن يلحقوا بالمد أو شيء من هذا القبيل. ولم تكن كام مستعدة ولم يكن جيمس مستعدًّا ونسيت نانسي أن تأمر بإعداد الساندويتشات وفقد السيد رمزي مزاجه وصفق الباب بعنف وهو يخرج من الحجرة.

قال غاضبا، "ما فائدة الذهاب الآن؟"

اختفت نانسي. كان هو هناك، يجوب الشرفة ذهابًا وإيابًا في غضب. يمكن للمرء أن يسمع أصوات الأبواب تنصفق بعنف وأصواتهم تتنادى في كل أنحاء البيت. الآن انفجرت نانسي صارخة، وهي تسأل، وتنظر في أرجاء الحجرة، بطريقة غريبة شبه مصابة بالدوار، شبه يائسة، "ما الذي يرسله الناس إلى الفنار؟" كما لو كانت ترغم نفسها على فعل ما هي يائسة تمامًا من قدرتها على فعله.

حقًّا ما الذي يرسله الناس إلى الفنار! كان يمكن في أي وقت آخر لِلِيلي بريسكو أن تقترح مثلًا الشاي، والتبغ، والصحف. لكن هذا الصباح بدت كل الأشياء غريبة بشكل مبالغ فيه حتى أن سؤالًا مثل سؤال نانسي- ما الذي يرسله الناس إلى الفنار؟- فتح الأبواب في ذهنها فراحت تتخبط بعنف وتتأرجح للأمام وللخلف وجعلها تظل تسأل، وهي تفغر فمها بطريقة غبية، ما الذي يمكنها أن ترسله؟ ما الذي يمكنها أن تفعله؟ لماذا تجلس هنا أصلًا؟

جالسةً وحيدةً (لأن نانسي خرجت مجددًا) وسط الأقداح النظيفة على

المائدة الكبيرة، شعرت أنها منفصلة عن الآخرين، وغير قادرة على أي فعل سوى الاستمرار في الفرجة، والسؤال، والدهشة. فالمنزل، والمكان، والصباح، وكل شيء بدا غريبًا عليها. شعرت أنه لا شيء هنا تربطها به صلة، لا علاقة لها بشيء، أي شيء قد يحدث، ومهما يكن ما حدث، فالأمر لا يتعدى خطوة للخارج، سمعت صوتًا ينادى (كان أحدهم يصيح "إنه ليس في الخزانة، إنه على بسطة السلم"). كان سؤالًا، كأن تلك الرابطة التي كانت عادة تربط الأشياء معًا قد انفصمت، وأنهم عائمون هنا بأعلى، وأسفل، وبالخارج، على أية حال. كم كان الأمر بلا جدوى، كم كان مشوشًا، زائفًا، فكرت هكذا، وهي تتطلع إلى قدح قهوتها الفارغ. ماتت السيدة رمزي، وقُتل أندرو، وماتت برو أيضًا- فلتكرر ذلك كما تشاء، فهو لا يثير أية مشاعر داخلها. وها نحن مجتمعون معًا في منزل كهذا في صباح كهذا. تطلعت خارج النافذة. إنه يوم لطيف ساكن.

فجأةً رفع السيد رمزي رأسه أثناء مروره بجوارها ونظر مباشرةً إليها، بتحديقته الذاهلة الشرسة التي كانت لا تزال نافذة بشدة، كأنه يراك، لمدة ثانية واحدة، للمرة الأولى، وإلى الأبد؛ وتظاهرت أنها ترشف من قدحها الفارغ لتتجنبه- لتتجنب تَطَلُّبَه منها، لتؤجل جانبًا لدقيقة أخرى تلك الحاجة الملحة. وهز رأسه لها، وواصل خطواته (سمعته يقول، "وحدها"، سمعته يقول "ماتت") ومثل كل شيء آخر في هذا الصباح الغريب تحولت الكلمات إلى رموز، دونت نفسها بنفسها على كل مساحات الحوائط القاتمة. شعرت، لو أنها فقط تستطيع أن تجمعها معًا، أن تكتبها في عبارة، ربما وقتها تصل إلى حقيقة الأشياء. دخل السيد كارمايكل العجوز بخطوات

هادئة وناعمة، وجلب قهوته، وأخذ قدحه وخرج بـه ليجلـس في الـشمس. كان الزيف غير العادي مرعبًا، لكنه أيـضًا كان مثـيرًا. الذهـاب إلى الفنـار. لكن ما الذي يرسله الناس إلى الفنـار؟ ماتـت. وحـدها. الـضوء الـشاحب الكئيب على الحائط المقابل. الأماكن الفارغة. كانت كل تلك الكلمات تقـع ضمن بعض أجزاء تلك العبارة، سألت، لكن كيف يمكـن جمعهـا معًـا؟ وكما لو كانت أية مقاطعة ستحطم الـشكل الهـش الذي كانـت تكونـه على المائدة أدارت ظهرها نحو النافذة لئلا يراها السيد رمزي. لا بد أن تهـرب إلى مكانٍ ما، أن تكون بمفردها في مكانٍ ما. فجأةً تذكرت. عندما كانت تجلس هنا قبل آخر عشرة سنوات مضت كان هناك غصن صغير أو نمـوذج لورقـة شجرة على مفرش المائدة، تطلعت إليه في لحظة إلهـام. قالـت، كانـت هنـاك مشكلة بصدد خلفية لوحة. قالت، كان عليها أن تنقل الشجرة إلى منتـصف اللوحة. لم تكمل هذه اللوحة مطلقًا. ولا بد أن ترسم هذه اللوحـة الآن. كان ذلك الموضوع يتطرق كثيرًا إلى ذهنها طوال تلـك الـسنوات. تـساءلت، أيـن ألوانها؟ نعم، ألوانها. لقد تركتها في حجرة الاستقبال البارحة. عليها أن تبـدأ في الحال. نهضت من مكانها مسرعةً، قبل أن يلتفت إليها السيد رمزي.

أحضرت لنفسها مقعدًا. فردت الحامل بنفس حركاتها العذراوية القديمة بدقة على حافة المرج، ليست ملاصقة للسيد كارمايكل، لكنها قريبـة بمـا يكفي من حمايته لها. نعم، لا بد أن هذا هو تمامًا نفـس المـكان الذي كانـت تقف فيه منذ عـشر سـنوات مـضت. هنـاك الحـائط، والـسياج الـشجري، والشجرة. كان موضوع اللوحة يدور حول علاقة هذه الكتل ببعضها بعـضًا. كانت لا تزال تحتفظ به في ذهنها طيلة كل تلك السنوات. بدا كأن الخـلاص

والحل قد واتاها: أدركت الآن ما تريد أن تفعله.

لكن مع اندفاع السيد رمزي نحوها، لم يمكنها أن تفعل شيئًا. كل مرة اقترب منها فيها- كان يسير جيئةً وذهابًا عبر الشرفة- اقترب معه الدمار، واقتربت الفوضى. ليس بوسعها أن ترسم. تحركت متسللة، التفتت، التقطت قطعة القماش المهلهلة، ضغطت على أنبوبة الألوان معتصرةً لها بين أصابعها. لكن كل ذلك فعلته لمجرد أن تتفاداه للحظة. فقد جعل من المستحيل عليها أن تفعل أي شيء. فلو منحته أقل فرصة، لو أنه رآها غير مشغولة بشيء تفعله للحظة واحدة، لو نظر إلى طريقه أمامه للحظة واحدة، فسيكون بجوارها، يقول، كما قال الليلة الماضية، "أنت تجدين أننا تغيرنا كثيرًا"، في الليلة الماضية سار نحوها وتوقف أمامها، وقال ذلك. منقبضًا ومحملقًا فيهم على الرغم من أنهم كلهم جالسون، الأولاد الستة الذين اعتادوا أن يناديهم الآخرون بألقاب ملوك وملكات إنجلترا- الأحمر، العادل، الشرير، القاسي- شعرت كم يفورون غضبًا تحت سيطرة تلك الألقاب عليهم. والسيدة بيكويث العجوز الطيبة قالت شيئًا حكيمًا. لكنه كان منزلًا مليئًا بالمشاعر المفككة التي لا رابط بينها- شعرت بذلك طول المساء. وعلى قمة هذه الفوضى نهض السيد رمزي، ضغط على يدها، وقال :"ستجدين أننا تغيرنا كثيرًا"، ولم يتحرك أحد منهم أو ينطق بكلمة، بل ظلوا جالسين في أماكنهم كما لو كانوا مرغمين أن يتركوه يقول ذلك. وحده جيمس نظر نحو المصباح نظرة عابسة (مؤكدٌ أنها عابسة)، ولفت كام المنديل حول إصبعها. عندئذٍ ذكرهم أنهم ذاهبون غدًا إلى الفنار. وعليهم أن يكونوا مستعدين، في مدخل المنزل، في السابعة والنصف تمامًا. ثم توقف، ويده على الباب،

واستدار نحوهم. طالبهم بإجابة عن سؤاله، ألا يريدون الذهاب؟ هل يجرؤون على الرفض (لديه سبب معين يدفعه للذهاب) قد يقذف بنفسه بمأساوية إلى الوراء في مياه اليأس المريرة. فلديه هبة التعبير بالإشارات والإيماءات تعبيرًا عما يريد أن يقوله. بدا كملك في المنفى. قال جيمس نعم بطريقة عنيدة. تلعثمت كام بطريقة أكثر بؤسًا. قالوا، نعم، أوه، نعم، سيكونون جميعًا مستعدين. وصدمها هذا، كان مأساويًّا- ليس النعش، والتراب، والكفن، بل الأولاد المجبرين على الطاعة والخنوع، وأرواحهم المقهورة. كان جيمس في السادسة عشرة من عمره، وكام، ربما، في السابعة عشرة. تطلعت حولها بحثًا عن شخص غير موجود في المكان في هذه اللحظة، محتمل، أن تكون السيدة رمزي. لكن كانت هناك فقط السيدة بيكويث الطيبة تقلب في تخطيطات لوحاتها تحت المصباح- عندئذٍ، لأنها متعبة، وعقلها لا يزال يرتفع وينخفض مع البحر، استحوذ عليها المذاق والرائحة التي تحتفظ بها الأماكن بعد غياب طويل. ارتعشت الشموع في عينيها، فقدت ذاتها وذوت. كانت ليلة رائعة، تضيؤها النجوم، وتبدو الأمواج كأنها صعدت إلى الطابق العلوي، أدهشهم القمر، ضخم، شاحب، وهم يمرون بنافذة بسطة الدرج. ونامت في التو.

ثبتت القماش النظيف على الحامل، كحاجز، هش، لكنها أملت في أن يكون أساسًا كافيًا لتجنب السيد رمزي وإلحاحه. عندما استدار بظهره، بذلت أقصى جهدها لتنظر إلى لوحتها؛ ذلك الخط هنا، تلك الكتلة هناك. لكن الأمر كان خارج نطاق المناقشة. فليكن على بُعد خمسين قدمًا، بل لا تدعيه حتى يتحدث معك، لاَ يراكِ، لكنه اخترق، انتشر، وفرض نفسه. غيَّر

كل شيء. لم تستطيع رؤية الألوان؛ لم تستطيع رؤية الخطوط؛ حتى وهو يوليها ظهره، لم تستطع سوى أن تفكر، لكنه سيكون هنا بجواري بعد برهة، مطالبًا- بشيءٍ ما تشعر أنها لا تستطيع أن تمنحه له. أزاحت إحدى الفُرش؛ واختارت أخرى. متى يخرجون جميعًا؟ تململت في عصبية. فكرت، وغضبها يتصاعد داخلها، ذلك الرجل، لم يعط مطلقًا، ذلك الرجل يأخذ فقط. وهي، على الجانب الآخر، ستكون مرغمة على أن تمنح. فالسيدة رمزي منحت. ظلت تمنح، وتمنح، وتمنح، وماتت- وتركت كل هذا. حقيقةً، كانت غاضبة من السيدة رمزي. والفرشاة ترتعش رعشة طفيفة بين أصابعها نظرت نحو السياج الشجري، وعتبة الباب، والحائط. كان كل هذا من صنع السيدة رمزي. وماتت. وهنا كانت لِيلي، في الرابعة والأربعين، تضيع وقتها، غير قادرة على إنجاز شيء، تقف هنا، تلعب بالرسم، تلعب بالشيء الوحيد الذي لا يلعب به أحد، وكل ذلك كان خطأ السيدة رمزي. وماتت. والعتبة التي اعتادت أن تجلس عليها صارت فارغة. وماتت.

لكن لماذا تكرر هذا مراتٍ ومرات؟ لماذا تحاول دائمًا استثارة مشاعر ليست موجودة لديها؟ كان ثمة نوع من التجديف في ذلك. كانت جميعًا أفكارًا جافة: جميعًا ذابلة: جميعًا مستهلكة. لم يكن ينبغى عليهم أن يطلبوا منها أن تأتي، ولا هي كان ينبغي أن تأتى. فكرت أنه لا ينبغى على الإنسان أن يبدد وقت الآخرين وهو في الرابعة والأربعين من عمره. لقد كرهت اللعب بالرسم. الفرشاة، هي الشيء الوحيد الذي يُعتمد عليه في عالم من النزاع، والخراب، والفوضى- ذلك الشيء لا ينبغى اللعب به، خاصة وهي على دراية: كانت تكره ذلك. لكنه هو من جعلها تفعل هذا. بدا كأنه يقول لها، وهو

يندفع نحوها، لا ينبغى عليكِ أن تلمسي قماش اللوحة، حتى تعطيني ما أريده منك. ها هو، فوق رأسها مرةً أخرى، شرهًا، ذاهلًا. حسنًا، فكرت لِيلي في يأس، وهي تترك يدها اليمنى تسقط جانبًا، سيكون الأمر أكثر بساطة أن ننهيه تمامًا. مؤكد، يمكنها أن تستدعي من ذكرياتها تقليد الإحمرار خجلًا، الطرب والجذل، والاستسلام. لقد رأت ذلك على وجوه الكثيرات من النساء (على وجه السيدة رمزي، على سبيل المثال) حين يتقدن حُمرةً في مناسبة مثل هذه- يمكنها أن تتذكر تلك النظرة على وجه السيدة رمزي- في نشوة التعاطف، والسرور على المكافأة التي حصلن عليها، التى، على الرغم من أنها نسيت سببها، إلا أنه أضفى عليهن بوضوح البركة الأقدس التي تستطيعها الطبيعة البشرية. ها هو، واقف بجوارها. ستمنحه ما تستطيع.

الفصل الثَّـــاني

فكر، أنها قد ظهر عليها القليل من الوهن. بدت هزيلـة قلـيلًا، هـشة؛ لكنها لا تفتقر للجاذبية. كان معجبًا بهـا. ذات مـرة كانـوا يتحـدثون عـن زواجها من وليام بانكس، لكن شيئًا من هذا لـم يحـدث. كانـت زوجتـه مولعةً بها. أيضًا كان ذات مرة في مزاج سيء قلـيلًا على الإفطـار. وعندئـذٍ، عندئذٍ- تلك كانت إحدى تلك اللحظات التي يتحرك فيها مـدفوعًا بحاجـة هائلة، دون أن يعي ما هي، أن يقترب من أية امرأة، أن يقتحمهـا، لـم يكـن يبالي بالطريقة، كانـت حاجتـه كبـيرة جـدًا، لأن تمنحـه المـرأة مـا يريـد: التعاطف.

قال، هل هناك أي شخص مهتم بها؟ هل لديها كل ما تحتاج إليه؟

قالت لِيلي بريسكو بعـصبية، أوه، شـكرًا، كل شيء على مـا يـرام. لا، لـم تستطع أن تفعل. كان عليها أن تطفو بعيدًا سريعًا فوق أية موجة من التمـدد

المتعاطف: كان الضغط عليها هائلًا. لكنها بقيت عالقـة. كان ثمـة صـمت مروع. نظر كلاهما نحو البحر. فكر السيد رمزي، لماذا تنظـر نحـو البحـر عندما أكون هنا؟ قالت، إنها تتمنى أن يكون الجو هادئًا بما يكفي ليسمح لهم بالذهاب إلى الفنار. الفنار! الفنار! ماذا سيفعلون به؟ فكر في ذلك وهـو نافد الصبر. في الحال، بقوة دفع انفجار عاطفي بدائي (لأنه حقيقةً لا يمكنـه أن يكبح ذاته أكثر من ذلك)، وفي تلك اللحظة ندت عنه تلك الأنَّة الـتي ستجعل أية امرأة أخرى في العالم كله تفعل شيئًا، تقول شيئًا- كلهـن إلاي، فكرت لِيلي في ذلك، وهي تسخر من نفسها بمرارة، أنا لست امـرأة، بـل قـد أكون مجرد عانس عجوز نكدة، سيئة المزاج، ذابلة.

تنهد السيد رمزي تنهيدة طويلة. انتظر. ألن تقول شيئًا؟ ألم ترَ ما يريده منها؟ عندئذٍ قال إن لديه سببًا وجيهًا لرغبته في الذهـاب إلى الفنـار. كانـت زوجته معتادة على أن ترسل بعض الأشياء إلى الخفر هناك. هناك ولدٌ مسكين مصاب بداء سُل المفاصل في مفصل فخذه، ابن حارس الفنار. تنهد بعمـق. تنهد تنهيدة ذات مغزى. كل ما كانت تريده لِيلي هو هذا الفيض الهائـل مـن الحزن، هذا الجوع النهم للتعاطف، هذا الإلحـاح الذي ستستـسلم له كليـةً، وحتى لو كانت لديه أحزانٌ كثيرة لتدعمه للأبد، فكل ما كانت تريـده هـو أن يتركها، أن يبتعد عنها (ظلت تنظر إلى المنزل، على أمـل أن يقاطعهمـا أحـد) قبل أن يجرفها في فيضانه.

قال الـسيد رمـزي، وهـو ينـبش الأرض بأصـابع قدميـه، "مثـل تلـك الرحلات مؤلمةٌ للغاية"، لا تزال لِيلي لا تقول شيئًا. (قال لنفسه، إنهـا كتلـة

خشب، إنها صخرة). قال، "إنها مرهقة بشدة"، وهو ينظر، نظرة واهنة بائسة أصابتها بالغثيان (أحست أنه يمثل، هذا الرجل العظيم يمسرح نفسه)، بيديه الجميلتين. كان مرعبًا، كان بذيئًا. تساءلت، ألن يأتوا أبدًا، لأنها لم تعد تحتمل هذا الثقل الهائل من الأسى، (كان يقف متخذًا وضعًا ادعائيًّا بالعجز إلى أقصى حد؛ بل إنه ترنح قليلًا في وقفته تلك)، ولا أن تحتمل هذه الأغطية الفضفاضة من الأحزان دقيقةً أخرى.

ما تزال عاجزةً عن قول شيء؛ بدا الأفق بأكمله قد فرغ من الموضوعات التي يمكن الكلام بشأنها؛ يمكنها فقط الشعور، بصورة مدهشة، والسيد رمزي واقفٌ هناك، كيف كانت نظرته المتفرسة تبدو كأنها تسقط بكآبتها على العشب الذي تنعكس عليه أشعة الشمس فتغير لونه، وتحوله إلى لون داكن الحمرة، ناعس، صورة قانعة تمامًا من السيد كارمايكل، وهو يقرأ رواية فرنسية على مقعد طويل قابل للطي، كحجاب من قماش الكريب، كأن مثل هذا الوجود، الذي يفيض بازدهاره في عالم من المحن، كان كافيًا لإثارة الأفكار الأكثر وحشة مما سواها. وإذ نظرت إليه، بدا كأنه يقول، انظروا إليَّ؛ وفعلاً، فطوال الوقت كان يشعر، **فكروا** فيَّ، فكروا فيَّ. آه، تمنت لِيلي لو أمكن فقط أن تندفع تلك الكتلة قريبًا منهما ولو قليلًا؛ لو فقط بسطت حامل لوحات الرسم ياردةً أو اثنتين مقتربة منه؛ فأي رجل كان سيوقف هذا الاندفاق، هذا النواح. ولو كانت هنا أية امرأة لاستثارت هذا الرعب؛ امرأة، لعرفت كيف تتعامل مع الموقف. كان هذا أكبر بكثير من أن ترفض تصديقه، جنسيًّا، أن تقف هناك كالخرساء. قد تقول امرأة- ماذا كان يمكن أن تقول؟ أوه، سيد رمزي! عزيزي سيد رمزي! هذا ما كانت

ستقوله تلك السيدة الطيبة العجوز التي رسمتها في لوحتها، السيدة بيكويث، في الحال، وعن صواب. لكن، لا. فقد وقفا هناك، معزولين عن باقي العالم. ورثاؤه الهائل لذاته، وإلحاحه على التعاطف انصب وانتشر في برك تحت أقدامهما، وكل ما فعلته، تلك المذنبة البائسة، أن سحبت تنورتها قليلًا حول كاحليها، حتى لا تبتل. وفي صمت مطبق وقفت هناك، تمسك بفرشاتها.

لا يمكن أبدًا حمد السماء بما يكفي! فقد سمعت أصواتًا في المنزل. لابد أن جيمس وكام قادمان. لكن السيد رمزي، كأنه أدرك أن وقته معها قد أصبح قصيرًا، أجهد نفسه إزاء شخصيتها المنزوية في ممارسة الضغط الهائل بمصيبته المركزة؛ عُمره، وهشاشته: خرابه؛ حين خبط فجأةً رأسه بنفاد صبر، في انزعاجه- فأية امرأة تلك التي تقاومه؟- فلاحظ أن رباط حذائه غير مربوط جيدًا. كان حذاء ثمينًا أيضًا، فيما فكرت لِيلي، وهي تنظر إلى الحذاء: منحوتًا، ضخمًا، ككل الأشياء التي كان السيد رمزي يرتديها، بدايةً من ربطة عنقه المتهرئة إلى صدريته نصف المزررة، وعدم قابليته للنقاش. بوسعها أن تراهم يسيرون متجهين نحو حجرته من تلقاء أنفسهم، معبرين في غيابه عن إثارته للشفقة، وفظاظته، ونكده، وسحره.

صاحت، "يا له من حذاء بديع!" كانت تشعر بالخزى من نفسها. أن تمتدح حذاءه ذا الرقبة حين يطلب منها أن تعزي روحه؛ عندما أراها يديه النازفتين، وقلبه الممزق، وطلب منها أن تشفق عليهم، فتقول في مرح، "آه، لكن يا له من حذاء بديع ذلك الذي ترتديه!" كانت تعرف، أنه يستحق ذلك، وتطلعت إلى أعلى متوقعة أن تجد في إحدى زمجراته المفاجئة النابعة

من مزاجه النكِد وغضبه إنهاءً تامًّا للموقف.

بدلًا من ذلك، ابتسم السيد رمزي. سقط عنه حجابه، وغطاؤه الفضفاض، وعجزه. قال، آه، نعم، وهو يرفع حذاءه إلى أعلى ليمكنها من رؤيته جيدًا، كان حذاءً ذا رقبة من أفضل طراز. وهناك رجل واحد في انجلترا كلها يستطيع أن يصنع حذاءً مثله. قال، الحذاء ذو الرقبة يقع ضمن أهم اللعنات التي تصيب البشرية. صاح، "صُناع الأحذية ذات الرقبة شغلهم الشاغل أن يجعلوا قدم الإنسان تصاب بالعرج وتتعذب". وهم أيضًا المرض العضال الأكثر استعصاءً على العلاج وحمقًا في الجنس البشري. لقد اقتضى منه الأمر أحلى جزء في أيام شبابه ليجد الحذاء المصنوع كما ينبغي أن يكون. أرادها أن تلاحظ (رفع قدمه اليمنى ثم رفع اليسرى) أنها لم ترَ في حياتها حذاءً ذا رقبة مطابقًا لهذا الشكل من قبل. إنه حذاء مصنوع من أفضل جلد في العالم، كذلك. فمعظم الجلد ليس سوى ورق بني وكرتون. نظر إلى قدمه برضًى، وهي لا تزال معلقة في الهواء. شعرت، أنهما وصلا إلى جزيرة مشمسة يسكنها السلام، وتهيمن عليها الحكمة، والشمس مشرقة فيها إلى الأبد، جزيرة الأحذية المباركة ذات الرقبة. استكان قلبها إليه. قال، "والآن دعيني أرى إن كنت تستطيعين أن تربطيه جيدًا". سخر من طريقتها الضعيفة. أراها اختراعه الخاص. بمجرد أن تربطيه، لن ينفك أبدًا. ثلاث مرات ربط حذاءها، وثلاث مرات فكه.

غريبة، ففي تلك اللحظة غير الموفقة بالمرة، عندما كان ينحني فوق حذائها، هل كانت تتعذب بتعاطفها معه إلى حد أنها، حين انحنت هي أيضًا،

تدفق الدم في وجهها، وإذ فكرت في صلابتها (أطلقت عليه ممثل المسرح) أحست بعينيها تنتفخان وتخِزَانها بالدمع؟ وهو مشغولٌ هكذا بدا لها إنسانًا مثيرًا للشفقة بلا حدود. ربط عُقد رباط الحذاء. اشترى أحذيةً ذات رقبة. لم يكن هناك مَن يساعد السيد رمزي في الرحلة التي يزمع القيام بها. لكن الآن ها هي تتمنى أن تقول له شيئًا، ربما، أصبح بمقدورها أن تقول شيئًا، ها هما- كام وجيمس. ظهرا عند الشرفة. تقدما، يتلكآن، جنبًا إلى جنب، ثنائيًّا جادًّا، كئيبًا.

لكن لماذا أتيا بهذا **الشكل**؟ لم تستطع أن تكبح إحساسها بالانزعاج منهما، ربما كان عليهما أن يأتيا بشكل أكثر مرحًا، ربما كان عليهما أن يمنحاه، الآن وهما هنا، ما لن يكون لديها الفرصة لتمنحه إياه. فقد شعرت بالفراغ المباغت، وبالإحباط. تأخرت مشاعرها كثيرًا في الوصول. وها هي الآن مستعدة، لكنه لم يعد بحاجة إليها. لقد أصبح رجلًا مُسنًّا، شديد التميز، لا يحتاج إليها بأي شكل. أحست بالصدود. قذف بحقيبة ظهره على كتفيه. تقاسم اللفائف مع ولديه- كان هناك عدد منها، ملفوفة لفًّا غير محكم في ورق أصفر داكن. أرسل كام لتحضر له عباءته. كان لديه كل مظاهر القائد الذي ينجز إجراءاته استعدادًا للقيام برحلة. ثم، وهو يستدير، ويتطلع حوله، قاد الطريق بخطواته العسكرية الحاسمة، في ذلك الحذاء الرائع ذي الرقبة، حاملًا لفائفه المغلفة بالورق الأصفر الداكن، وهبط إلى الممر، وولداه يتبعانه. فكرت، إنهما يبدوان كأن القدَر قد حتم عليهما مغامرة قاسية، وأنهما ذاهبان إليها، مع أنهما لا يزالان صغيرين على الانجرار مذعنين في عطلة والدهما، لكن عيونهما المتقعة جعلتها تشعر أنهما

يعانيان في صمت شيئًا ما أكبر من عمريهما. هكـذا تجـاوزوا حافـة المـرج، وبدا لِلِيلي أنها تراقب سير موكب، مجرور بضغط من مشاعر مبتذلة جعلتـه فيما يترنح ويخور رفقةً صغيرة مرتبطة معًا ومؤثرة بشكل غريب فيها. بأدب، لكن من بعيد جدًّا، رفع السيد رمزي يده وحياها وهم يمرون.

فكرت، لكـن يا له من وجـه، سرعان مـا عـثر على التعـاطف الذي لـم يطلب منها أن تتعب نفسها وتعبر له عنه. ما الذي جعله هكـذا؟ افترضـت أنه التفكير، ليلة وراء ليلة- في حقيقة موائـد المطـبخ، فيمـا أضـافت، وهي تتذكر في حالتها الضبابية الرمز الذي ظن السيد رمزي أن أندرو منحها إياه. (ذكرت نفسها أنه لقى حتفه في الحال على إثر انفجار قذيفـة). كانـت مائـدة المطبخ شيئًا مثاليًّا، بالغ البساطة، شيئًا مجـردًا، صـلبًا، يفتقـر للزخرفـة. لـم يكن بها ألوان؛ كانت كلهـا عبـارة عـن حـواف وزوايـا؛ كانـت مـسطحة بصلابة. لكن السيد رمزي كان دائمًا مـا يثبـت عينيـه عليهـا، لا يـسمح لنفسه مطلقًا أن يلهيه أو يضلله عنها أي شيء، إلى أن يصبح وجهه مرهقًـا للغاية وزاهدًا ومشاركًا بهذا الجمال النقي الخالي من الزخرفة الذي يترك فيـه انطباعات عميقة. ثم، تـذكرت (وهي واقفـة حيـث تركهـا، ممـسكة بفرشـاة الرسم)، القلق ينخر فيها- بلا نبل كبير. افترضت أنه لابد لديه شكوكه حول تلك المائدة؛ ما إذا كانت المائدة مائدة حقيقية؛ وما إذا كانت تستحق الوقت الذي منحه لها؛ ما إذا كان قادرًا مع ذلك على أن يعثر عليها. شعرت أنه لابد لديه شكوكه، وإلا لكان سيسأل عددًا أقل من الناس. خمنت أن ذلك ما كانوا يتحدثون عنه في وقت متأخر في الليل أحيانًا؛ ثم في اليوم التالي تبدو السيدة رمزي منهمكة، وتندفع لِيلي في موجة غضب عارمة معـه حـول أمـر عبـثي

تافه. لكنه الآن بلا أحد يتكلم معه عن المائدة، أو عن حذائه ذي الرقبة، أو عن عقدة الرباط؛ وهو أشبه بأسد يبحث عمن يلتهمه، ويكتسى وجهه بتلك المسحة من اليأس، والمبالغة التي أثارت رعبها، وجعلتها تشد تنورتها حول جسدها. ثم، تذكرت، كانت هناك تلك العودة المباغتة للوعي على حين غرة، ذلك الوهج المفاجئ (حينما أثنت على حذائه ذي الرقبة)، تلك الاستعادة المفاجئة للنشاط والاهتمام بالأمور الإنسانية العادية، التي مرت أيضًا وتغيرت (لأنه كان دائمًا يتغير، ولا يخفي شيئًا) في تلك المرحلة الأخرى النهائية التي كانت جديدة عليها، وهي تعترف وتقر، أنها جعلتها تخجل من نفسها ومن حدة طباعها، عندما بدا كأنه يصب قلقه وطموحه، وأمله في التعاطف ورغبته في الثناء، ولج إلى منطقةٍ ما أخرى، وكمن فيها، كما لو بفعل الفضول، في حديث ممل وكئيب، سواء مع نفسه أو مع شخص آخر، على رأس ذلك الموكب الهزيل لغضبه. وجه استثنائي! وانصفقت بعنف البوابة.

الفصل الثَّــالث

فكرت، وهي تتنهد ارتياحًا وإحباطًا، أخيرًا لقد ذهبوا. بـدا أن تعاطفهـا قد عاد إليها، مثل نبتة عُليق انبثقت عبر وجهها. شعرت أنها منقسمة بشكل غريب، كأن جزءًا منها قد سُحب خارجها- كان يومًا سـاكنًا، غائمًـا؛ وبـدا الفنار هذا الصباح نائيًا جدًّا؛ والجزء الآخر منها ثبت نفسه بعناد، وصلابة، هنا في المرج. رأت قماش الرسم على الحامل كما لو كان يطفـو ويـضع نفـسه شاحبًا وصلبًا مباشرةً أمامها. بدا أنه يعنفها بحملقته الباردة بسبب كل هـذه العجلة والهياج، وهذه العواطف الحمقاء المبددة سدًى؛ ذكَّرها بعنف ونثر في عقلها بداية سلام، حيث أن فوضى حواسها (بعدما ذهب شـعرت بالأسـف الشديد نحوه لأنها لم تقل شيئًا) احتشدت مبتعدةً عن الحقل؛ بعد ذلك، ساد الفراغ. نظرت بخواء إلى القماش، متفرسةً فيه بنظرة شـاحبة عنيـدة؛ ومـن القماش إلى الحديقة. كان ثمة شيءٌ مـا (وقفـت تـدور بعينيهـا الـصينيتين الضيقتين في وجهها الضئيل المجعـد)، شيءٌ مـا تذكرتـه في علاقـات تلـك

الخطوط المتقاطعة، في شرائح، وفي مساحة كتلة الألوان الزرقاء والبنية التي طوقت بها الكهف الأخضر، التي لا تزال عالقة في ذهنها؛ والتي ربطت عُقدة في عقلها باحتمالات وحدود الزمن، بشكل لا إرادى، فيما كانت تسير في طريق برومبتون، وفيما تمشط شعرها، وجدت نفسها تلون تلك اللوحة، مارةً بعينيها عليها، وتفك عقدة عقدة الخيال. لكن كان هناك كل ذلك الاختلاف الموجود في العالم الذي يكمن بين التخطيط الخيالي بعيدًا عن قماش اللوحة وبين الإمساك الفعلي بفرشاتها ووضع أول علامة.

أمسكت بالفرشاة الخطأ في توترها أثناء وجود السيد رمزي، ودفعت الحامل في الأرض بعصبية شديدة، فثبتته في الزاوية الخطأ. والآن قامت بتثبيته في الزاوية الصحيحة، وأثناء قيامها بذلك سيطرت على السفاهات والأمور التي لا صلة لها بموضوعها التي انتزعت انتباهها وجعلتها تتذكر كيف كانت شخصًا كذا وكذا، وكانت لديها علاقات كذا وكذا مع الناس، فأمسكت بالفرشاة ورفعتها بيدها. للحظة وقفت ترتعش في نشوة مؤلمة لكنها مثيرة تعبئ الجو. من أين تبدأ؟- ذلك كان السؤال من أية نقطة تقوم برسم أول علامة؟ وضعت خطًّا واحدًا على قماش اللوحة فأسلمها إلى مخاطر بلا حصر، وإلى قرارات متفاوتة يتعذر تغييرها. كل ذلك بناءً على فكرة كانت تبدو بسيطة وفي الحال أصبحت من الناحية العملية معقدة؛ إذ تُشكل الأمواج نفسها في تماثل من قمة الجرف، لكنها لمن يسبح وسطها، تبدو منقسمةً بالخلجان الحادة، والقمم المزبدة. لا تزال المخاطرة محتومة؛ فقد وضعت العلامة.

بإحساس جسدي غريب، كما لو كانت مدفوعةً إلى الأمام وعليها في الوقت نفسه أن تتراجع، قامت بأول خبطة سريعة حاسمة. هبطت الفرشاة. ومض اللون البني فوق القماش الأبيض؛ ترك علامة متدفقة. فعلت ذلك مرةً ثانية- ثم مرةً ثالثة. بكثير من التردد وكثير من الاهتزاز، حققت حركة إيقاعية راقصة، كما لو كان التردد جزءًا من الإيقاع والخبطات جزءًا آخر، وكلها مرتبطة ببعضها البعض؛ وهكذا، بتردد بسيط وناعم، وهي تخبط بفرشاتها، حددت لوحتها بخطوط بنية متدفقة وعصبية سرعان ما استقرت هناك دون أن تُطوق فضاءً ما (شعرت بها تلوح في الأفق أمامها). أسفل في تجويف إحدى الموجات رأت الموجة التالية ترتفع إلى أعلى وأعلى فوقها. فما الذي يمكن أن يكون أكثر روعة من الفضاء؟ ها هي مرةً أخرى، فكرت، وهي تتراجع للخلف لتنظر إليها، مسحوبة من النميمة، ومن الحياة، ومن التواجد مع الآخرين إلى حضور عدوها هذا القديم الرائع- هذا الشيء الآخر، هذه الحقيقة، هذا الواقع، الذي وضع فجأةً يديه عليها، وانبثق متصلبًا في خلفية مظاهر متعددة وطلب انتباهها. كانت نصف رافضة، نصف ممانعة. فلماذا دائما تُسحَب خارجًا وتساق بعيدًا؟ لماذا لا تُترَك في سلام، لتتحدث مع السيد كارمايكل في المرج؟ كانت صيغة مثيرة من التواصل على أية حال. فموضوعات التعبد الأخرى كانت مكتفيةً بما تحوزه من عبادة؛ الرجال، النساء، الله، كلهم يجعلون المرء يركع ساجدًا؛ لكن هذا الشكل، كان فقط شكل ظل مصباح شاحب يلوح على منضدة مصنوعة من الأغصان المجدولة، يثير في المرء صراعًا أبديًّا، ويتحداه أن يقاوم أغلاله المكبل بها والمنسوجة حوله. كانت دائمًا (كان ذلك جزءًا من طبيعتها، أو من

جنسها، لم تدر أيهما) قبل أن تبادل سلاسة الحياة بالتركيز في الرسم تحظى بلحظات من التجرد حين كانت تبدو كروح لم تولد بعد، روح منزوعة من الجسد، مترددة على قمة برج تعصف به الرياح وعارٍ بلا حماية من كل تيارات الشك. فلماذا إذن فعلت ذلك؟ تطلعت نحو قماش الرسم، وراحت تحدده بخطوط متدفقة. ربما يعلقونها في حجرة نوم الخدم. ربما يطوونها ويخزنونها تحت أريكةً ما. ما أهمية إنجازها إذن، وسمعت صوتًا يقول لها إنها لا تستطيع الرسم، يقول لها إنها لا تستطيع أن تبدع، كما لو كانت محصورةً في أحد تلك التيارات المعتادة التي تتشكل فيها التجربة في العقل بعد خبرةٍ لوقت معين، هكذا يكرر المرء الكلمات دون أن يعود مدركًا مَن الذي نطق بها في الأصل.

تمتمت برتابة، لا يمكنهن الرسم، لا يمكنهن الكتابة، وهي تفكر في قلق أية خطة للهجوم ستتبناها. فالكتلة غامت أمام عينيها؛ نتأت؛ شعرت بها تضغط على مقلتيها. ثم، كأن بعض العصارة الضرورية لتسهيل قدراتها كانت تنبجس بعفوية، بدأت بشكل عارض تستخدم درجات الأرزق والبني، منتقلةً بفرشاتها هنا وهناك، لكنها الآن صارت أثقل وأبطأ، كأنها انتظمت ضمن إيقاع كان يُملى عليها (ظلت تنظر إلى سياج الشجر، وإلى قماش اللوحة) بفعل ما ترى، لهذا ففيما كانت يدها ترتعش بالحياة، كان هذا الإيقاع قويًا بما يكفي ليحملها معه في تياره. من المؤكد أنها كانت تفقد وعيها بالأشياء الخارجية. وإذ فقدت وعيها بالأشياء الخارجية، واسمها وشخصيتها ومظهرها، وسواء كان السيد كارمايكل هناك أم لا، فقد ظل عقلها يستخرج من أعماقه، المشاهد، والأسماء، والأقوال، والذكريات

والأفكار، مثل نافورة تنبجس فوق ذلك الفضاء المتألق، الشاحب، الصعب، فيما كانت تصوغه بدرجات الأخضر والأزرق.

تذكرت أن تشارلز تانسلي اعتاد أن يقول إن النساء لا يمكنهن الرسم، لا يمكنهن الكتابة. وإذ أتى خلفها، وقف بجوارها، تمامًا في اللحظة التي ترسم فيها لوحتها، وهو ما كانت تكرهه. قال، "تبغ مفروم، الأوقية بخمس بنسات"، مستعرضًا فقره، ومبادئه. (لكن الحرب قد نزعت منها حمية أنوثتها. يا للشياطين المساكين، قد تفكر بينها وبين نفسها، يا للشياطين المساكين، من كلا الجنسين). كان دائمًا يحمل كتابًا تحت إبطه- كتابًا أرجوانيًّا. فهو "يعمل". تذكرت أنه جلس يعمل تحت وهج الشمس المتقدة. ووقت تناول طعام الغداء كان يجلس في منتصف المشهد تمامًا. فكرت، على أية حال، فقد كان هناك مشهدٌ ما على الشاطئ. على الإنسان أن يتذكر ذلك. حدث ذلك في صباح عاصف بالرياح. ذهبوا جميعًا إلى الشاطئ. جلست السيدة رمزي بجوار صخرة وأخذت تكتب خطابات. ظلت تكتب وتكتب. قالت، "أوه"، وهي تتطلع نحو شيءٍ ما يطفو فوق في البحر، "أوه، هل هذه شبكة لصيد الكركند؟ أم أنه قارب مقلوب؟" كان نظرها قصيرًا جدًّا لدرجة لم تسمح لها بأن ترى، وعندئذٍ أصبح تشارلز تانسلي لطيفًا بأقصى ما يستطيع. بدأ يلعب بإلقاء الأصداف والحجارة فوق سطح الماء. اختارا الأحجار المسطحة الصغيرة السوداء وأخذا يلقيانها منزلقةً فوق الأمواج. وبين حين وآخر ترفع السيدة رمزي عينيها من فوق نظاراتها وتتطلع إلى المشهد وتضحك عليهما. لا تستطيع أن تتذكر ما قالوه، لا تتذكر سوى أنها هي وتشارلز كانا يقذفان بالأحجار، وأن علاقتهما أصبحت على ما يرام على

حين غرة، وأن السيدة رمزي كانت ترقبهما. كانت واعية بذلك وعيًا شديدًا. فكرت، أن السيدة رمزي قد خطت متراجعةً للخلف ودارت بعينيها في المكان. (لا بد أن هذه الحركة قد غيرت تصميم اللوحة تغييرًا كبيرًا عندما كانت جالسةً على العتبة مع جيمس. لابد أن ذلك ألقى بظل على اللوحة). عندما فكرت في نفسها هي وتشارلز وهما يلقيان بالأصداف والحجارة على ماء البحر، وفي المشهد برمته على الشاطئ، بدا أن الأمر كله قد توقف بطريقةٍ ما على جلوس السيدة رمزي بجوار الصخرة، وكتلة أوراق على ركبتها، تكتب الخطابات. (كتبت عددًا كبيرًا من الخطابات، وأحيانًا كانت الريح تطيرها، ولم تستطع هي وتشارلز أن ينقذا من البحر أكثر من صفحة واحدة). لكنها فكرت، أية قوة تلك التي تكمن في الروح الإنسانية! تلك المرأة جالسة هناك تكتب أسفل الصخرة وقد أحالت كل شيء إلى نوع من البساطة؛ وجعلت كل نوبات الغضب والسخط تلك تتساقط مثل الخرق البالية؛ إنها تجمع معًا هذا وذاك ثم هذا، وهكذا تصنع من ذلك الحمق البائس والحقد (كانت هي وتشارلز يتشاجران حول موضوعات تافهة، ويتنازعان كالديكة، كانا على درجة عالية من الحمق والضغينة) شيئًا ما- هذا المشهد على الشاطئ على سبيل المثال، وتلك اللحظة من الصداقة والود- التي بقيت في الذاكرة، بعد كل تلك السنوات الكاملة، لذلك انغسمت فيها لتعيد صياغة ذاكرتها عنه، وهكذا ظلت كامنة في الذهن مؤثرة في المرء تقريبًا مثل عمل فني.

كررت، "مثل عمل فني"، وهي تنقل بصرها من قماش اللوحة إلى الدرجات المؤدية لقاعة الاستقبال والعكس. من الضروري أن تستريح قليلًا.

وفي استراحتها، وهي تتطلع من شيء لآخر بصورة غائمة، انتصب فوقها السؤال القديم الذي كان يجتاز سماء الروح بشكل دائم، السؤال الضخم، العام الذي كان جديرًا بأن يمنح تفاصيل ذاته في لحظات كتلك، عندما حررت القدرات الكامنة في التوتر، توقف حولها، طوقها بالعتمة. فما معنى الحياة؟ كان ذلك كل شيء- سؤال بسيط. سؤال يميل إلى أن ينغلق على المرء مع مضي السنوات. فالإلهام العظيم لم يأت مطلقًا. ربما لم يأت الإلهام العظيم مطلقًا. وبدلًا من ذلك كانت هناك المعجزات اليومية الصغيرة، الإضاءات، القرانات غير المتوقعة في الظلام؛ ها هنا كانت واحدة. هذا، ذاك والآخر، هي وتشارلز تانسلي والموجة المتكسرة، السيدة رمزي تجمعهما معًا، والسيدة رمزي تقول، "الحياة تقف هنا ساكنة"؛ والسيدة رمزي تصنع من اللحظة شيئًا سرمديًا (كما في جو آخر حاولت لِيلي نفسها أن تصنع من اللحظة شيئًا سرمديًا)- كان هذا جزءًا من طبيعة أحد الإلهامات. وفي وسط الفوضى كان هناك شكل؛ هذا المرور والانسيابات الأبديين (نظرت نحو السحب تأتي وتغادر مهتزة الشكل) يستحيل إلى استقرار. قالت السيدة رمزي، الحياة تقف هنا ساكنة. راحت تكرر نداءها، "سيدة رمزي! سيدة رمزي!" إنها تدين بكل هذا لها.

كان الصمت كل شيء. لا يبدو أن أي شخص في المنزل يتحرك. تطلعت إليه وهو راقد في شروق الشمس الباكر بنوافذه التي تنعكس عليها ألوان أوراق الأشجار في مظهر شاحب قاتم. بدت الفكرة الباهتة التي كانت تفكر فيها عن السيدة رمزي متناغمة مع المنزل الهادئ؛ هذا الدخان؛ وروعة جو هذا الصباح الباكر. باهتة وغير حقيقية، كانت بصورة غريبة نقية ومثيرة.

تمنت ألا يفتح أحد أية نافذة أو يخرج من المنزل، بل يتركوها بمفردها مع أفكارها، أن تواصل التأمل، وتواصل الرسم. التفتت إلى قماشة اللوحة. لكنها مدفوعةً ببعض الفضول، منساقةً بقلقها من التعاطف الذي كبحته داخلها، خطت خطوة أو أكثر قليلًا نحو نهاية المرج لترى ما إذا كان بمقدورها أن ترى، هناك في الأسفل على الشاطئ، تلك الصحبة الصغيرة وقد بدأت رحلتها. هناك بالأسفل وسط القوارب الصغيرة التي طفت فوق الماء، بعضها بأشرعته المطوية، بعضها ببطء، لأنها كانت تتحرك حركة شديدة الهدوء، كان هناك واحد منفصل إلى حدٍّ ما عن القوارب الأخرى. بدأوا في هذه اللحظة في رفع الشراع. قررت أن هناك بعيدًا جدًّا وفي هذا القارب الصغير الصامت تمامًا يجلس السيد رمزي مع كام وجيمس. والآن ها هم يرفعون الشراع عاليًا، وها هم الآن بعد رفرفة الشراع والصمت، رأت القارب يتخذ طريقه بتأن مارًّا بجوار القوارب الأخرى مبتعدًا داخل البحر.

الفصل الرَّابـــع

حلقت الأشرعة فوق رؤوسهم. ضحك الماء ضحكة خافتة ولطم جانبي القارب، الذي تناعس في الشمس بلا حركة. بين حين وآخر تتماوج الأشرعة بنسمة صغيرة عليهم، ولكن التماوج سار فوقهم ثم توقف. لم يبد القارب حراكًا مطلقًا. كان السيد رمزي يجلس في منتصف القارب. فكر جيمس، إنه قد ينفد صبره بعد قليل، وكذلك فكرت كام، وهي تنظر إلى والدها، الذي جلس في منتصف القارب بينهما (كان جيمس يدير دفة القارب، وكام تجلس بمفردها في مقدمة القارب) وهو يثنى ساقيه تحته. كان يكره أن يفرد ساقيه. بالطبع، بعد التململ لثانيةٍ أو ثانيتين، وجه كلامًا حادا إلى ابن ماكاليستر، الذي أخرج مجاذيفه وبدأ يجذف. لكن والدهما، كما يعلمان، لن يكون أبدًا راضيًا إلى أن يطيروا طيرانًا فوق مياه البحر. سيظل متطلعًا إلى نسمة هواء عليل، متململًا، يقول أشياءً بصوت هامس، قد يسمعها ماكاليستر وابنه مصادفة، وقد تجعلهما يشعران بقلق بالغ. لقد

أمرهما بالمجيء، أرغمهما على المجيء. وفي غضبهما تمنيا ألا تهب نسمة هواء عليلة واحدة، وأن يشاكساه بكل طريقة ممكنة، لأنه أرغمهما على المجيء ضد رغبتهما.

طول الطريق إلى الشاطئ وهما يتلكآن معا خلفه، على الرغم من أنه كان يوحي لهما بكلمات مثل "هيا أسرعا، هيا أسرعا" بلا نطق. كانت رأساهما منحنيتين، كانت رأساهما مدفوعتين لأسفل بفعل نوبة قاسية. لم يستطيعا الحديث إليه. مضطران أن يأتيا معه؛ مضطران أن يتبعاه. مضطران أن يسيرا خلفه يحملان لفائف الورق البني. لكنهما أقسما، في صمت، وهما يسيران، أن يساند أحدهما الآخر ويضطلعا معًا بتنفيذ الاتفاق- أن يقاوما الطاغية حتى الموت. وهكذا جلسا، واحد على طرف القارب، والآخر على الطرف الآخر، في صمت. لن يقولا شيئًا، فقط ينظران إليه بين حين وآخر حيث جلس وساقاه مضمومتان، يرغي ويزبد متململًا، ويتأفف ويتبرم ويغمغم بكلمات مع نفسه، وينتظر بفارغ الصبر نسمة هواء عليلة. وتمنيا أن يظل الجو ساكنًا. تمنيا أن يُصاب بإحباط وخيبة أمل. تمنيا أن تُمنى الرحلة كلها بالفشل، وأن يُضطروا للعودة، بلفائفهم، إلى الشاطئ.

لكن الآن، حين جذف ابن ماكاليستر مبتعدًا قليلًا، ودارت الأشرعة متأرجحة ببطء، أسرع القارب من تلقاء نفسه، طار أفقيًّا فوق الماء، وانطلق في سبيله. في الحال، كما لو كان ثمة ضغوط كبيرة قد انزاحت، فرد السيد رمزي ساقيه، وأخرج علبة التبغ، وقدمها لماكاليستر وهو يتنحنح، وأحس، كما يعلمان، بالرضا التام، لأن الجميع يعانون. والآن سيبحرون لساعات

بهذا الشكل، وسيطرح السيد رمزي سؤالًا على العجوز ماكاليستر- ربما عن العاصفة الشديدة التي حدثت الشتاء الماضي- وسيجيبه العجوز ماكاليستر، وسينفخان دخان غليونيهما معًا، وستتلوث أصابع ماكاليستر بالقار، وهو يفك ويربط في العقد، وسيصطاد الولد السمك، ولا ينطق بكلمة واحدة مع أي شخص. وسيُضطر جيمس أن يركز بصره طول الوقت على الشراع. لأنه لو نسي، فسيتغضن الشراع ويهتز، وسيبطئ القارب من سرعته، وسيقول السيد رمزي بحدة، "انظر جيدًا! انظر جيدًا!" وسيستدير ماكاليستر العجوز من مكانه ببطء. وهكذا استمعوا إلى السيد رمزي وهو يسأل عن العاصفة الشديدة التي حدثت في أعياد الكريسماس الماضية. قال العجوز ماكاليستر وهو يصف العاصفة الشديدة في أعياد الكريسماس السابقة، "جاءت مندفعة حول اللسان"، حين اندفعت عشر سفن نحو الخليج طلبًا للحماية، وقد رأى ذلك بأم عينيه، "واحدة هناك، وواحدة هناك، وواحدة هناك" (وأشار ببطء حول الخليج. تبعه السيد رمزي، وهو يلتفت برأسه). رأى وقتها أربعة رجال يتعلقون بصواري المراكب. ثم رحلت العاصفة. "وفي النهاية تمكنًا منها وشققنا طريقنا على الرغم منها"، وواصل كلامه (لكن في غضبهما وفي صمتهما كانا فقط يلتقطان كلمة من هنا وكلمة من هناك، وهما جالسان متقابلين على طرفي القارب، مرتبطين باتفاقهما لمقاتلة الطاغية حتى الموت). في النهاية استطاعوا السيطرة على الأمور، أنزلوا إلى الماء قوارب النجاة، وأخرجوها من اللسان- حكى ماكاليستر القصة، وعلى الرغم من أنهما لم يتمكنا إلا من التقاط كلمة من هنا وكلمة من هناك، فقد كانا منتبهين طول الوقت لوالدهما- كيف انحنى للأمام، كيف غيَّر نبرة صوته وهو يحدث

ماكاليستر، كيف نفخ دخان غليونه، وكيف نظر هنا وهناك حيث أشار له ماكاليستر، كيف استمتع بفكرة العاصفة والليلة المعتمة والصيادين المناضلين هناك. راقه أن الرجال كدحوا وغرقوا على الشاطئ العاصف في الليل، وهم يكرسون العضلات والعقل للعمل معًا ضد الأمواج والعواصف، راقه أن الرجال يعملون بجد بهذا الشكل، والنساء يحافظن على البيوت، ويجلسن بجوار الأطفال النائمين وراء الأبواب، بينما الرجال خارج البيوت، يغرقون هناك في العاصفة. ويستطيع جيمس أن يقول، وتستطيع كذلك كام أن تقول (كانا ينظران إليه، ثم ينظران كل منهما نحو الآخر)، من تمايله وحذره ورنين صوته، وقليل من مسحة اللكنة الاسكتلندية التي شابت صوته، إنه هو ذاته بدا كفلاح، وهو يطرح الأسئلة على ماكاليستر حول السفن الإحدى عشر التي دُفعت نحو الخليج أثناء العاصفة. وقد غرقت ثلاث سفن.

نظر بفخر إلى حيث أشار ماكاليستر، وفكرت كام، وهي تشعر بالفخر به دون أن تعي السبب بوضوح، أنه لو كان هنا لأنزل للبحر قارب النجاة، ولوصل إلى السفينة المحطمة. فكرت كام، لقد كان شجاعًا جدًّا، كان مغامرًا جدًّا. لكنها عادت وتذكرت. كان هناك ذلك الاتفاق، لمقاومة الطاغية حتى الموت. كان الظلم يثقل كاهلهما. لقد تعرضا للقهر، وتعرضا للخنوع. لقد هزمهما مرةً أخرى بكآبته وسلطانه، وجعلهما ينصاعان لأوامره، في هذا الصباح الجميل، أتى، لأنه أراد ذلك، يحمل تلك اللفائف، إلى الفنار، آخذًا على عاتقه القيام بهذه الطقوس والمضي لتحقيق سعادته الخاصة في ذكرى الأشخاص الميتين، وهو شيء كانا يكرهانه، لهذا تباطآ خلفه، وفسدت كل

سعادة اليوم.

نعم، كان الهواء اللطيف منعشًا. والقارب يميل، والماء ينشق بحدة ثم يهوي بعيدًا في شلالات خضراء، وفقاقيع، ورذاذ. نظرت كام إلى الزبَد بالأسفل، إلى البحر بكل كنوزه الكامنة، وخدرتها سرعته كالمنوم مغناطيسيًّا، ووهنت قليلًا الرابطة التي تربطها بجيمس. ضعف قليلًا. بدأت تفكر، كم يمضي القارب سريعًا. إلى أين نذهب؟ وخدرتها الحركة، بينما جيمس، بعينيه المثبتتين على الشراع وعلى الأفق، يقود الدفة متجهمًا. لكنه بدأ يفكر وهو يقود الدفة أنه ربما ينجو؛ ربما يكون هادئًا بصدد كل شيء. ربما يرسون بقاربهم في مكانٍ ما، وعندها يتحرر. كلاهما، ينظران أحدهما نحو الآخر لحظة، واعتراهما شعور بالرغبة في الفرار والمهابة، تصاعد مع السرعة والتغيير. لكن النسمة العليلة أثارت داخل السيد رمزي أيضًا نفس الشعور بالإثارة، وبينما التفت العجوز ماكاليستر ليقذف حبله من فوق جانب القارب إلى البحر، صاح بصوت مرتفع،

"لقد هلكنا"، ثم مرة أخرى، "كل بمفرده". ثم بتشنجه المعتاد في نوبة ندم أو خجل، سحب نفسه، ولوح بيده نحو الشاطئ.

قال مشيرًا، متمنيا أن تنتبه له كام وتنظر إلى حيث أشار، "انظري إلى البيت الصغير". رفعت نفسها على مضض ونظرت إلى حيث أشار. لكن أي منزل من تلك المنازل يقصد؟ لا يمكنها أن تكتشف بوضوح، هناك على جانب التل، أي واحد كان بيتهم. كل البيوت تبدو نائية ومسالمة وغريبة. بدا الشاطئ مصقولًا لامعًا، بعيدًا، غير حقيقي. بالفعل كانت المسافة الصغيرة

التي أبحروها قد أبعدتهم بعيدًا عنه ومنحتهم هذه النظـرة المتغـيرة، النظـرة المركبة، عن شيء منكمش متضائل لم يعد للمرء فيه أي دور. أي واحد منها كان منزلهم؟ لا يمكنها أن ترى بوضوح.

تمتم السيد رمزي، "لكنني أسبح أسفل بحر هائج". لقـد عـثر على المـنزل بعينيه ورآه بوضوح، رأى أيضًا نفسه هنـاك، رأى نفـسه يـسير في الـشرفة، بمفرده. كان يسير جيئةً وذهابًا بين جرار حفـظ رمـاد المـوتى، وبـدا لنفـسه عجوزًا جدًّا ومنحنيًا. كان جالسًا في القارب، انحنى، مال بنفسه أكثر، تصرف في الحال متخذًا دوره- دور الرجل البائس، الأرمـل، المخبـول، الذي لطالمـا صرخ أمامه في أشخاص ينزلون في ضيافته أن يتعاطفوا معه، مـسرحَ المـكان لنفسه وهو يجلس في القارب، دراما صغيرة، تطلبت منه أن يبدي الـضعف والعجز والإنهاك والألم (رفع يديه ونظر نحو ضآلتهم ليؤكـد حلمـه) وآنئـذٍ هناك في ذلك المنزل منحته النساء التعاطف بغـزارة، وتخيـل كيـف كُـنّ يهدئنه ويتعاطفن معه، وهكذا عبأ حلمه ببعض الأفكار عن السعادة الرائعة النابعة من التعاطف الذي كانت النساء تمنحه إياه، تنهد وقال برقة وحزن:

لكني أسبح أسفل بحر هائج
مغمورًا في الخلجان الأعمق منه،

وهكذا وصلت الكلمـات الحزينـة بوضـوح شـديد إلى مـسامع الجميـع. جفلت كام نوعًا ما في مقعدها. لقد صـدمتها الكلمـات- أغـضبتها. أثـارت الحركة والدها؛ فارتعد، وتوقف فجأةً، ثم هتف: "انظري انظري!" قـال ذلـك بإلحاح شديد حتى أن جيمس أيضًا أدار رأسه لينظـر مـن فـوق كتفـه نحـو

الجزيرة. نظروا جميعًا. نظروا نحو الجزيرة.

لكن كام لم تستطع رؤية شيء. كانت تفكر كيف كان لكل هذه الممرات والمرج، الكثيفة ومرتبطة بشكل معقد بالحيوات التي عاشوها هناك، أن تتبدد، كيف انمحت، كيف تلاشت، كيف كانت غير حقيقية، والآن ها هي الأشياء الحقيقية، القارب والشراع برقعته؛ ماكاليستر والأقراط في أذنيه؛ ضجة الأمواج- كل هذا كان حقيقيًّا. فكرت في ذلك، وتمتمت مع نفسها، "لقد هلكنا، كلٌّ بمفرده"، لأن كلمات والدها انفجرت مرات ومرات في ذهنها، حين رأها والدها تحملق بذهول، بدأ يستفزها. سألها، ألا تعرف اتجاهات البوصلة؟ ألا تعرف الشمال من الجنوب؟ هل تظن أنهم كانوا يعيشون حقًّا هناك؟ وأشار مرة أخرى، وأراها أين يقع منزلهم، هناك، قرب تلك الأشجار. تمنى لو تحاول أن تكون أكثر ذكاءً، قال: "قولي لي- أين يقع الشرق، وأين يقع الغرب؟" قال، وهو يضحك ضحكة نصفها ساخرًا منها، ونصفها موبخًا لها، لأنه لا يفهم مزاج أي شخص، ليس معتوهًا تمامًا، مَن لا يعرف اتجاهات البوصلة. مع ذلك فهي لا تعرفها. وعندما رآها تحملق، في عدم فهم، وأكثر خوفًا الآن، عيناها مثبتتان على مكان لا يوجد به منزل. نسب السيد رمزي حلمه، وكيف كان يسير جيئةً وذهابًا وسط الأواني الفخارية التي يحتفظون فيها برماد الموتى في الشرفة، وكيف كانت تمتد الأيدي خارجة منها نحوه. فكر، النساء دائمًا على هذه الشاكلة، تشوش أذهانهن لا أمل في شفائه؛ كان ذلك شيئًا لم يستطع فهمه مطلقًا، لكن الأمر كان هكذا دائمًا. كان الأمر كذلك معها- زوجته. لم يستطعن الحفاظ في أذهانهن بأي شيء ثابت وواضح. لكنه أخطأ عندما غضب منها؛ علاوةً

على ذلك، أفلم يكن بالأحرى يحب هذا الغموض في المرأة. لقد كان جزءًا من سحرهن الفائق. فكر، سأجعلها تبتسم في وجهي. بدت مرعوبة. كانت صامتةً تمامًا. شبك أصابعه، وانتهى إلى أن صوته ووجهه وكل إيماءاته الخاطفة المعبرة التي كان يرافق بها طلباته فتجعل الناس يشفقون عليه ويمتدحونه طيلة كل تلك السنوات من المفترض أن تقل من تلقاء ذاتها. وعليه أن يجعلها تبتسم في وجهه. عليه أن يعثر على شيء بسيط وسهل يقوله لها. لكن ما هو؟ لأنه، وهو لا يزال مطوقًا بعمله كما كان في الماضي، نسي نوع الأشياء التي يقولها المرء. كان هناك جرو. كان لديهم جرو. سألها، مَن الذي يعتني بالجرو هذه الأيام؟ نعم، فكر جيمس بقسوة، وهو يرى رأس شقيقته عكس الشراع، والآن ستبدأ في الانهيار. وستتركني أحارب الطاغية وحدي. ستتركني أنفذ الاتفاق وحدي. فلن تقاوم كام الطاغية حتى الموت مطلقًا، فكر في ذلك عابسًا، وهو يراقب وجهها، حزينًا، عابسًا، مستسلمًا. ومثلما يحدث أحيانًا حين تنتشر سحابة على جانب التل الأخضر ويهبط ثقل الجاذبية الأرضية وهناك وسط كل التلال المحيطة تعم الكآبة والأحزان، ويبدو كما لو كانت التلال نفسها عليها أن تتأمل قدَر الجو الغائم، المظلم، حتى لو تأملته في إشفاق، مبتهجة في فزعها: هكذا شعرت كام بأنها ملبدة بالغيوم، وهي جالسة هناك وسط أشخاص هادئين، حازمين، وتساءلت كيف تجيب والدها عن الجرو؛ كيف تقاوم استعطافه- سامحيني، اعتني بي؛ بينما جيمس المشرِّع، بألواح الحكمة الخالدة مفتوحة على ركبته (تحولت يده المثبتة على ذراع الدفة إلى رمزٍ ما في عينيها)، قال، قاوميه. قاتليه. قال ذلك عن صواب تمامًا، وبعَدل. فمن المفروض أن يقاتلا الطاغية حتى الموت، كما

فكرت. ومن بين كل الصفات الإنسانية كانت تحترم العدل أكثر من أي شيء آخر. فكرت أن شقيقها أكثر شبهًا بإله، أما والدها فأكثر شبهًا بعابد متضرع. استسلمت لهما، فكرت، وهي جالسة بينهما، تحدق في الشاطئ الذي كانت ألسنته الداخلة في المياه كلها غير معروفة لها، وفكرت كيف هدأ المرج والشرفة والمنزل الآن وحل فيهم السلام.

قالت، عابسة الوجه، "جاسبر" هو الذي يعتنى بالجرو.

واصل والدها كلامه بعناد، وماذا تزمع أن تسميه؟ لقد كان لديه كلب عندما كان صبيًّا صغيرًا، اسمه فريسك. فكر جيمس، إنها ستبدأ في الانهيار، وهو يرى نظرةً ما على وجهها، نظرة يتذكرها جيدًا. فكر أن عينيها ستنظران إلى أسفل، نحو التريكو أو شيءٍ ما. ثم بغتةً تنظر إلى أعلى. كان ثمة وميض من الزرقة، تذكر، ثم عندئذٍ ضحك شخصٌ ما يجلس معه، استسلم، أما هو فكان غاضبًا. فكر، لابد أنها كانت أمه، جالسةً على مقعد خفيض، ووالده يقف فوق رأسها. بدأ يبحث في سلسلة لا نهائية من الانطباعات التي أوهنها الزمن، ورقة شجرة وراء أخرى، طية فوق طية بنعومة، بشكل متواصل تدور فوق مخه، وسط الروائح، والأشياء؛ الأصوات الخشنة، والجوفاء، والعذبة؛ والأضواء تمر، والمقشات تخبط؛ واندفاع ثم هدوء البحر، كيف سار رجلٌ لأعلى وأسفل ثم توقف ميتًا، أمامهم، عموديًّا. في الوقت ذاته، لاحظ أن كام بللت أصابع يديها في الماء، وراحت تحملق في الشاطئ ولم تقل شيئًا. فكَّر، لا ، إنها لن تنهار، فكَّر، إنها مختلفة. حسنًا، إن لم تجبه كام فلن يضايقها، هكذا قرر السيد رمزي، وهو يتحسس جيبه بحثًا عن كتاب. لكنها سترد عليه؛ تمنت ذلك، بشغف. لترفع تلك العقبة الرابضة فوق لسانها وتقول له،

أوه، نعم، فريسك. سأسميه فريسك. بل أرادت حتى أن تقول، هل كان هو ذلك الكلب الذي عثر عليه في طريقه وهو يسير وحده قرب المستنقع؟ لكنها إذ حاولت أن تفعل ذلك، لم تستطع التفكير في شيء تقوله كهذه العبارة، شرسةً ووفية للاتفاق، مع ذلك إذ انتقلت إلى والدها، بلا ارتياب من جيمس، أحست بتذكار خاص من الحب تجاهه. لأنها فكرت، وهي تبلل يدها (والآن اصطاد ابن ماكاليستر سمكة ماكريل، وهي ملقاة ترفس على أرض القارب، والدم يحيط بخياشيمها) لأنها فكرت، وهي تنظر إلى جيمس الذي كان يثبت عينيه بهدوء على الشراع، أو يحملق بين وقت وآخر لثانيةٍ واحدة في الأفق، أنت لست معرضة له، لهذا الضغط وانقسام العواطف، لهذا الإغواء المفرط. كان والدها يتحسس جيوبه؛ وفي خلال ثانية أخرى، قد يعثر على كتابه. لأنه لم يجتذبها سواه، كانت يداه جميلتين، وقدماه، وصوته، وكلماته، وتعجله، ومزاجه، وغرابة أطواره، وأحزانه، وحديثه المباشر بلا مواربة للجميع، نحن نهلك، كل بمفرده، وتباعده. (فتح كتابه). فكرت، لكن ما بقي لا يطاق، فيما تعتدل في جلستها، لتتفرج على ابن ماكاليستر ينزع الخطاف من خياشيم سمكة أخرى، هو ذلك العمى التام وطغيانه الذي سمم طفولتها واستثار عواصف مريرة، فحتى الآن تستيقظ في الليل مرتعدةً بالغضب وتتذكر بعض أوامره؛ وبعض إهاناته: "افعلي هذا"، "افعلي ذاك"، وسيطرته: "اخضعي لي".

لذلك لم تقل شيئًا، بل نظرت بعناد وأسًى إلى الشاطئ، ملتفة بعباءة السلام؛ كأن الناس هناك قد سقطوا نيامًا، كما فكرت؛ كانوا أحرارًا كالدخان، أحرارًا أن يأتوا ويذهبوا كالأشباح. فكرت، إنهم بلا معاناة هناك.

الفصل الخامـــس

نعم، هو قاربهم، قررت لِيلي بريسكو، وهي تقـف على حافـة المـرج. هـو القارب ذو الأشرعة البنية المائلة للرمـادي، الذي تـراه الآن يعـدل وضـعه طافيًا فوق سطح الماء ومندفعًا عبر الخليج. فكرت، إنه يجلس هناك، والأولاد صامتون تمامًا. وهي لا تستطيع الوصول إليه أيضًا. أثقلها التعاطف الذي لـم تمنحه إياه. جعل من الصعب عليها أن ترسم.

لطالما وجدته صعبا. تذكرت، وأنها لم تمتلك مطلقًا القدرة على امتداحه في وجهه. وهذا ما حول علاقتهما إلى شيءٍ ما حيادي، يفتقر لذلـك العنـصر من الجنس الذي جعل سلوكه مع مينتا أنيقًا، تقريبًا مرحًـا. كان يلـتقط لهـا الأزهار، ويعيرها كتبه. لكن هل يعتقد حقًّا أن مينتا قرأتها؟ لقد سـحبتهم معها إلى الحديقة، ووضعت داخلهم أوراق الشجر لتحدد المكان.

كانت تميل إلى أن تسأل، "هل تتذكر، يا سيد كارمايكل؟" وهي تنظر نحو

الرجل العجوز. لكنه كان قد سحب قبعته وغطى بها نصف جبهته، فخمنت أنه كان نعسانًا، أو كان يحلم، أو ممددًا هناك يلتقط الكلمات.

تمنت لو سألته عندما مرت بجواره، "هل تتذكر؟" وهي تفكر مرةً أخرى في السيدة رمزي على الشاطئ، والبرميل الخشبي يتمايل إلى أعلى وأسفل، والأوراق تتطاير، لماذا، بعد كل هذه السنوات عادت هذه الذكريات لتدق حولها مضيئة، واضحة الصور إلى أقصى تفصيلة، وكلها أمامها واضحة وواضحة معها كل الشخصيات، لأميال وأميال؟

كررت لِيلي بينها وبين نفسها، وهي تستدير خلفها، أنها تريد أن تقول، "هل هذا قارب؟ هل هذا لوح من الفلين؟" ثم عادت مرةً أخرى ممتعضةً إلى قماشة اللوحة. الحمد للسماء على ذلك، مشكلة الفراغ ظلت كما هي، فكرت في ذلك، وهي تلتقط فرشاتها مجددًا. حملقت فيها. كل كتلة اللوحة توازنت فوق ذلك الثقل. ستكون على السطح جميلة ومشرقة، خفيفة وزائلة، لون يمتزج بلون آخر كالألوان في جناح فراشة؛ لكن كان ينبغي أن يشد نسيج القماش من أسفل معًا بإحكام بمسامير حديدية. إنه يوشك أن يصبح شيئًا قد تجعده أنفاسك؛ وشيئًا لا يمكنك أن تزيحه بفريق من الخيول. وبدأت تضع لمساتها باللون الأحمر، والرمادي، وبدأت تخطط طريقها وفقًا لنموذج في ذهنها في المساحات الفارغة في اللوحة. في نفس الوقت، بدت كأنها جالسة بجوار السيدة رمزي على الشاطئ.

قالت السيدة رمزي،" هل هذا قارب؟ هل هذا برميل؟" وبدأت تبحث حولها عن نظارتها. وجلست، بعد أن وجدتها، صامتةً، تتطلع نحو البحر.

ولِيلي، وهي ترسم باضطراد، شعرت كأن بابًا قد انفتح، ودخل أحدهم ووقف يحملق في صمت فيما حوله في مكان مرتفع شبيه بكاتدرائية، شديد العتمة، شديد السمو. أتى الصياح من عالم بعيد. واختفت البواخر في خطوط من الدخان في الأفق. ألقى تشارلز بالأحجار وهي تنزلق من نقطة لأخرى.

جلست السيدة رمزي صامتة. فكرت ليلي أنها كانت سعيدة أن ترتاح في صمت، في تحفظ؛ أن ترتاح في أقصى غموض للعلاقات الإنسانية. فمَن يعلم مَن نحن، وبمَ نشعر؟ مَن يعلم حتى في لحظة حميمة، أن هذه هي المعرفة؟ ألا تفسَد الأشياء وقتها، قد تطرح السيدة رمزي هذه الأسئلة (يبدو أن هذا يحدث غالبًا، هذا الصمت بجوارها) على الملأ؟ ألن نكون وقتها أكثر صراحة وتعبيرًا عن أنفسنا؟ على الأقل ستكون اللحظة مثمرة بشكل غير عادي. ضغطت بيدها على الرمال فحفرت فيها حفرة صغيرة ثم غطتها، بطريقة دفنت بها كمال اللحظة. كان ذلك مثل قطرة فضة ينغمر فيها الإنسان ثم يضيء بها عتمة الماضي.

تراجعت لِيلي خطوة لتُدخل اللوحة- هكذا- في المنظور. كان طريقًا غريبًا أن تسير فيه، طريق الرسم. يمضي المرء بعيدًا، وأبعد، إلى أن يبدو في النهاية كأنه فوق لوح خشبي ضيق، وحيدًا تمامًا، فوق البحر. غمست الفرشاة في اللون الأزرق، غمستها كذلك في الماضى هناك. تذكرت، في هذا الوقت كانت تفيق السيدة رمزي. كان ذلك وقت العودة للمنزل- وقت طعام الغداء. وجميعهم ينهضون من الشاطئ معًا، تسير في الخلف مع وليام بانكس، وهناك أمامهم مينتا بثقب في جوربها. كيف لهذا الثقب الصغير

المستدير على الكعب الوردى أن يتماوج أمامهم! كيف استنكر وليام بانكس هذا الثقب في الجورب، دون أن يقول شيئًا عنه، حتى الآن على قدر ما تتذكر! إنه شيء يعنى له إبادة جنس النساء، والفساد والفوضى، ومغادرة الخدم وعدم ترتيب الأسرَّة في منتصف النهار- كل الأشياء التي يمقتها بشدة. كانت له طريقته في الارتعاش وبسط أصابعه كأنه يغطي شيئًا غير لائق قد ارتكبه الآن- وهو يضم قبضته أمامه. وسارت مينتا في طريقها مباشرةً، ومن المحتمل أن بول التقاها وخرجت بصحبته إلى الحديقة.

فكرت لِيلي بريسكو، وهي تعصر بين أصابعها أنبوبة اللون الأخضر، إنهم آل رايلي. راحت تلملم انطباعاتها عن آل رايلي. تبدت أمامها حيواتهم كسلسلة من المشاهد؛ أحد هذه المشاهد، على درجات سُلَّم في الفجر. دخل بول ثم اتجه إلى حجرة نومه مبكرًا؛ كانت مينتا متأخرة. كانت مينتا هناك، مكللةً، مبهرجة، صاخبة على درجات السلم قرب الساعة الثالثة صباحًا. خرج بول من حجرته بالبيجامه يمسك بقضيب تحريك الفحم تحسبًا لوجود لصوص. كانت مينتا تأكل ساندويتش، تقف في منتصف الطريق بجوار النافذة، في الضوء بالغ الشحوب في الصباح الباكر، وكان ثمة ثقب في السجادة. لكن ماذا قالا؟ سألت لِيلي نفسها، كأنها بالتطلع حولها قد تسمعهما. مضت مينتا تأكل الساندويتش، بصوت مزعج، بينما قال هو شيئًا قاسيًا، مسيئًا لها، بصوت خفيض حتى لا يوقظ الأولاد، الولدين الصغيرين. كان ذابلًا، عابسًا، أما هي فكانت تترقرق وتتماوج في ملابسها المبهرجة، بلا اهتمام. فقد تفككت الأمور بشدة بعد العام الأول أو شيئًا من هذا القبيل، تحول الزواج منقلبًا إلى حياة أكثر سوءًا.

وهذا، فكرت لِيلي، وهي تغمس فرشاتها في اللون الأخضر، هذا ما يرتب المشاهد الخاصة بهما، وهو ما نقول عليه "معرفة" الناس، "التفكير" فيهم، "أن نكون مولعين" بهم! ولا كلمة من هذا كانت صحيحة، لقد رتبت المشاهد؛ ومع ذلك فلم يكن بها أكثر مما تعرفه عنهما. وراحت تشق طريقها إلى لوحتها، إلى الماضي.

في وقت آخر، قال بول، "إنني ألعب الشطرنج في المقاهي العامة". لقد أقامت بناءً كاملًا من الخيال على هذا القول أيضًا. تذكرت الآن، كيف وهو يقول ذلك، استدعى الخادمة، التي قالت، "السيدة رايليبابالخارج، يا سيدي" وقرر أنه كذلك لن يعود إلى البيت. رأته يجلس في ركنٍ في مكانٍ ما كئيب حيث يلتصق الدخان بالمقاعد الحمراء المكسوة بقماش البلَش ذي الوبر، وحيث النادلات يتوددن للزبائن في سوقية وبلا كياسة، وكان يلعب الشطرنج مع رجل ضئيل يعمل في تجارة الشاى ويعيش في منطقة سيربيتون، لكن ذلك كان كل ما يعرفه بول عنه. وآنئذٍ كانت مينتا بالخارج حين عاد إلى المنزل ثم حدث مشهد السلالم، حين قضيب تحريك الفحم تحسبًا للصوص (وبلا شك أراد أيضًا أن يخيفها) وتكلم بمرارة بالغة، قائلًا إنها دمرت حياته. وعلى أية حال فعندما ذهبت لتراه في الكوخ قرب بلدة ريكمانسورث، كانت الأمور قد توترت إلى حدٍّ فظيع. أخذها بول إلى الحديقة لترى الأرانب البرية البلجيكية التي يربيها، وتبعتهما مينتا، وهي تغني، ووضعت ذراعها العاري فوق كتفه، خشية أن يبوح لها بأي شيء.

فكرت لِيلي أن مينتا كانت تمل من الأرانب البرية. لكن مينتا لم

تستسلم أبدًا. لم تتفوه أبدًا عن أشياء من قبيل لعب الشطرنج في المقاهي العامة. كانت بالغة الانتباه، بالغة الوعي. لكن للمضى قدمًا مع قصتهما- فهما الآن يمران بالمرحلة الخطرة في علاقتهما. لقد قضت بعض الوقت في الصيف الماضي معه، وتعطلت السيارة واضطرت مينتا أن تناوله عدته. جلس على الطريق يصلح السيارة، وكانت الطريقة التي ناولته بها عدة الإصلاح- العملية، المباشرة، الودودة- هي ما برهن على أن الأمور بخير في آنئذٍ. لم يعودا "واقعين في الحب"، لا، لقد أقام علاقة مع امرأة أخرى، امرأة جادة، تجدل شعرها وتمسك في يدها بحقيبة (وصفتها مينتا بامتنان، وتقريبًا بإعجاب)، تذهب للمقابلات وتشارك بول وجهات نظره (لديهما الكثير والكثير من الأمور المشتركة بشكل واضح) عن الضرائب العقارية وضرائب رأس المال. وبعيدًا عن تدمير الزواج، فقد أصبح هذا الأسلوب في التعامل الأمور إلى حدٍّ بعيد. كان واضحًا أنهما صديقان رائعان، وهو جالس على قارعة الطريق يصلح العطل الذي أصاب السيارة وهي تناوله عدته.

فكرت لِيلي، هكذا كانت قصة آل رايلي. تخيلت نفسها تحكيها للسيدة رمزي، التي كانت ستكون مفعمةً بالفضول لمعرفة ما جرى لآل رايلي. كانت ستشعر بانتصار صغير، وهي تخبر السيدة رمزي أن ذلك الزواج لم ينجح.

فكرت ليلي، لكن الموتى، وهي تواجه عقبةً ما في تصميمها جعلتها تتردد وتفكر، متراجعة خطوة أو خطوتين، تمتمت، أوه، الموتى! على المرء أن يرثي لهم، وعلى المرء أن يزيحهم جانبًا، بل على المرء أن يشعر إزاءهم بقليل من الازدراء. إنهم خارج نطاق الرحمة. فكرت، إن السيدة رمزي اختفت

وانتهت. يمكننا أن نتجاوز أمنياتها، وأن نُحسن من أفكارها المحدودة، العتيقة. إنها ترتد وترتد إلى الوراء بعيدًا عنا. ومن السخرية أنها بدت كأنها تراها هناك في نهاية الممر منذ سنوات تقول، عن كل الأشخاص غير المناسبين أحدهما للآخر، "فليتزوجا، فليتزوجا!" (وهي تجلس معتدلة القامة في الصباح الباكر والطيور بدأت تنام في الحديقة خارج المنزل). وقد أقول لها، لقد سارت الأمور كلها على عكس ما تمنيت. إنهم سعداء بهذا الشكل، وأنا سعيدة بهذا الشكل. لقد تغيرت الحياة تمامًا. عند ذلك فكل ما يخصها، حتى جمالها، يصبح لوهلة، باليًا وعتيق الطراز. لوهلة، راحت لِيلي، وهي واقفة هناك، والشمس الساخنة على ظهرها، تُقيِّم آل رايلي، وتنتصر على السيدة رمزي، التي لن تعرف مطلقًا كيف كان بول يرتاد المقاهي وكيف أصبحت له عشيقة، وكيف جلس على الأرض ومينتا تناوله عدة إصلاح السيارة، وكيف تقف هي الآن هنا ترسم لوحتها، وأنها لم تتزوج مطلقًا، ولا حتى وليام بانكس.

لقد خططت السيدة رمزي لذلك. ربما، لو عاشت، لكانت قد أرغمتها على هذا الزواج. بالفعل ذلك الصيف كان "أطيب الرجال". كان "أول عالم في مثل عمره، زوجي يقول ذلك". كان أيضًا "وليام المسكين- إنه يجعلني بغاية التعاسة، عندما أذهب لرؤيته، ولا أجد شيئًا مبهجًا في منزله- لا أحد يرتب له الزهور". وهكذا أرسلتهما في نزهات يسيران فيها معًا، وقد قيل لها، مع تلك المسحة الطفيفة من السخرية التي كانت تجعل السيدة رمزي تنزلق من بين أصابع المرء، أن لديها عقلية عملية؛ وتحب الزهور؛ وهي دقيقة. لماذا كان لديها هذا الهوس بالزواج؟ تعجبت لِيلي، وهي تخطو جيئةً وذهابًا عند حامل

اللوحة.

(فجأةً، مثلما ينسل نجم في السماء فجأةً، بدا أن ثمة ضوءًا محمرًّا قد بزغ في ذهنها، يغطي بول رايلي، منبثقًا عنه. انبجس مثل نار تعالت عربونًا لاحتفال تقيمه مجموعة من البدائيين على شاطئ بعيد. سمعَت الضجيج والخبط. أخذ البحر كله على مدى أميال حولها يتحول إلى الأحمر والذهبي. امتزجت به رائحة خمر وأسكرتها، لأنها شعرت مجددًا برغبتها المتهورة في أن تقذف بنفسها من فوق جرف، وأن تغرق بحثًا عن بروش من اللؤلؤ سقط على الشاطئ. وصدها الضجيج والخبط بالخوف والاشمئزاز، كأنما فيما كانت ترى روعته وقوته رأت أيضًا كيف كان يتغذى على كنز المنزل، بِنهم، مثيرًا الاشمئزاز، وعافته نفسها. لكن من أجل مشهدٍ ما، من أجل مجدٍ ما تخطت كل شيء في خبراتها، وأحرقت عامًا وراء عام كإشارة نار في جزيرة مهجورة على حافة البحر، ولا يملك المرء سوى أن يقول إنه "واقع في الحب" ومباشرةً، كما حدث الآن، ارتفعت نار بول مرةً أخرى. وغرقت، وقالت لنفسها، وهي تضحك، "آل رايلي"؛ كيف يرتاد بول المقاهي ويلعب الشطرنج).

فكرت أنها فقط على الرغم من ذلك نجت بمعجزة. كانت تبحث في مفرش المائدة، وبرق في ذهنها خاطر أنها يجب أن تنقل الشجرة إلى المنتصف، وأنه ليس هناك ما يدعوها إلى أن تتزوج أي شخص على الإطلاق، وشعرت ببهجة هائلة. شعرت أنها الآن تستطيع أن تقف للسيدة رمزي- إجلالًا للقوى المدهشة التي تسيطر بها السيدة رمزي على الناس. كانت تقول، افعل هذا، ويفعله المرء. حتى ظلها على النافذة بصحبة جيمس

كان مفعمًا بالسلطة. تذكرت كيف كان وليام بانكس مصدومًا من تجاهلها لعظمة الأم والطفل. تذكرت أنه قال لها، ألم تعجب بجمالهما؟ لكن وليام، أصغى إليها بعينيه المفعمتين بذكاء طفولي حين شرحت له أن ذلك لا علاقة له بعدم الاحترام: كيف أن ضوءًا هناك يحتاج لظل هنا، وهكذا. لم تكن تقصد أن تنتقص أو تقلل من شأن الموضوع الذي يتفقان على أن رافاييل قد عالجه بشكل قدسي. وهي لم تكن تقصد السخرية منه. على النقيض تمامًا. وبفضل عقليته العلمية استطاع أن يفهم- برهانًا على الذكاء غير المرغوب فيه الذي أسعدها وأراحها بشدة. فلها أن تتحدث عن الفن التشكيلي ورسم اللوحات بجدية مع رجل. حقًّا، كانت صداقته لها إحدى مباهج حياتها. لقد أحبت وليام بانكس.

ذهبا معًا إلى قصر هامبتون وكان دائمًا، كسيد نبيل مثالي، يترك لها وقتًا كافيًا لتغسل يديها، بينما يتسكع عند النهر. كان ذلك نمط علاقتهما. أشياء كثيرة تُركت بلا نقاش. ثم يتسكعان في الساحات، ويعجبان، صيفًا وراء صيف، بالنِّسب والزهور، وقد يحكي لها أشياءً، عن منظور الرؤية، وعن فن العمارة، أثناء سيرهما، وقد يتوقف ليتفرس في شجرة، أو في مشهد من البحيرة، ويبدي إعجابه بطفلة- (كان هذا حزنه الأكبر- فهو بلا ابنة) بتلك الطريقة البعيدة الغامضة كان ذلك طبيعيًا لرجل يقضي وقتًا طويلًا في المعامل، وعندما يخرج للعالم يصيبه الدوار، لذلك كان يسير ببطء، ويرفع يديه ليغطي عينيه ويتوقف مترددًا، ورأسه ملقاة للوراء، فقط لمجرد أن يتنفس الهواء. ثم وقتها قد يحكي لها كيف أن مدبرة منزله كانت تمضي إجازتها، وعليه أن يشتري سجادة جديدة للدرج. ربما تذهب معه لشراء

السجادة الجديدة للدرج. وذات مرة دفعه شيءٌ ما للحديث عن آل رمزي، وقال كيف كانت ترتدي قبعة رمادية حين رآها أول مرة، لم تكن تزيد عن التاسعة عشرة أو العشرين من عمرها. كانت جميلة جمالًا أخاذًا. وقف هناك يتطلع نحو الطريق إلى قصر هامبتون كأنه سيراها وسط النوافير.

كانت تتطلع في تلك اللحظة نحو عتبة باب حجرة الاستقبال. رأت من خلال عينَي وليام شبح امرأة تقف صامتة هادئة، وعيناها شاخصتان للأرض. جلست مستغرقة في التفكير، والتأمل (فكرت لِيلي أنها كانت ترتدي ثيابًا رمادية ذلك اليوم). كانت خافضة البصر. لم ترفع عينيها مطلقًا. فكرت ليلي، نعم، وهي تبدو متأكدة من أمرٍ ما، لابد أنني رأيت نظرتها بهذا الشكل، لكن ليس بالثياب الرمادية، ولا بحالة السكون الشديدة، ولا صغيرة جدًّا، ولا هادئة جدًّا. اقترب الشخص بأريحية كبيرة. كانت جميلة جمالًا أخاذًا، كما قال وليام. لكن الجمال لم يكن كل شيء. للجمال عقوبته- وجاءت بسرعة بالغة، جاءت بكمال بالغ. سمَّرت الحياة- جمدتها. فالمرء ينسى الاستثارات الصغيرة؛ التورد خجلًا، وامتقاع اللون، بعض التشويه الغريب، بعض الضوء أو الظل، الذي يجعل الوجه صعبًا تمييزه لوهلة ومع ذلك يضيف صفة يراها المرء بعد ذلك للأبد. كان الأسهل أن تسوِّي كل شيء تحت غطاء الجمال. تعجبت لِيلي، ماذا كانت نظرتها لما حشرت رأسها في قبعتها المصنوعة من جلد الأيائل، أو حين جرت على العشب، أو سخرت من كيندي البستاني؟ مَن يمكن أن يخبرها؟ مَن يمكن أن يساعدها؟

رغمًا عنها أتت إلى السطح، ووجدت نفسها خارج الصورة نوعًا ما، تنظر

إلى السيد كارمايكل في شبه دُوار، كأنها تنظر إلى أشياء غير حقيقية. كان ممددًا على مقعده ويداه معقودتان على حِجره لا هو يقرأ، ولا هو نائم، بل يتشمس كمخلوق أصابته التخمة من الوجود. وكتابه سقط على العشب.

أرادت أن تتجه مباشرةً نحوه وتقول، "سيد كارمايكل!" عندئذ سيرفع عينيه وينظر إليها نظرته الودودة المعتادة، بعينيه الخضراوين الغامضتين المشوبتين بلون الدخان. لكن المرء يوقظ الناس فقط عندما يكون مدركًا لما يريد أن يقوله لهم. وهي لم تكن تريد أن تقول له شيئًا محددًا بعينه، بل كل شيء. فالكلمات الصغيرة التي شوشت الأفكار ومزقتها لم تقل شيئًا. فكرت، "عن الحياة، عن الموت، عن السيدة رمزي"- لا، لا يمكن للمرء أن يقول لا شيء للا أحد. فإلحاح اللحظة يفقد دائمًا بصمته. والكلمات تهتاج منحرفةً وتصطدم بالأشياء إلى أسفل بدرجة كبيرة. عندئذٍ يرفعها المرء؛ عندئذٍ تغوص الفكرة مرةً أخرى؛ عندئذٍ يصبح المرء مثل معظم الناس في منتصف العمر، حذرين، ماكرين، بخطوط وتجاعيد بين العينين ونظرة الفهم الدائم. فكيف للمرء أن يعبر بالكلمات عن انفعالات الجسد؟ كيف يعبر عن ذلك الفراغ هناك؟ (كانت تتطلع نحو الدرجات المؤدية إلى قاعة الاستقبال، التي كانت تبدو فارغة بشكل زائد عن الحد). تلك كانت مشاعر الجسد، لا مشاعر العقل. والأحاسيس الجسدية التي مضت مع النظرة المجردة للدرجات أصبحت فجأةً كريهة إلى أقصى حد. فأن ترغب ولا تنال، بعثت في كل جسدها بقسوة، بخواء، بتوتر. وبعد ذلك أن ترغب ولا تنال- أن ترغب وترغب- كيف لهذا أن يعتصر القلب، ويعتصره مرات ومرات! أوه، السيدة رمزي! نادتها في صمت، إلى تلك الروح الجالسة عند القارب، ذلك

الشيء المجرد المؤلَّف منها، تلك المرأة المتشحة بالرمادي، كأنما لتسيء إليها لأنها رحلت، ثم رحلت، ثم عادت مرةً أخرى. بدا التفكير فيها بالغ الأمان. شبح، هواء، عدم، شيء يمكنك العبث معه بسهولة وأمان في أي وقت ليلًا أو نهارًا، كذلك أصبحت، ثم فجأةً مدت يدها واعتصرت قلبها هكذا. فجأةً، أصبحت الدرجات الخاوية المؤدية إلى قاعة الاستقبال، أهداب المقعد في الداخل، الجرو الذي يتشقلب في الشرفة، كل موج وهمس الحديقة، أصبحت كلها كالمنحنيات والأرابيسك متألقةً حول مركز من الفراغ الأكمل.

وهي تلتفت مرةً أخرى نحو السيد كارمايكل، أرادت أن تقول، "ما معنى هذا؟ كيف تفسر كل هذا؟" لأنه بدا أن العالم أجمع قد ذاب في هذه الساعة من الصباح الباكر إلى بركة من الأفكار، إلى حوض عميق من الحقائق، وتقريبًا يمكن للمرء أن يتخيل أن السيد كارمايكل إذا ما نطق، على سبيل المثال، بدمعة صغيرة فسوف تشق سطح البركة. وبعد؟ قد ينبثق شيءٌ ما. قد تنطلق يدٌ، وقد يبرق نصل. كان كل ذلك محض هراء بالطبع.

انبعث داخلها تصور غريب أنه سمع كل الأشياء التي لم تجرؤ على البوح بها. كان رجلًا عجوزًا ملغزًا، بتلك البقعة الصفراء في ذقنه، وشِعره، وألغازه، فيما يبحر بسكينة في عالم يشبع كل رغباته، لذلك فكرت أنه ليس عليه سوى أن يضع يده حيث يتمدد على المرج فيستخرج أي شيء يريد. تطلعت إلى لوحتها. من المحتمل، أن تكون إجابته هكذا- كيف "أنت" و"أنا" و "هي" نمضي ونتلاشى، لا شيء يبقى، كل شيء يتغير، لكن ليس الكلمات، ليس الرسم. فكرت، مع ذلك، أن لوحاتها لن تُعلَّق إلا في العلِّيَّات؛ وقد تُلَف وتُرمَى تحت أريكة؛ وحتى على الرغم من ذلك، في حالة لوحة كهذه، فقد كان

ذلك حقيقيًّا. قد يقول المرء، ربما، في حالة مثل هذه الخربشات المتعجلة، لا عن لوحة حقيقية، لكنها كانت توشك أن تقول إن ما حاولت تقديمه من خلالها "سيبقى للأبد"، أو، لأن الكلمات المنطوقة كانت تصدر سطحية حتى لها هي شخصيًّا، شديدة التبجح، لتومئ، بلا كلمات؛ حيث، اندهشت، إذ نظرت إلى اللوحة، باكتشاف أنها لا تستطيع أن تراها. كانت عيناها مترعتين بسائل ساخن (لم تفكر في الدموع في البداية) جعل الهواء كثيفًا، دون تكدير حَزم شفتيها، وانحدر على وجنتيها. كانت لديها سيطرة تامة على نفسها- أوه، نعم!- بكل الأشكال الأخرى. هل كانت تبكي وقتها على السيدة رمزي، دون وعى بأية تعاسة؟ كلمت السيد كارمايكل العجوز مرةً أخرى. ما كان هذا إذن؟ ما معناه؟ هل يمكن للأشياء أن تقحم يديها وتمسك بتلابيب المرء؛ هل يمكن للنصل أن يجرح؛ القبضة الأولى؟ ألم يكن هناك أمان؟ ألا يعرف القلب طرق العالم؟ أما من مرشد، ولا ملاذ، بل مجرد معجزة، والقفز من فوق قمة برج في الهواء؟ أيمكن أن تكون تلك هي الحياة، حتى بالنسبة لمن هم أكبر سنًّا؟- المفزع، المفاجئ، المجهول؟ لوهلة شعرت أنه إذا ما نهض كلاهما، هنا، الآن على المرج، وطلبا تفسيرًا، لماذا هي بالغة القصَر هكذا، لماذا هي عصية على الفهم هكذا، وقالا ذلك بعنف، كإنسانين ناضجين تمامًا لا ينبغي أن يخفيا ما يستطيعان قوله، آنئذٍ، قد يرفع الجمال نفسه مرةً أخرى؛ وقد يملأ الفضاء؛ وقد تتخذ تلك الزخرفات الفارغة شكلًا؛ لو صاحا بصوت مرتفع بما يكفي فقد تعود السيدة رمزي. نادت عاليًا، "سيدة رمزي!، سيدة رمزي!" وانسابت الدموع على وجهها.

الفصل السَّــادس

[أخذ ابن ماكاليستر سمكةً وفتح زاوية في جانبها ليغرس فيها خُطافـه. وأُلقي بالجسد المبتور (كانت لا يزال على قيد الحياة) عائدًا إلى البحر).

الفصل السَّـــابع

صاحت لِيلي، "سيدة رمزي!، سيدة رمزي!" لكن شيئًا لـم يحـدث. بـل ازداد الألم. فكرت أن بوسع الغَم أن يختزل المرء إلى شارة على الحماقة! على أية حال فلم يسمعها الرجل العجوز. ظل عطوفًا، هادئًا- متساميًا، لو أراد المـرء. الحمد للعناية الإلهية، أن أحدًا لم يـسمعها وهي تـصرخ صرختهـا المخزيـة، توقف أيها الألم، توقف! فمن الواضح أنها لم تفقد صـوابها. لـم يرهـا أحـدٌ تخطو خارِج حدود لوحتها إلى ميـاه العـدم. بقيـتِ عانـسًا عجـوزًا ضـئيلة، تمسك بفرشاة الرسم.

والآن ببطء تضاءل ألم الرغبة، والغضب المرير (لتذكُّرها، ما إن فكـرت أنها لن تشعر بالأسى على السيدة رمزي مرة أخرى مطلقًـا. فهـل افتقـدتها وسط أقداح القهوة في طعام الإفطار؟ لا مطلقًـا)؛ وفيمـا تـبقى مـن غمهـم، كترياق، كراحة كانت بلسمًا في ذاتها، وأيضًا، لكن أكثر غموضًا، شعور بأن

شخصًا ما موجود، شعور بالسيدة رمزي، وقد تخففت لوهلة من الثقـل الذي أثقل كاهلها به العالم، تقف بخفة بجوارها ثم (لأن هذه كانت السيدة رمـزي بكل جمالها) ترفع إلى جبينها إكليلًا من زهور بيضاء ثم تمضي به. عـصرت لِيلي أنبوبة الألوان مرةً أخرى. واجهت تلك المـشكلة في الـسياج الـشجري. كان من الغريب كم أنها رأتها بوضوح، تخطو بسرعتها المعتادة عبر الحقول وسط تعرجاتها، الضاربة إلى اللون الأرجواني والناعمة، وسط زهورها، سـواء زنابق أو سوسن، ثم تختفي. إنها حيلةٌ من عـين رسـام. لأنـه بعـد أيـام مـن سماعها عن موتها رأتها بهذا الشكل، تضع إكليلها على جبينها وتمـضي بـلا تردد مع رفيقها، كظِل عبر الحقـول. كان للمـشهد، والعبـارة، قـدرتهما على العزاء. وأينما كانـت، ترسـم، هنـا، في الريـف أو في لنـدن، فالرؤيـة تأتيهـا، وعيناها، نصف المغمضتين، تبحثان عن شيءٍ لتُرسي رؤيتها عليـه. نظـرت على عربات السكة الحديد، وسيارات الأومينبوس؛ كانـت تأخـذ خطًّـا مـن الكتف أو الخد؛ نظرت نحو النوافذ في الجهة المقابلة؛ نحو ميـدان بـيكاديللي، والأضواء المبهرة في المساء. كل هذا أصبح جزءًا مـن حقـول المـوت. لكـن دائمًا ثمة شيءٌ ما- ربما وجه، أو صوت، أو بائع صحف يصيح على بـضاعته قائلا أخبار مهمة- يندفع تجاهها، يوقفها فجأةً، يوقظها، وهي تتطلب وتنـال الانتباه في النهاية، لذلك فلابد للرؤية من إعادة صياغة دائمًا.

الآن مرةً أخرى، مدفوعة للحركة بفعـل احتيـاج غريـزي إلى الفـضاء والزرقة، نظرت نحو الخليج أسفل منها، يـصنع تـلالًا صـغيرة مـن قـضبان الأمواج الزرقاء، وحقولًا حجرية من المساحات الأرجوانيـة، ومـرةً أخـرى استيقظت كالمعتاد بفعل شيء متضارب. كانت هناك بقعة بنية في منتـصف

الخليج. كان قاربًا. نعم، لقد أدركت ذلك بعد ثانية واحدة. لكن قارب مَن هذا؟ أجابت، قارب السيد رمزي. السيد رمزي، ذلك الرجل الذي سار بجوارها، وهو يرفع يديه، عاليًا، على قمة الموكب، في حذائه ذي الرقبة الجميل، طالبًا منها التعاطف، الذي رفضت أن تمنحه له. كان القارب في تلك اللحظة في منتصف طريقه نحو الخليج.

كان صباحًا جميلًا جدًّا عدا أثر من ريح بين وقت وآخر حتى بدا البحر والسماء متصلين أحدهما بالآخر كشيء واحد، كأن الأشرعة ترتطم بالسماء عاليًا، أو أن السحب قد هوت في البحر. كان ثمة سفينة بخارية بعيدًا في البحر ترسم في الهواء خطًّا حلزونيًّا ضخمًا من دخان ظل هناك يتلوى ويدور في أشكال زخرفية، كأن الهواء كان شاشًا رهيفًا يربط الأشياء ويبقي عليها بنعومة في شبكته، يؤرجحها بلطف فحسب إلى هذا الاتجاه وذاك. وكما يحدث أحيانًا عندما يكون الطقس لطيفًا، بدت قمم الجروف كأنها واعية بوجود السفن، وبدت السفن كأنها واعية بالجروف، كأنما كل منها تبعث للأخرى برسالة خاصة بها. وكما يحدث بعض الأحيان عندما تكون قريبًا من الشاطئ، بدا الفنار هذا الصباح في الضباب الرقيق بعيدًا بُعدًا هائلًا.

فكرت لِيلي، "أين هم الآن؟" وهي تنظر إلى البحر. أين هو، ذلك الرجل العجوز الذي مر بجوارها في صمت، وهو يحمل لفافة من الورق الأصفر الداكن تحت ذراعه؟ كان القارب في منتصف الخليج.

الفصل الثَّــامن

إنهم لا يشعرون بشيء هناك، فكرت كام، وهي تنظر نحو الـشاطئ، الذي يعلو وينخفض، وأصبح باضطراد أكثر بُعدًا وأكثر سلامًا. شقت يدها خطًّـا طويلاً في البحر، فيما كان عقلها يضع الدوامات والخطوط الخضراء في أنماط مخدَّرةً ومكفَّنة، طافت في خيالها في ذلـك العـالم الـسفلي في الميـاه حيـث اللآلئ تتجمع في كتل من باقات بيـضاء، حيـث يحـدث التغيـير في الـضوء الأخضر لذهن المرء كلية ويتوهج جسده في شكل شبه شفاف ملتـف بعبـاءة خضراء.

ثم تراخت الدوامة حول يدها. وتوقف اندفاع الماء؛ أصبح العالم ممتلئـا بأصوات صرير وصريف صغيرة. وكان ممكنًا سماع الأمواج تتكسر وتـرتطم بجانب القارب كأنهم يرسون في الميـنـاء. أصـبح كل شيءٍ قريبًـا للمـرء. لأن الشراع، الذي كان جيمس مثبتًا عينيه عليه حتى أصبح مثل شخص يعرفه،

ارتخى تمامًا؛ هناك وصلوا إلى حاجز، ارتطموا به وهم ينتظرون نسمة هـواء، في الشمس المتقدة، وهم على بعد أميال من الشاطئ، وأميال من الفنـار. بـدا كل شيء في العالم أجمع بلا حراك. وأصبح الفنـار راسـخًا، وخـط الـشاطئ البعيد ثابتًا. ارتفعت حرارة الشمس أكثر وبدا أن الجميع قد اقتربوا أحدهم من الآخر ليشعروا بوجود بعضهم بعضًا، ذلك الشعور الذي كانوا تقريبًا قـد نسوه. هبطت صنارة الصيد الخاصة بماكاليستر رأسـيًّا لأسـفل مخترقـةً المـاء مباشرةً. لكن السيد رمزي واصل قراءته وساقاه مثنيتان تحته.

كان يقرأ كتابا صغيرًا أوراقـه لامعـة وله غـلاف مـبرقش مثـل بيـضة الزقزاق. وبين حين وآخر، وهم معلقون في ذلك الهدوء المرعـب، كان يقلـب صفحة. وكان جيمس يشعر أن كل صفحة كانـت تُقلـب مـصحوبة بإشـارة خاصة موجهة إليه، تأكيديةً مرة، وآمرةً مـرة أخـرى، ومـرةً ثالثـة تكـون مصحوبة بلفت الانتباه لجعل الناس يشفقون عليه ويرثـون لحـاله؛ وطيلـة الوقت، فيما والده يقرأ ويقلب تلك الصفحات الصغيرة صفحة وراء أخرى، ظل جيمس مرعوبًا من اللحظـة الـتي سـيرفع فيهـا عينيـه مـن صـفحات الكتاب ويوجه له كلامًا حادًّا بشأن هذا الموضوع أو ذاك. ربما سيسأل، لمـاذا يتباطأون هنا؟ أو أي موضوع آخر غير معقول وعبثي كهذا. فكر جيمس، إذا فعل ذلك، فسآخذ سكينًا وأغرسها في قلبه.

كان يحفظ دائمًا داخله هذا الرمز القديم في الإمساك بسكين وغرسها في قلب والده. الآن فقط، لأنه أصبح أكبر سنًّا، وجلس يحدق في والده في غـيظ عاجز، إنه ليس هو، ذلك الرجل العجوز الذي يقـرأ، الذي أراد قتلـه، لكنـه

الشيء الذي تنزَّل عليه- ربما دون معرفته: ذلك الطائر الخرافي الوحشي المفاجئ ذو الأجنحة السوداء، بمخالبه ومنقاره ببرودتهم وقسوتهم، الذي يرتطم بك ويرتطم (بوسعه أن يشعر بالمنقار على ساقيه العاريتين، حيث نقره حين كان طفلًا) ثم يطير، وها هو يعود مرةً أخرى، رجلًا عجوزًا، شديد الحزن، يقرأ كتابه. ذلك هو مَن سيقتله، مَن يود أن يغرس السكين في قلبه. مهما يكن ما فعله- (وهو قد يفعل أي شيء، شعر بذلك، وهو ينظر إلى الفنار وإلى الشاطئ النائي) سواء كان في عمله، أو في المصرف، أو على الحدود، أو على رأس مؤسسة تجارية، ذلك هو الذي سيقاتله، ذلك هو من سيطأه بقدميه ويسحقه- إنه الطغيان، الاستبداد، كما أسماه- الذي يُكره الناس على فعل ما لا يرغبون، وهو يمنع عنهم حقهم في الكلام. فكيف لأي شخص منهم أن يقول، لكني لا أريد، عندما قال، فلنذهب إلى الفنار. افعل هذا. هات لي ذاك. فكر جيمس وفي ذهنه تلك الصور، كانت الأجنحة السوداء تنتشر، والمنقار القاسي يمزق. ثم في اللحظة التالية، يجلس هكذا يقرأ في كتابه؛ وقد يرفع عينيه وينظر- لم يكن المرء لَيدري على الإطلاق- بعقل شديد. قد يتكلم مع آل ماكاليستر. قد يدس جنيهًا ذهبيًا في يد امرأة عجوز تتجمد بردًا في الشارع، كما فكَّر جيمس، وقد يصيح أثناء لهو الصيادين؛ وقد يلوح بذراعيه في الهواء في إثارة وحماسة. أو قد يجلس على رأس المائدة صامتًا من نهاية عشاء لآخر. نعم، فكر جيمس في هذه الصور، بينما القارب يتلاطم ويرتج هناك في الشمس الساخنة؛ كان ثمة قفر مليء بالثلج والحجارة بالغ الانعزال وأجرد؛ وقد اعتراه شعور، في اللحظات الأخيرة، عندما قال والده شيئًا أو فعل شيئًا أدهش الآخرين، بوجود آثار زوجين من الأقدام فقط؛

آثار قدميه وقدمي والده. هما فقط مَن يعرف أحدهما الآخر. فماذا كان إذن هذا الذعر، وهذه الكراهية؟ وإذ استدار وسط أوراق الأشجار الكثيفة التي طواها الماضي داخله، محدقًا في قلب تلك الغابة حيث الضوء والظل يلون كل منهما الآخر إلى حد أن يفسد الشكل كله، ويتخبط المرء، لحظة بسبب أشعة الشمس في عينيه، ولحظة أخرى بسبب الظل المعتم، بحث عن صورة تهدئ وتفصل وتستكمل مشاعره في شكل ملموس. فلنفترض أنه في تلك اللحظة كان كطفل يجلس بلا حيلة في عربة أطفال، أو على ركبتي شخصٍ ما، فرأى حافلةً تصطدم بجهل وسذاجة، بقدم شخصٍ ما؟ فلنفترض أنه رأى القدم أولًا، على العشب، ناعمة، ومكتملة، ثم بعدها رأى الدراجة الهوائية، ونفس القدم، أرجوانيةً، مهشمة. لكن الدراجة الهوائية كانت بريئة. ولذلك في تلك اللحظة، عندما أتى والده يتسكع في الممر ليوقظهم في الصباح الباكر، ويطلب منهم الذهاب إلى الفنار صادفت قدميه، وقدمَي كام، وقَدمَي أي شخص. والمرء يجلس ويراقب الأمر.

لكن قدم مَن تلك التي كان يفكر فيها، وفي أية حديقة حدث كل هذا؟ لأن المرء لديه خلفيات لهذه المناظر؛ الأشجار التي نمت هناك؛ الأزهار؛ ضوء ما؛ قليل من الأشخاص. كان كل شيء يميل إلى أن يضع نفسه في حديقة حيث لا أثر لهذه الكآبة. لا أثر للتطويح بتلك الأيدي؛ كان الناس يتكلمون بنبرة صوت عادية. يدخلون ويخرجون طيلة اليوم. وكانت هناك امرأة عجوز تثرثر في المطبخ؛ والستائر تندفع إلى الداخل والخارج بفعل النسيم؛ كل شيء كان يهب، ينتشر، وفوق كل تلك الأطباق والآنية والزهور الحمراء والصفراء الطويلة ثمة قطعة قماش شفافة كالحجاب سيتم سحبها، مثل ورقة كرمة،

في الليل. في الليل أصبحت الأشياء أكثر سكونا وعتمة. لكن الحجاب الشبيه بورقة الشجرة كان بالغ الرهافة إلى حد أن رفعته الأضواء، واصطدمت به الأصوات؛ وكان يمكنه أن يرى من خلاله شخصًا ما ينحني، ويسمع، ويقترب، ويبتعد، وثوبًا يصدر حفيفًا، وسلسلة تصلصل.

كان ذلك في هذا العالم حين مرت الدراجة الهوائية على قدمَي ذلك الشخص. تذكر شيئًا ما بقي معلقًا في الهواء، شيئًا ما جافًا وحادًّا هبط حتى هناك، كنصل، كسيف معقوف، يضرب بقوة خلال أوراق الأشجار والزهور حتى في ذلك العالم السعيد بل يجعله يذوي ويهوي.

تذكر والده وهو يقول، "ستمطر، لن تستطيعوا الذهاب إلى الفنار".

كان الفنار وقتها برجًا فضيًّا ضبابيًّا بعين صفراء، تنفتح فجأةً، وبنعومة في المساء. الآن...

نظر جيمس إلى الفنار. استطاع أن يرى الأحجار المطلية؛ و البرج، بارزًا وشامخًا؛ استطاع أن يرى أنه كان مخططًا بالأسود والأبيض؛ استطاع أن يرى نوافذه؛ استطاع حتى أن يرى الملابس المغسولة منشورة على الصخور لتجف. هكذا كان الفنار، أليس كذلك؟

لا، فالآخر أيضًا كان فنارًا. لأنه لا شيء كان ببساطة شيئًا واحدًا. فالفنار الآخر كان حقيقيًّا أيضًا. كان أحيانًا من الصعوبة بمكان أن تراه عبر الخليج. وفي المساء يتطلع المرء إلى أعلى ويرى العين تنفتح وتنغلق، ويبدو كأن الضوء يصلهم في تلك الحديقة المشمسة المترعة بالهواء حيث كانوا يجلسون.

لكنه سحب نفسه ونهض. وحينما قال "هم" أو "شخص"، ثم بـدأ يـسمع حفيف قدوم شخصٍ ما، ورنين شخص يغادر، أصبح مرهفًـا لأقـصى درجـة لوجود أي شخص قد يدلف إلى الغرفة. إنـه والده الآن. كان التـوتر شـديدًا. لأنه في غضون وهلة إن لم يأت النسيم، فـإن والده سيـصفع غـلاف كتابـه ويغلقه، ويقول : "ماذا يحدث الآن؟ ما الذي يجعلنا نتلكأ هنا؟ إيـه؟" مثلمـا فعل ذات مـرة وأحـضر معـه شـفرته وسـطهم في الـشرفة وتحولـت هي إلى شخصية قاسية مع الجميع، ولو كانت هناك فـأس يدويـة، أو سـكين، أو أي شيء ذو حافة حادة لأمسك به بقوة وغرسه في قلب والده. وتحولـت هي إلى شخصية قاسية مع الجميع، ثم تراخى ذراعها، لذلك أحس أنها لم تعد تـصغي إليه، نهضت بطريقةٍ ما وغادرت المكان وتركته هناك، عاجزًا، سخيفًا، يجلس على الأرض قابضًا على مقص.

لم تهب نسمة واحدة. قوقأ الماء وقرقر في قاع القـارب حيـث ثـلاث أو أربع سمكات ماكريل كانت تضرب بأذيالها لأعلى وأسفل في بركـة مـن المـاء ليست بالعمق الذي يسمح بتغطيتها. وفي أية لحظة قد يعتدل الـسيد رمـزي (كان بالكاد يجرؤ على النظر إليه)، ويغلق كتابه، ويقـول شـيئًا حـادًّا، لكنـه بالنسبة للحظة الراهنة فهو مستغرق في قراءته، لذلك خلسةً، كأنـه يتـسلل هابطًا الدرج حافي القدمين، يخشى أن يوقظ كلب الحراسة باصطدام الحـذاء بألواح الخشب، واصل جيمس التفكير في كيف كان شـكلها، وأيـن ذهبـت ذلك اليوم؟ لقد راح يتبعها من حجرة لأخرى وفي النهاية وصلا إلى حجـرة بها ضوء أزرق، كأن انعكاس الضوء يأتي من أطباق خزفية كثيرة، تحدثت إلى شخصٍ ما، أصغى إليها وهي تتكلم. تحدثت مع خادمـة، وقالـت ببـساطة أي

شيء خطر ببالها. هي وحدها مَن كانت تقول الحقيقة، ولها هي وحدها كان يستطيع أن يقول الحقيقة. ذلك كان منبع جاذبيتها الدائمة له، ربما، كانت شخصًا بوسع الانسان أن يقول لها ما يدور في رأسه. لكنه كان يفكر فيها طول الوقت، كان واعيًا بأن والده يتتبع أفكاره، يفحصها بدقة، ثم يجعلها تتشظى وتتداعى. وفي النهاية كف عن التفكير.

جلس هناك ويده على ذراع الدفة في الشمس، يحملق في الفنار، غير قادر على الحركة، غير قادر على نفض الغبار عن بلورات الشقاء التي استقرت في ذهنه واحدةً بعد الأخرى. بدا أن حبلًا ما يقيده هناك، وأن والده قد أحكم وثاقه، وليس بوسعه الفرار إلا بأخذ سكين وغرسها... لكن في تلك اللحظة تأرجح الشراع ببطء حول نفسه، نفخته الريح ببطء، وبدا أن القارب يهز نفسه، ثم يتحرك نصف واعٍ في نومه، ثم استيقظ وانطلق فوق الأمواج. كان الفَرَج غير عادى. بدا أنهم يتساقطون عن بعضهم البعض مرةً أخرى ليصبح كل منهم على راحته، وصنانير الصيد مالت مشدودة عبر جانب القارب. لكن والده لم يعدل نفسه. فقط رفع يده اليمنى عاليةً في الهواء بشكل مبهم، ثم تركها تسقط على ركبته مرةً أخرى كما لو كان يقود سيمفونية خفية.

الفصل التَّاســع

[البحر بلا بقعة، فكرت لِيلي بريسكو، وهي لا تزال واقفةً وتتطلـع عـبر الخليج. امتد البحر كالحرير عبر الخليج. كان البُعـد له سـطوته الاسـتثنائية؛ لقد تم ابتلاعهم فيه، كما أحست، اختفـوا إلى الأبـد، أصـبحوا جـزءًا مـن طبيعة الأشياء. كان الجـو شـديد الـسكون، شـديد الهـدوء. حـتى الـسفينة البخارية نفسها اختفت، لكن طبقات الدخـان لا تـزال معلقـة في الهـواء وتتدلى مثل علم حزين في حفل وداع].

الفصل العاشـــر

فكرت كام، إن الجزيرة كانت هكـذا وقتهـا، وهي تغـرق أصـابعها مـرةً أخرى في الأمواج. لم ترها من قبل من الخارج وهي في البحر. إنهـا تـستلقي هكذا على البحر، رآهـا، بنتـوء في المنتـصف وجـرفين شـديدَي الانحـدار، والبحر يمسها بخفة، وينتشر أميالا وأميالًا على جانبيها، تلك الجزيرة. كانت صغيرة جدًّا؛ تتخذ شكلًا شبيهًا بورقة شجرة تقف على حافتها. لذلك أخـذنا قاربًا صغيرًا، فكرت هكذا، وبدأت تحكي لنفسها قصة مغامرات عن النجـاة من سفينة غارقة. لكن مع حركة تيـار مـاء البحـر مـن خـلال أصـابعها، تلاشى خلفهم نثارٌ من أعشاب البحر، لم تكن تريد جديًّا أن تحكي لنفسها قصة؛ كان الشعور بالمغامرة والهروب هو ما أرادته، لأنها كانت تفكر، أثنـاء إبحـار القـارب، كيـف كان غـضب والدهـا على عـدم معرفتهـا باتجاهـات البوصلة، وعناد جـيمس بخـصوص الاتفـاق، وغمهـا الخـصوصي، كل تلـك الأشياء انسلت، كلها مرت، كلها أبحرت بعيدًا. فما الذي سيحدث بعد ذلك؟

إلى أين يمضون؟ من يدها، الباردة كالثلج، المغروسة عميقًا في البحر، انبثقت نافورة من البهجة بالتغيير، بالفرار، بالمغامرة (فـهي لا بـد أن تـبقى على قيـد الحياة، أن تكون موجودة في المـشهد). والقطـرات المتـساقطة مـن نـافورة البهجة هذه المفاجئة وغير المتوقعة تسَّاقط هنـا وهنـاك في العتمـة، أشـكالًا ناعسة في خيالها؛ أشكال عالم غير محسوس لكنها تطوف في عتمتها، تتشبث هنا وهناك، بقبس من نور؛ اليونان، روما، القسطنطينية. صـغيرةً كمـا هي، وتتخذ شكلًا شبيهًا بورقة شجرة تقف على حافتها مع المياه الذهبية المتنـاثرة المنسابة للداخل والخارج حولها، كانت، فيما افترضت، مكانًا مـا في الكـون- حتى تلك الجزيرة الصغيرة؟ فكرت ذات مرة أن الـسيد العجـوز في مكتبـه يمكنه أن يخبرها. كانت أحيانًا تضل طريقها من الحديقة إلى المكتـب عمـدًا لتباغتهما هناك. كانا هناك (ربما كان السيد كارمايكل أو السيد بـانكس مَن كان جالسًا مع والدها) يجلسان أحدهما قبالة الآخر عل مقاعد خفيضة ذات مساند. كانا يخشخشان أمامهمـا بـصفحات التـايمز، عنـدما دخلـت قادمة من الحديقة، وهما مرتبكان، بسبب شيءٍ ما قاله أحدهما عن المـسيح، أو سمعا أنه قيل عن أن الماموث المنقرض قد وجده المنقبـون عـن الآثـار في أحد شوارع لندن، أو متسائلين عن كيف كان نـابليون. ثـم أخـذا كل هـذا بأيديهما النظيفة (كانا يرتديان ملابس رمادية اللون، وتفوح منهمـا رائحـة نبات الخلنج) ونحيا القصاصات جانبًا، وطويا الصحيفة، وربَّعا ركبهما، وكانا يقولان شيئًا بين لحظة وأخرى بإيجاز شديد. فقط لتسلي نفسها أخذت كتابًا من الرف ووقفت هناك، تراقب والدها يكتب، بهدوء شديد، وأناقة شـديدة من أحد جانبي الصفحة إلى الآخر، مع سعلة صغيرة بين وقت وآخر، أو شيءٍ

ما يقال بإيجاز للسيد العجوز الآخر في مقابلـه. وكمـا فكـرت، وهي واقفـة هناك مع كتابها المفتوح، فيمكن للمرء أن يطلق العنان لأفكاره لتنطلق هنا مثل ورقة شجر في الماء؛ وإذا استطاعت أن تفعل هذا هنا بشكل طيب، وسط هذين السيدين وهما يدخنان ويقرآن التـايمز الـتي تخـشخش لـكان الأمـر صائبًا. وعندما كانت تراقب والدها وهو يكتب في مكتبه، فكرت (هو الآن يجلس في القارب) أنه لم يكن تافهًا، ولا طاغية، ولم يتمن أن تشفق عليـه. والحقيقة، أنه لو رآها هناك تقرأ كتابًا، لـكان سـألها، بلطـف كمـا يفعـل أي شخص آخر، هل هناك أي شيء يستطيع أن يقدمه لها؟

ولئلّا يكون ثمة خطأ، نظرت إليه وهو يقرأ الكتاب الصغير ذا الغلاف اللامع، المبرقش مثل بيضة الزقزاق. لا؛ كانـت على صـواب. كانـت تريـد أن تقول لجيمس بصوت عال، انظر إليه الآن (لكن جيمس كان يركز نظره على الشراع). سيقول جيمس، إنه وحش مثير للـسخرية. سـيقول جـيمس، إنـه يجذب خيوط الحديث حول نفسه وكتبه. إنه أناني بـشكل لا يحتمـل. وأسـوأ شيء، أنه طاغية. قالت، وهي تنظر نحوه، لكن انظر إليـه. انظـر إليـه الآن. نظرت نحوه وهو يقرأ الكتاب الصغير وسـاقاه مثنيتـان، هي تعـرف الكتـاب الصغير بصفحاته الصفراء، دون أن تعرف ما المكتوب في هـذه الـصفحات. كان كتابًا صغيرًا، طباعته دقيقـة، تعـرف ذلـك، وأنـه على الورقـة البيـضاء الموجودة في آخر الكتاب، كتب أنه أنفق خمـسة عـشر فرنكًـا على العـشاء، وكان هناك نبيذ بغزارة شديدة، وأنه منح الساقي بقشيشًا سخيًا، كل ذلك كان مدونًا بدقة أسفل الصفحة. لـكـن مـا الذي قـد يكـون مكتوبًـا في ذلـك الكتاب الذي كانت حوافه تبرز من جيبه، لم تكن تعرف. ولا أحـد منهمـا

يدرك فيم كان يفكر. لكنه كان مستغرقًا في التفكير، لذلك حين كان يرفع بصره، كما فعل الآن على سبيل المثال، لم يكن ليرى أي شيء، بل كان ليؤكد فكرةً ما بشكل أكثر دقة. ذلك ما فعله، عاد عقله طائرًا مرةً أخرى وانغمس في قراءته. فكرت أنه كان يقرأ، كأنه يرشد شيئًا ما، أو يسوق قطيعًا كبيرًا من الأغنام أمامه، أو يشق طريقه صاعدًا في ممر وحيد ضيق، وأحيانًا كان يعود سريعًا ومباشرًا، ويقطع طريقه عبر نباتات العليق المتشابكة، وأحيانًا يبدو أن غصنًا قد ارتطم به، أو نباتات العليق قد حجبت عنه الرؤية، لكنه لم يكن ليترك نفسه ينهزم بهذا، أثناء عودته، وهو يدفع الصفحة وراء الصفحة. واستمرت تحكي لنفسها قصة عن النجاة من سفينة غارقة، لأنها كانت تشعر أنها آمنة، وهو جالس هناك، آمنًا، نفس الشعور الذي أحسته عندما دخلت زاحفةً من الحديقة، وأخذت كتابًا، والسيد العجوز يخفض الصحيفة فجأةً، ويقول شيئًا بإيجاز شديد فوقها عن شخصية نابليون.

عادت تحملق في البحر، وفي الجزيرة. لكن ورقة الشجر كانت تفقد حدتها. كانت صغيرةً جدًّا؛ نائية جدًّا. وكان البحر أكثر أهمية الآن من الشاطئ. والأمواج تحيط بهم من كل جانب، تتلاطم وتغوص، ولوح من الخشب يتقلب على الموجة؛ وطائر نورس يحط على لوح آخر. هنا حولها، فكرت، وهي تغمس يديها في الماء، أن سفينة غرقت، تمتمت، وهي حالمة نصف نائمة، كيف هلكنا، كل بمفرده.

الفصل الحادي عشـــر

فكرت لِيلي بريسكو أن أمورًا كثيرة معلقـة الآن، وهي تنظـر إلى البحـر الذي تبين فيه بالكاد لطخةٌ مـا، وكان شـديد النعومـة لدرجـة أن الأشرعـة والسحب بدت مغموسة في زرقته، فكرت أن أمورًا كثـيرة معلقـة على طـول المسافة؛ سواء كان الناس قريبين منا أو بعيدين عنا؛ ذلك أن مشاعرها نحـو السيد رمزي قد تغيرت وهو يبحر مبتعدًا أكثر وأكثر عبر الخلـيج. بـدا أنـه يستطيل، ويتمدد؛ بدا أنه يصبح أبعد فأبعد. بدا أنه هو وأولاده قد ابتلعـتهم تلك الزرقة، ابتلعهم ذلك البُعد؛ لكن هنـا، على المـرج، في متنـاول اليـد، تنحنح السيد كارمايكل فجأة. ضحكت. أنشب أصـابعه في كتابـه ليأخـذه من على العشب. واستقر في مقعده مرةً أخـرى ينفـث ويـنفخ مثـل وحـش بحري. كان ذلك مختلفًا تمامًا، لأنه شـديد القُـرب. والآن مـرةً أخـرى سـاد الهدوء كل شيء. من المفترض أنهم كانوا ينهضون في مثـل هـذا الوقـت مـن الفراش، افترضت هذا، وهي تنظر إلى المنزل، لكن لم يظهر شيء هناك. ثـم

عندئذٍ، تذكرت، كانوا دائمًا في ذلك الوقت يكونون قد انتهوا من إعداد وجبة طعام، يعدونها بأنفسهم. وكل شيء يلتزم الصمت، هذا الفراغ، وهذا الوهمي لساعة الصباح الباكر. فكرت أن تلك كانت طريقة تُنجَز بها الأمور ذات يوم، متمهلةً لوهلة ومتطلعة إلى النوافذ الكبيرة المتألقة وكثافة الدخان الأزرق: لقد أصيبت تلك النوافذ بالمرض، قبل أن تنسج العادات نفسها على السطح، والمرء يشعر بنفس الوهمي، الذي كان مُجفلًا؛ يشعر بشيءٍ ما ينبثق. أصبحت الحياة عندئذٍ مفعمة بالحيوية. ويمكن للمرء أن يكون على راحته. والحمد لله أن المرء ليس بحاجة لأن يتكلم، أو أن يعبر المرج، بسرعة بالغة، ليحيِّي السيدة بيكويث العجوز، التي قد تخرج من المنزل للعثور على ركن تجلس فيه، وتقول لها، "أوه، صباح الخير، يا سيدة بيكويث! يا له من يوم لطيف! هل تجازفين لدرجة الجلوس في الشمس؟ لقد أخفى جاسبر المقاعد. فلأجد لك مقعدا!" وكل بقية الثرثرة المعتادة. فالإنسان ليس بحاجة للكلام على الإطلاق. الإنسان ينزلق، الإنسان يهز أشرعته (كانت هناك حركة كثيرة في الخليج، وكانت هناك قوارب توشك أن تقلع) بين الأشياء، وراء الأشياء. لم يكن الفراغ، بل الامتلاء حتى الحافة. وبدا أنها تقف على الحواف في خلاصةٍ ما، لتتحرك وتطفو وتغرق فيها، نعم، لأن هذه المياه كانت عميقة بلا أغوار. هوت فيها حيوات كثيرة. آل رمزي، وأطفالهم؛ وكذلك كل أنواع المتشردين والتائهين. عاملة تنظيف مع سلتها؛ طيور الرخ، قضيب تحريك الفحم المحمَر؛ أزهار أرجوانية وأزهار خضارها يميل للون الرمادي: شعور ما مألوف يضم الكُل معًا.

ربما كان شعورًا بالكمال، منذ عشرة أعوام، حين كانت تقف تقريبًا

حيث تقف الآن، هو ما جعلها وقتها تقول إنها واقعة ولا بد في حب هذا المكان. للحب ألف شكل. وربما هناك عشاق موهبتهم أن ينتقوا عناصر الأشياء ويجمعوها معًا وهكذا، فيمنحوها كمالًا ليس متوفرًا في حيواتها، ويصنعوا من مشهد، أو لقاء مع أشخاص (الجميع مضوا الآن وتفرقوا)، أحد هذه الأشياء الدائرية المندمجة التي تتمهل فوقها الأفكار، ويلعب الحب.

استقرت عيناها فوق البقعة البنية لقارب السيد رمزي المبحر. افترضت أنهم سيكونون في الفنار وقت الغداء. لكن الريح انتعشت، ولأن السماء تغيرت تغيرًا طفيفًا وكذلك البحر والقوارب اختارت أماكنها، فالمشهد، الذي كان منذ دقيقة مضت يبدو ثابتًا بطريقة إعجازية، أصبح الآن غير مرض. هبت الريح بذيل من الدخان حوله؛ وكان ثمة شيء مزعج بمرسى السفن.

بدا أن التباين في المشهد قد شوش انسجامًا ما في عقلها. شعرت بقلق غامض. وقد تأكد حين التفتت إلى لوحتها. كانت تبدد صباحها. لأنه مهما كان السبب فلم تتمكن من إنجاز تلك الحافة الرهيفة للتوازن بين قوتين متعارضتين؛ السيد رمزي واللوحة؛ وهو ما كان ضروريًا. ربما كان هناك ما هو خطأ في التصميم؟ تساءلت، هل كان الأمر كذلك، هل كان خط الحائط في حاجة للكسر، هل كانت تلك الفوضى من الأشجار أثقل مما ينبغي؟ ابتسمت في سخرية؛ أفلَم تفكر، حين بدأت، أنها قد حلت مشكلتها؟

فماذا كانت المشكلة إذن؟ لا بد أن تحاول الإمساك بشيء يراوغها. لقد راوغها عندما فكرت في السيدة رمزي؛ وهو يراوغها الآن وهي تفكر في لوحتها. راودتها العبارات. راودتها الرؤى. لوحات جميلة. عبارات جميلة.

لكن ما تمنت أن تقبض عليه كان تلك الهزة في الأعصاب، نفس ما يحدث كل مرة عند الشروع في عمل أي شيء. قالت لنفسها، أمسكي بهذا وابدئي من جديد؛ أمسكي بهذا وابدئي من جديد؛ قالتها بيأس، وهي تدفع نفسها بحزم مرةً أخرى نحو حامل اللوحة. فكرت، إنها آلة بائسة، آلة غير فعالة، الأجهزة الإنسانية الخاصة بالرسم أو بالمشاعر؛ فهي تنهار دائمًا في اللحظة الحاسمة؛ وبطريقة بطولية، على المرء أن يواجهها. حملقت، في تجهم. كان هناك السياج الشجري، مؤكد. لكن الإنسان لا يحصل على شيء بالاستجداء بإلحاح. الإنسان يحصل فقط على وهج في العين من التحديق في رسم خط الحائط، أو من التفكير- كانت ترتدي قبعة رمادية. كانت جميلة بشكل مدهش. فكرت، فلتأتِ، إذا كانت ستأتي. لأن هناك لحظات لا يستطيع المرء أن يفكر ولا أن يشعر فيها. فكرت، وعندما لا يستطع الانسان أن يفكر أو يشعر، فأين يكون؟

هنا على العشب، على الأرض، فكرت، وهي جالسة، تعابث بفرشاتها مجموعة صغيرة من أشجار موز الجنة. فالمرج كان خشنًا جدًّا. قابعة هنا في العالم، كما فكرت، لأنها لا تستطيع أن تحرر نفسها من الشعور بأن كل شيء هذا الصباح كان يتشكل للمرة الأولى، وربما للمرة الأخيرة، مثل مسافر، يعلم، حتى بالرغم من كونه نصف نائم، وهو ينظر للخارج من نافذة القطار، أن عليه أن ينظر الآن، لأنه لن يرى تلك البلدة مرةً أخرى مطلقًا، ولا تلك العربة التي تجرها البغال، أو تلك المرأة التي تعمل في الحقول، مرةً أخرى. كان المرج هو العالم؛ كانا هنا معًا، في هذه المحطة المثيرة للخيال، فكرت في ذلك، وهي تنظر نحو السيد كارمايكل العجوز، الذي بدا (على الرغم من أنهما لم

يتبادلا كلمةً واحدةً طول الوقت) أنه يشاركها أفكارها. وربما لن تراه هو أيضًا مرةً أخرى. إنه يزداد شيخوخة. أيضًا، تذكرت، وهي تبتسم ناظرة نحو الخف الذي يتدلى من قدميه، أنه يزداد شهرة. يقول الناس إن أشعاره "بالغة الروعة". لقد جمعوا أشياء كتبها منذ أربعين عامًا ونشروها. وهناك الآن رجل مشهور يُدعى كارمايكل، ابتسمت، وهي تفكر كم عدد الأشكال التي قد يتخذها شخص واحد، كيف كان ذاك الذي يبدو في الصحف، لكنه هنا هو نفسه كما كان دائمًا. بدا نفس الشخص- بل، أكثر شحوبًا. نعم، بدا نفس الشخص، لكن شخصًا ما قال، كما تتذكر، إنه عندما سمع عن وفاة أندرو رمزي (لقى حتفه في ثانية واحدة على إثر انفجار قذيفة؛ وكان من المفترض أن يكون عالما ذا شأن في الرياضيات) فقد السيد كارمايكل "كل اهتمامه بالحياة". تساءلت، ما الذي يعنيه- ذلك؟ هل سار يومًا في ميدان ترافالجار ممسكًا بعصا طويلة؟ هل قلب الصفحات مرارًا وتكرارًا، دون أن يقرأها، وهو جالس في حجرته في غابة سانت جون وحيدًا؟ لم تعلم بما فعل، حين سمع أن أندرو قد قُتل، لكنها مع ذلك شعرت بما في داخله. تبادلا فقط بعض الهمهمات على الدرج؛ تطلعا نحو السماء وقالا إن الجو سيكون صحوًا أو قد لا يكون صحوًا. لكن هذه كانت إحدى طرق معرفة الناس، فكرت: أن تعرف الإطار الخارجي، لا التفاصيل، أن تجلس في حديقة أحدهم وتتطلع نحو منحدرات التلال التي تتماوج باللون الأرجواني متمثلًا في نباتات الخلنج البعيدة. هذه هي الطريقة التي عرفته بها. عرفت أنه تغير بشكلٍ ما. لم تقرأ سطرًا واحدًا من أشعاره مطلقًا. فكرت أنها تعرف طبيعة تلك الأشعار على الرغم من ذلك، مملة وبطيئة الإيقاع وطنانة الألفاظ. كانت

مزخرفة ومصقولة. كانت عن الصحراء والجمال. عن النخيل والغروب. مجردة من المشاعر الشخصية إلى أقصى حد، تقول شيئًا عن الموت، وتقول أقل القليل عن الحب. كان شخصيًّا يفتقر للتعبير عن المشاعر الشخصية. أراد القليل جدًّا من الآخرين. ألم يكن دائمًا يتسلل خلسة ليطوف بشكل أخرق بجوار نافذة حجرة الاستقبال وهو يضع تحت إبطه صحيفةً ما، محاولًا تجنب السيدة رمزي التي لسبب لا يعلمه إلا الله لم يكن يحبها كثيرًا؟ بالطبع، لهذا السبب، كانت دائمًا تحاول أن تستوقفه. قد ينحني لها. قد يتوقف متلعثمًا مترددًا على مضض وينحني بشدة. وقد تسأله السيدة رمزي، منزعجةً من أنه لا يريد أي شيء منها، (كانت لِيلي تسمعها) عما إذا كان يرغب في معطف، بطانية، صحيفة؟ لا، إنه لا يريد شيئًا. (وهنا ينحني) كانت السيدة رمزي تتسم بصفة لم يكن يحبها. ربما كانت براعتها في قيادة الآخرين، أو إيجابيتها مع الأمور، شيء أصيل فيها كأمر واقع. لقد كانت شديدة المباشرة.

(لفت صخبُ انتباهها إلى نافذة حجرة الاستقبال- صرير المفصلات. كان الهواء اللطيف يداعب النافذة).

فكرت لِيلي أنه قطعًا لابد أن هناك أشخاصًا كرهوها جدًّا (نعم، لقد لاحظت أن عتبة حجرة الاستقبال فارغة، لكن هذا بلا تأثير عليها على أية حال. فلم تكن تريد السيدة رمزي في تلك اللحظة)- أولئك الأشخاص الذين كانوا يعتقدون أنها واثقة في نفسها بشكل مفرط، وعنيفة بشكل مفرط.

أيضًا، من المحتمل أن جمالها كان يزعجهم. كانوا يقولون إنه جمال

مضجر، ومتكرر دائمًا! كانوا يفضلون نموذجًا آخر- السمراوات، المفعمات بالحيوية. ثم إنها كانت ضعيفة إزاء زوجها. كانت تتركه يقوم بهذه المشاهد. ثم تتكتم مشاعرها. ولم يعرف أحد على وجه الدقة ما حدث معها. و(لنعود لموضوع السيد كارمايكل وكرهه لها) فلا يمكن للمرء أن يتخيل السيدة رمزي واقفة ترسم، أو متمددة تقرأ، طيلة الصباح في المرج. فهذا أمر لا يصدقه عقل. وبلا كلمة، فالتذكار الوحيد لمشاويرها هو سلة ذراعها، وتمضى إلى البلدة، إلى الفقراء، لتجلس في حجرة نوم صغيرة بلا تهوية. مرات ومرات رأتها لِيلي تذهب في صمت في منتصف لعبةٍ ما، أو منتصف مناقشةٍ ما، وسلتها في ذراعها، مشدودة القامة تمامًا. وكانت تلاحظها في عودتها. فكرت، نصف ضاحكة (لقد كانت شديدة الدقة بشأن أكواب الشاي)، نصف متأثرة (كان جمالها يوقف أنفاس الناس)، وعيناها اللتان تغمضان في ألم تتطلع نحوك. وقد كنتَ هناك مع هاتين العينين.

وقد تنزعج السيدة رمزي لأن أحدهم تأخر عن موعده، أو أن الزبدة ليست طازجة، أو أن إبريق الشاي قد انخدش. وطول الوقت كانت تقول إن الزبدة حين تكون غير طازجة فعلى المرء أن يفكر في المعابد اليونانية، وكم كان الوقت جميلًا وممتعًا معهم هناك في تلك الحجرة الضيقة بلا تهوية. لم تتكلم عنها على الإطلاق- كانت تذهب إلى هناك مباشرةً في مواعيد دقيقة محددة. كانت تذهب مدفوعة بغريزتها، مثل غريزة طيور السنونو في هجرتها إلى الجنوب، وغريزة توجه نبات الخرشوف باتجاه الشمس، محولةً قدرتها على تجنب الخطأ نحو الجنس البشري، بانيةً عشها في قلبها. وهذا، شأن كل الغرائز الفطرية، كان يمثل نوعًا من القلق لمن لا يشاركونها هذه الغريزة؛

ربما للسيد كارمايكل، ولها هي شخصيًّا بالتأكيد. كان هناك تصور أو فكرةٌ ما تدور داخل كل منهما عن عدم فاعلية الفعل، وامتياز الفكرة. وكان ذهابها نوعًا من اللوم لهم، ومنح العالم منعطفًا مختلفًا، مما دفعهم للاعتراض، وهم يرون انحيازاتهم تختفي ، وسيطرتهم على ذلك تتلاشى. أيضًا فعل تشارلز تانسلي ذلك: كان ذلك جزءًا من السبب الذي جعل المرء يكرهه. كان يزعج تناغمات عالم المرء. وماذا حدث له، تساءلت، وهي تحرك أوراق شجيرات موز الجنة المنتشرة حولها بفرشاتها بكسل. لقد حصل على منحته الدراسية. تزوج؛ ويعيش في منطقة جولدر جرين.

ذات يوم ذهبت ذات يوم إلى قاعة عرض وسمعته يتحدث أثناء الحرب. كان يشجب شيئًا ما: كان يتهم شخصًا ما. وكان يلقى موعظة عن الحب الأخوي. وكل ما شعرت به هو كيف يستطيع أن يحب نوعه الذي لا يمكنه التمييز بين لوحة وأخرى، الذي وقف ذات يوم خلفها يدخن التبغ المفروم ("الأوقية بخمسة بنسات، يا آنسة بريسكو") وجعل شغله الشاغل أن يقول لها إن النساء لا يتقِن الكتابة، النساء لا يتقِن الرسم، وهو ما لم يكن هو نفسه شديد الاقتناع به، لكنه لسبب غريب يتمنى ذلك؟ كان هناك هزيلًا محتقنًا ومضطربًا، يلقى موعظته المضجرة عن الحب من منصة (كان هناك نمل يزحف وسط أوراق أشجار موز الجنة بعد أن أزعجته بفرشاتها- نمل أحمر لامع- مفعمًا بالطاقة، يشبه تشارلز تانسلي إلى حد كبير). نظرت وقتها نحوه ساخرة من مقعدها في تلك القاعة شبه الفارغة، وهو ينفخ الحب في ذلك الفضاء البارد، وفجأةً، كان هناك برميل خشبي قديم أو أيٌّ ما كان يهتز إلى أعلى وأسفل وسط الأمواج والسيدة رمزي تبحث عن علبة نظاراتها

وسط الحصى. "أوه، يا عزيزي! يا له من أمر مزعج! لقد فقدتها مرةً أخرى. لا تنزعج، يا سيد تانسلي. فأنا أفقدها آلاف المرات كل صيف"، عند ذلك ضغط ذقنه إلى ياقته، كما لو كان خائفًا من تصديق مبالغة كتلك، لكن بوسعه أن يؤيدها فيما تقوله متغاضيًا عن مبالغتها بسبب حبه لها، ويبتسم ابتسامة شديدة السحر. لابد أنه أفضى لها بأسراره في أحد تلك المشاوير الطويلة حين ينفصل عنهما الناس ويصبحان بمفرديهما. كان يقوم بتعليم شقيقته الصغيرة، أخبرتها بذلك السيدة رمزي. وكانت نفقات تعليمها مجحفة وتفوق قدراته المالية. كانت فكرتها عنه غرائبية، كانت لِيلي تعلم ذلك جيدًا، وهي تحرك أوراق أشجار موز الجنة بفرشاتها. إن تصورات أي شخص عن الآخرين نصفها، على أية حال، غرائبي. فهذا يخدم أغراضًا خاصة به. كان يعتبر بالنسبة لها بديلًا عن كبش الفداء. فقد وجدت نفسها تجلده بالسوط على جانبي خصره الهزيل عندما تكون في حالة مزاجية سيئة. وإذا أرادت أن تكون جادة فيما يتعلق به فعليها أن تمنع نفسها من التأثر بأقوال السيدة رمزي عنه، وأن تراه بعينيها هي شخصيًا.

أقامت جبلًا صغيرًا للنمل كي يتسلقه. أصابتهم بجنون الحيرة والارتباك بهذا التدخل في نظرية الكون الخاصة بهم. ففر بعضهم إلى هذه الناحية، وفر البعض الآخر إلى الناحية الأخرى.

فكرت متأملة، إن الإنسان يحتاج إلى خمسين زوجًا من العيون ليرى بهم. ثم فكرت، إن حتى خمسين زوجًا من العيون ليست كافية لرؤية تلك المرأة رؤية واضحة . فلابد أن من بينهم شخصًا واحدًا على الأقل كان حجرًا

أعمى عن جمالها. شخص كان بحاجة إلى إحساسٍ سري ما، مرهف كالهواء، يسترق به النظر من خلال ثقب المفتاح، ويحيط بها عندما تجلس لتقوم بأشغال التريكو، والكلام، والجلوس بمفردها في صمت عند النافذة؛ يستولي لنفسه ويختزن أفكارها، وخيالاتها، ورغباتها، كالهواء الذي يحتوي دخان سفينة بخارية. فماذا كان يعني لها السياج الشجري، ماذا كانت تعني لها الحديقة، ماذا كان يعني لها أن تنكسر موجة؟ (تطلعت لِيلي إلى حيث كانت ترى السيدة رمزي تنظر، هي أيضًا سمعت موجة تهوي على الشاطئ). وعندئذٍ ما الذي كان يتحرك ويرتجف في ذهنها عندما يبكي الأطفال، "كيف ذاك؟ كيف ذاك؟" أهو صرصار الليل؟ وتتوقف عن شغل التريكو لثانية واحدة. تنظر بانتباه. ثم عندئذٍ تتوقف مرةً أخرى، وفجأةً يتوقف السيد رمزي جامدًا في خطوته أمامها فسرت في بدنها رعدة غريبة وبدا أنها هزتها باضطراب شديد في صدرها عندما توقف هناك ووقف على رأسها وتطلع إلى أسفل نحوها. ورأته لِيلي.

مد يده ورفعها من فوق مقعدها. بدا الأمر نوعًا ما كأنه قد فعل ذلك من قبل؛ كأنه قد انحنى ذات مرة بنفس الطريقة ورفعها من قارب، كان راقدًا على بعد بُوصات من جزيرةٍ ما، مفترضا أن الهوانم من المفترض أن يلقين مساعدة هكذا على الشواطئ من جانب السادة. كان ذلك المشهد عتيق الطراز، وكان يتطلب، تقريبًا، تلك التنورات المنتفخة المبطنة بالأسلاك والبنطلونات الواسعة من أعلى والضيقة من أسفل، على طراز العصر الفيكتوري. تركت السيدة رمزي نفسها تتلقى المساعدة منه، لأنها فكرت (افترضت لِيلي ذلك) أن الوقت قد حان الآن. نعم، عليها أن تقولها الآن.

نعم، ستتزوجه. وخطت ببطء وهدوء على الشاطئ. من المحتمل أنها قالت كلمة واحدة فقط، وهي لا تزال تترك يدها ساكنة في يده. ربما قالت، سأتزوجك، ويدها في يده، لكن ليس أكثر من ذلك. مرةً وراء الأخرى سرت بينهما نفس الرعشة التي تنتاب الجسد وتمر من خلاله- فكرت لِيلي، من الواضح أن ذلك قد حدث بالفعل، فكرت في ذلك وهي تمهد طريقًا لنماها. لم تكن تخترع أو تلفق، كانت فقط تحاول أن تسبر غور شيء تركته سنوات طويلة مطويًا، شيء رأته بأُم عينيها. ففي خشونة واضطراب الحياة اليومية، مع وجود كل هؤلاء الأطفال حولها، وكل هؤلاء الزوار، يعتري المرء شعور من التكرار بشكل دائم- شعور بشيءٍ ما يسقط عندما يسقط شيء آخر، ويصدر عنه صدى يتسلق الهواء ويجعله ممتلئا بالذبذبات.

لكن هذا قد يكون من قبيل الخطأ، وهي تفكر كيف سارا معًا، الذراع في الذراع، بجوار الصوبا، لتبسيط علاقتهما. لم تكن رتابة بلوغ السعادة- هي بدوافعها ونشاطها؛ وهو بارتجافه وكآباته. أوه، لا. سيُصفق باب حجرة النوم بعنف في الصباح الباكر. وسيبدأ مزاجه السيء من مائدة الطعام. وسيصدر أزيزًا بطبقه عبر النافذة. آنئذٍ سيكون لدى جميع من بالمنزل إحساس بأن الأبواب تُصفق والستائر تخفق، كما لو كانت هناك ريح عاصفة هبت والناس يندفعون أمامها محاولين بطريقة متعجلة إغلاق الثقوب في قارب وترتيب الأشياء. لقد التقت بول رايلي هكذا ذات يوم على درجات السلم. وراحا يضحكان ويضحكان، مثل طفلين، كل ذلك بسبب السيد رمزي، الذي عثر في طبق حليبه في الإفطار على حشرة "أبو مقص"، فقذف بكل شيء حوله في الهواء إلى أن وصل إلى الشرفة خارج المنزل.

تمتمت برو، مرعوبة، "أبو مقص"، في طبق حليبه". قد يجد آخرون أم أربع وأربعين. لكنه شيد حول ذاته مثل ذلك السياج من القداسة، وشغل الفراغ بمثل هذا السلوك من الجلال والفخامة حتى أن عثوره على حشرة "أبو مقص" في طبق حليبه كان بمثابة عثوره على وحش.

لكن ذلك أضجر السيدة رمزي، أفزعها قليلا- أزيز الأطباق وصفق الأبواب. وقد يحل أحيانًا بينهما صمتٌ طويل قاس، حين تكون في حالة ذهنية تُزعج لِيلي، وهي شبه مكتئبة، شبه ممتعضة، فتبدو غير قادرة على تجاوز تلك العاصفة بهدوء، أو أن تضحك كما ضحكوا، لكن في إرهاقها ربما تخفي أمرًا ما. كانت تلتف على نفسها وتجلس في صمت. بعد فترة قد يتسكع خلسةً في الأماكن التي كانت فيها- فيتجول تحت النافذة حيث جلست تكتب الخطابات أو تتكلم، لأنها من المفترض أن تنتبه للتظاهر بأنها مشغولة حين يمر بجوارها، وتتجنبه، وتتدعي أنها لم تره. عندئذٍ قد يعود ويلتفت بكل نعومة الحرير، والعذوبة، والأدب، ويحاول كسب ودها بهذه الطريقة. ما يزال من الضروري أن تنأى بنفسها عنه، وفي هذه اللحظة قد تؤكد لفترة قصيرة بعض كرامتها وتعرض مستحقات جمالها الذي كانت عمومًا تفتقر إليها؛ فتدير رأسها؛ أو تنظر هكذا، من فوق كتفها، دائمًا إلى شخصٍ ما بجوارها من قبيل مينتا، أو بول، أو وليام بانكس. وفي النهاية، إذ يقف خارج المجموعة بهيئة تشبه تمامًا كلب صيد الطرائد الجائع (نهضت لِيلي من جلستها فوق العشب ووقفت تتطلع نحو الدرج، ونحو النافذة، حيث رأته ذلك اليوم)، نطق باسمها، مرةً واحدة فقط، كان من جميع النواحي أشبه بذئب يعوى في الجليد، لكنها واصلت الانغلاق؛ نطق باسمها مرةً ثانية،

وهذه المرة أثارها شيء ما في نبرة صوته، فذهبت إليه، تاركةً الجميع فجأة، وسارت معه وسط أشجار الكمثرى، وأحواض الكرنب، وتوت العليق. كان ينبغي أن يخرجا معًا. لكن من خلال أي موقف وبأية كلمات يتبادلانها؟ كانت علاقتهما تتسم بذلك النوع من الإحساس بالكرامة، التفتا، وأخفت هي وبول ومينتا فضولهم وقلقهم، وبدأوا في قطف الأزهار، واللعب بالكرة، والثرثرة، حتى حان وقت العشاء، وحيث جلسا، هو على أحد طرفي المائدة، وهي على الطرف الآخر، كالمعتاد.

"لماذا لا يتبنى أحدكم دراسة علم النبات؟.. مع كل هذه الأذرع والسيقان لماذا لا يقوم أحدكم..؟" هكذا راحوا يتحدثون كالمعتاد، ويضحكون وسط الأطفال. كل شيء كالمعتاد، إلا فقط من بعض الرعدة التي أصابتهم، كما لو كان ثمة نصل مندفع في الهواء، أتى ومضى بينهم كأن المشهد المعتاد للأطفال وهم جالسون حول أطباق الحساء قد أنعش نفسه في عيونهم بعد تلك الساعة وسط أشجار الكمثرى وأحواض الكرنب. فكرت لِيلي أن السيدة رمزي، بشكل خاص، كان لها أن تحملق في برو. كانت تجلس في المنتصف بين أشقائها وشقيقاتها، مشغولة دائمًا، وبدا أنها لا ترى خطأً قد حدث لذلك نادرًا ما كانت تتكلم. وقد لامت برو نفسها كثيرًا بسبب سقوط حشرة "أبو مقص" في طبق الحليب وشحب وجهها عندما قذف السيد رمزي بطبقه من النافذة! وغطست تحت ذلك الصمت الطويل بينهم! على أية حال، فيبدو الآن أن والدتها تعيد ترتيب الأمور، وتؤكد لها أن كل شيء على ما يرام، وتعدها أنه يومًا ما ستحظى بتلك السعادة ذاتها. لقد استمتعت حقًّا بذلك في أقل من عام واحد، على أية حال.

لقد تركت الزهور تتساقط من سلتها، تـذكرت لِيـلي ذلـك، وهي تـدور بعينيها وتعود للوراء كأنما لتنظر إلى لوحتها، التي لم تكن تلمسها، على أيـة حال، بكل قدراتها منتشيةً، متجمدةً فوقها ظاهريًّـا فيمـا تمُـور في العمـق بأقصى سرعة.

تركت زهورها تتساقط من سلتها، تتناثر وتتكوم على العشب في فوضى، وعلى مضض وتردد، لكن بلا تذمر أو شكوى- ألـم تكـن تمتلـك قـدرة الانصياع للكمال؟- هذه أيضًا مضت. في الحقـول، عـبر الوديـان، والزهـور البيـضاء، المنثـورة- هكـذا كان عليهـا أن ترسـمها. كانـت التـلال قاتمـة. صخرية، شديدة الانحـدار. والأمـواج تحتهـا تـرتطم بالـصخور في فظاظـة. ساروا، ثلاثتهم معًا، والسيدة رمزي تسير أمامهم بخطواتهـا الأسرع، كأنهـا تتوقع أن تلتقى أحدهم عند الزاوية.

فجأةً ابيضت النافذة التي كانت تتطلع نحوها بضوءٍ مـا ينبعـث خلفهـا. أخيرًا أتى شخصٌ ما ودخل إلى حجرة الاستقبال، شخصٌ ما كان يجلـس على مقعد. لوجه الله، رجتهم، فليجلـسوا في سـكون هنـاك ولا يـأتوا متعـثرين ليتحدثوا معها. من باب الرحمة، أيًّا من يكـون فقـد بـقي الأمـر سـاكنًا في الداخل؛ مستقرًّا بضربة حظ ليلقي بظل مثلث غريـب الـشكل على العتبـة. عدلت من وضع اللوحة قليلًا. كان أمرًا مسليًا. ربما يكون مفيـدًا. كانـت تستعيد مزاجها الطيب. وعلى الإنسان أن يواصل نظـره لمـدة ثانيـة واحـدة مسترخيًا من كثافة الانفعال، فلم يكن القرار أن تتملص ، ولا أن ترتبـك. فعلى المرء القبض على المنظر- هكذا- في قبضة محكمة وعـدم الـسماح لأي

شيء باقتحامه وإفساده. فكرت أنها كانت تريد غمس فرشاتها بتأن، لتكون على مستوى الخبرة العادية، لتشعر ببساطة أن هذا مقعد، وتلك منضدة، ومع ذلك في الوقت نفسه، أنها معجزة، أنها نشوة. ربما تجد حل المشكلة على الرغم من ذلك. آه، لكن ماذا حدث؟ مرت موجة من اللون الأبيض فوق زجاج النافذة. لابد أن الهواء قد حرك حواشي شيءٍ ما في الحجرة. وثب قلبها بين ضلوعها وكبلها ومزقها.

صاحت، "سيدة رمزي! سيدة رمزي!"، وهي تشعر أن الرعب القديم قد عاد- أن تريد وتريد لكن لا تنال. فهل كان بوسعها أن تسدد ضرباتها لذلك السكون؟ وعندئذٍ، بهدوء، كأنها محجمة، أصبح ذلك أيضًا جزءًا من الخبرة العادية، على نفس مستوى المقعد، والمنضدة. كانت السيدة رمزي- كان ذلك جزءًا من ألوهيتها المكتملة- تجلس هناك ببساطة تامة، على المقعد، تحرك إبرتَي التريكو إلى اليمين وإلى اليسار، تحيك الجورب البني المحمَر، وتلقي بظلها على العتبة. كانت تجلس هناك.

وكما لو كان لديها شيء ينبغي أن تتشاركه مع أحدهم، ومع ذلك لا يسعها أن تغادر حامل اللوحات، وعقلها متخم بما تفكر فيه، وبما تراه، مضت لِيلي ممسكةً بفرشاتها متجاوزةً السيد كارمايكل متجهةً إلى حافة المرج. أين ذهب ذلك القارب الآن؟ والسيد رمزي؟ كانت تريده.

الفصل الثَّاني عشر

انتهى السيد رمزي تقريبًا من القراءة. إحدى يديه تحوم فـوق الـصفحة كأنها على استعداد لأن تطويها بمجرد أن ينتهي منهـا. جلـس هنـاك عاري الرأس والريح تهب فوق شعره، مكشوفًا بـصورة اسـتثنائية لـكل شيء. بـدا طاعنًا في الشيخوخة. فكر جيمس أنه في لحظة يتطلع برأسه نحو الفنـار، وفي لحظة تالية يتطلع نحو مياه الصرف التي تنطلق في الفجوات، كصخرة قديمة مرمية على الرمال؛ بـدا كأنـه أصـبح جـسديًا إلى مـا كان دائمًـا محفـورا في ذهنيهما عنه- تلك الوحدة التي كانت بمثابة حقيقة الأمر الواقع لهما.

كان يقرأ بسرعة شديدة، كأنه متلهف للوصول إلى النهاية. وفعـلا كانـوا شديدي القُرب الآن من الفنار. كان يلوح على البعد في شـكل غـير واضـح، بارزًا ومستقيمًا، ساطعًا بلونيه الأبيض والأسـود، وبمقـدور المـرء أن يـرى الأمواج تتكسر فوق الصخور في شظايا بيضاء كزجاج مهشم. كان بمقـدور

المرء أن يرى التجاعيد في الصخور. كان بمقدور المرء أن يرى النوافذ بوضوح؛ وثمة بقعة من اللون الأبيض في إحداها، وكتلة أعشاب صغيرة خضراء على الصخرة. خرج رجل ونظر نحوهم بمنظاره ثم عاد للداخل مرةً أخرى. فكر جيمس، إنه هكذا إذن، ذلك الفنار الذي كان المرء يراه عبر الخليج كل تلك السنوات، كان مجرد برج بارز على صخرة جرداء. لقد أرضاه ذلك. أكد له شعورًا ما غامضًا عن شخصيته. فكر أن السيدات العجائز إذ يفكرن في الحديقة في المنزل، كُن يجرجرن مقاعدهن هناك في المرج. كانت السيدة بيكويث، على سبيل المثال، تقول دائمًا إنه لطيف جدًّا وحلو جدًّا ومن المفترض أن يكونوا فخورين وسعداء جدًّا به، لكن كأمر واقع، فكر جيمس، وهو يتطلع نحو الفنار الواقف هناك على صخرته، إنه هكذا. نظر إلى والده الذي يقرأ باهتمام شديد وساقاه مثنيتان بإحكام، لقد تشاركوا تلك المعرفة. بدأ يقول لنفسه، بصوت نصف مرتفع، تمامًا بنفس الطريقة التي قالها بها والده، "نحن نقود القارب عكس ريح هوجاء- مؤكدٌ أننا سنغرق".

بدا الأمر كأن دهورًا مرت دون أن يتحدث أحد. كانت كام قد تعبت من النظر إلى البحر. طفت بجوارهم قطع صغيرة من الفلين الأسود، والأسماك كانت ميتة في قاع القارب. لا يزال والدها يقرأ، وجيمس ينظر إليه وهي تنظر إلى جيمس، وقد أقسما أن يقاتلا الطاغية حتى الموت، وراح يواصل قراءاته غير واعٍ بالمرة بما يفكران فيه. فكرت، هكذا نجا بنفسه. نعم، بجبينه العريض وأنفه الضخمة، ممسكًا بكتابه الصغير المبرقش مشددًا قبضته عليه أمامه، هكذا نجا بحياته. ربما تحاول أن تضع يديك عليه، لكنه عندئذٍ، كطائر، سيفرد جناحيه، وينطلق ليستقر بعيدًا عن متناول يدك في

مكانٍ ما بعيدًا فوق جذع شجرة مجدوعة منعزلة. حملقت في امتداد البحر اللا متناهي. بدت الجزيرة ضئيلةً إلى حد أنها لم تعد تبدو كورقة شجر إلا بالكاد. بدت كقمة صخرة قد تغطيها موجة أكبر من باقي الأمواج. مع ذلك، ففي هشاشتها كانت تحتوي كل تلك الممرات، وكل تلك الشرفات، وحجرات النوم- كل تلك الأشياء التي لا تعد ولا تحصَى. لكن مثلما يحدث قبل النوم تمامًا، تُبسّط الأشياء نفسها لتمتلك إحدى التفاصيل فحسب- مما لا يُعد ولا يحصى- القدرة على تأكيد ذاتها، هكذا أحست، وهي تنظر نحو الجزيرة في نعاس، أن كل تلك الممرات والشرفات وحجرات النوم كانت تتضاءل وتختفي ، ولم يبق سوى مبخرة زرقاء باهتة تتأرجح في ذهنها بصورة إيقاعية إلى هذه الناحية وتلك. كانت حديقة معلَّقة؛ كان واديًا، ممتلئًا بالطيور، والزهور، والظباء... كانت تهوي في سبات عميق.

فجأةً، قال السيد رمزي، وهو يغلق كتابه، "هيا بنا الآن"

استيقظت مجفلة، إلى أين؟ إلى أية مغامرة استثنائية؟ أين نرسو، وأين نصعد؟ إلى أين كان يقودهم؟ فبعد صمته الطويل أفزعتهم كلماته. لكن هذا كان عبثيًا. قال إنه جوعان. كان وقت الغداء. وفضلًا عن ذلك، قال، انظروا. "ها هو الفنار هناك. نحن تقريبًا وصلنا".

قال ماكاليستر، مشجعًا جيمس، "إنه يبلي حسنًا، إنه يحافظ على ثبات الدفة جدًّا".

فكر جيمس متجهمًا، إن والده لم يشجعه على الإطلاق.

فتح السيد رمزي لفافته ووزع بينهم الشطائر. ها هو الآن سعيد، يأكل الخبز والجبن مع هؤلاء الصيادين. كان يجب أن يعيش في كوخ ويتسكع حول الميناء وهو يبصق مع الرجال العجائز الآخرين، فكر جيمس في ذلك، وهو يراقبه يقطع جُبنه على قطعة ورق صفراء صغيرة بسكين الجيب الخاصة به.

هذا صحيح، هذا هو، كتمت كام مشاعرها، وهي تقشر بيضتها المسلوقة جدًّا إلى حد الصلابة. والآن شعرت مثلما شعرت وهي في حجرة مكتبه عندما كان الرجل العجوز يقرأ **التايمز**. فكرت قائلة لنفسها، الآن أستطيع أن أفكر كما أشاء، ولن أسقط من أعلى جرف أو أغرق، لأنه موجود هنا، وعيناه عليّ.

في الوقت نفسه كانوا يبحرون بسرعة بالغة بحذاء الصخور لدرجة بالغة الإثارة- بدا كأنهم يقومون بفعلين في وقت واحد؛ كانوا يأكلون طعام الغداء هنا في الشمس، وأيضًا يجتهدون بحثًا عن الأمان وسط عاصفة قوية بعد ما تجاوزوا حطام سفينة غارقة. فهل سيبقى لديهم ماء؟ هل سيبقى لديهم طعام؟ سألت نفسها، وهي تحكي لنفسها قصة وتعي في الوقت ذاته ما هي الحقيقة.

سرعان ما سيخرجون، كان السيد رمزي يقول هذا لماكاليستر العجوز؛ لكن أولادهما كانوا سيرون أشياء غريبة. قال ماكاليستر إنه أتم الخامسة والسبعين من عمره في شهر مارس الماضي، وكان السيد رمزي في الحادية والسبعين. قال ماكاليستر إنه لم يذهب في حياته إلى طبيب، ولم يفقد من أسنانه سِنة واحدة. وهذه هي الطريقة التي يحب أن يعيشها أولاده- كانت

كام واثقة من أن والدها كان يفكر في ذلك، لأنه أوقفها عن إلقاء شطيرة في البحر وقال لها، كما لو كان يفكر في الصيادين وكيف يعيشون حياتهم، إنها إذا كانت لا تريدها فعليها أن تعيدها مرةً أخرة إلى اللفافة. لكنها لا ينبغي أن تلقي بها هكذا هباءً. قال ذلك بحكمة بالغة، فكرت أنه قال ذلك كما لو كان يعرف جيدًا كل الأشياء التي حدثت في العالم فوضعتها في الحال مكانها، عندئذٍ أعطاها، من لفافته، كعكة جنزبيل محشوة بجوز الهند، كأنه نبيل إسباني عظيم، يمد يده بزهرة لسيدة في النافذة (كان أسلوبه شديد الكياسة واللطف). كان مهملًا في ملابسه، وبسيطًا، يأكل الخبز والجبن، ومع ذلك يقودهم في رحلة طويلة حيث، بسبب كل ما تعرفه، سيغرقون.

قال ابن ماكاليستر فجأةً، "ها هنا في هذا المكان غَرِقَت".

قال الرجل العجوز، "ثلاثة رجال غرقوا في هذا المكان الذي نحن فيه الآن". لقد رآهم بنفسه يتعلقون بصارى السفينة. وإذ ألقى السيد رمزي نظرة على البقعة التي يشيرون إليها، فيما كان جيمس وكام خائفين، كان على وشك الانفجار:

لكني أسبح أسفل بحر هائج،

لكنه إن فعل، فلن يتحملوا ذلك؛ سيصرخون عاليًا؛ فهم لا يستطيعون تحمل انفجار آخر من الانفعال الذي يغلي داخله؛ لكن لدهشتهم جميعًا كان كل ما قاله، "آه"، كأنه يفكر مع نفسه. لكن لماذا كل هذه الجلبة حول هذا الأمر؟ فمن الطبيعي أن يغرق الناس في عاصفة، الأمر واضح تمامًا، وأعماق البحر (رش عليهم فتات الخبز من الورقة التي يلف فيها الساندويتش)

ليست أكثر من مجرد مياه في نهاية الأمر. ثم أشعل غليونه وأخرج ساعته. تطلع فيها بانتباه شديد؛ وربما قام ببعض الحسابات الرياضية. في النهاية قال، منتصرًا:

"أنت تبلي بلاءً حسنا!" أدار جيمس دفة القارب كأنه وُلد بحارًا.

هناك! فكرت كام، كأنها تخاطب نفسها فيما كانت تُحدث جيمس في صمت. لقد وصلتَ إليه في النهاية. فقد كانت تعرف أن هذا ما كان جيمس يصبو إليه، وكانت تعرف أنه بعد أن وصل إليه قد حقق سعادته إلى حد ألا ينظر نحوها ولا نحو والده ولا نحو أي شخص آخر. فهناك جلس ويده على ذراع الدفة مستقيمًا كالسهم، يتطلع عابسًا نوعًا ما، ويقطب جبينه قليلًا. كان سعيدًا إلى حد أنه لن يسمح لأي شخص بأن يشاركه مقدار ذرة في سعادته. وها هو والده قد شجعه. وعليهم أن يفكروا أنه كان محايدًا بشكل مثالي. فكرت كام، لكنك وصلت الآن إلى ما كنت تهفو إليه.

غيروا اتجاه القارب، وأصبحوا يبحرون بسرعة، طافين فوق أمواج تهزهم بشدة وتسلمهم من واحدة إلى أخرى بخفة وبهجة كبيرة بجوار سلسلة صخور قرب سطح الماء. إلى اليسار كان هناك صف من الصخور يظهر لونها البني مخترقًا سطح الماء الذي أصبح نحيلاً، وأكثر اخضرارًا، وفي واحدة، على صخرة أعلى، راحت موجة على نحو متواصل تتكسر وتتدفق في جدول صغير من القطرات التي تسقط كوابل من المطر. كان بوسع المرء أن يسمع صوت صفعات الماء ونقره في هذه القطرات المتساقطة ونوعًا من السكوت والهسيس من الأمواج التي تلف الصخور وتتواثب فوقها وتصفعها، كأنها

كائنات وحشية منطلقة تمامًا تتقاذف وتتشقلب وتلهو هكذا للأبد.

الآن أصبح بوسعهم رؤية رجلين في الفنار، يراقبانهم ويستعدان للقائهم.

زرر السيد رمزي معطفه، وأصلح بنطلونه. أمسك بلفافة الورق الأصفر الداكن الكبيرة، غير الملفوفة بإحكام، التي أعدتها نانسي والتى ظل جالسًا وهي على ركبته. ثم في استعداد تام للرسو ألقى نظرة نحو الجزيرة، ربما استطاع بعينيه المصابتين بطول نظر أن يرى تلك الجزيرة التي تشبه في شكلها ورقة شجرة تتضاءل فوق حافة طبق من ذهب بوضوح شديد. تساءلت كام، ماذا يستطيع أن يرى؟ كان كل شيء بالنسبة لها ضبابيًا. ثم تساءلت، فيم يفكر الآن؟ ما الذي يبحث عنه، بتركيز شديد، وانتباه شديد، وصمت شديد؟ راحا يراقبانه، كلاهما، وهو يجلس عاري الرأس ولفافته على ركبته يحملق ويحملق في ذلك الشكل الأزرق الضئيل الذي يبدو مثل دخان يتصاعد من شيء أحرق نفسه. أراد الاثنان أن يسألاه، ماذا تريد؟ أراد كلاهما أن يقولا له، اطلب منا أي شيء وسنعطيه لك. لكنه لم يطلب منهم شيئًا. جلس وراح ينظر نحو الجزيرة وربما يفكر، سنهلك، كل بمفرده، أو ربما يفكر، لقد وصلت إليه. لقد عثرت عليه. لكنه لم يقل شيئًا.

ثم ارتدى قبعته.

قال، "هاتوا هذه اللفائف"، وأومأ برأسه نحو الأشياء التي أعدتها نانسي لهم ليأخذوها إلى الفنار. قال، "اللفائف من أجل حراس الفنار". نهض ووقف في مقدمة القارب، مشدود القامة وطويلًا، فكر جيمس، إنه من جميع النواحي يبدو كأنه كان يقول "ما مِن إله"، وفكرت كام، إنه يبدو كأنه

يقفز في الفضاء، ونهضا كلاهما ليتبعاه وهو ينطلق، بخفة مثل شاب يافع، ممسكًا بلفافته، متجهًا نحو الصخرة.

الفصل الثَّالث عشر

قالت لِيلي بريسكو بصوت مرتفع، "لابد أنه وصل إليه"، وهي تشعر فجأةً أنها منهكة تمامًا. فالفنار أصبح تقريبًا غير مرئي، امتزج كليةً بغيمة زرقـاء، والمجهود الذي بذلته في النظر نحوه ومجهود التفكير فيـه وهـو يرسـو هنـاك، الذي بدا أن كلاهما واحد ونفس المجهود، قد مط جسدها وذهنها إلى أقصى حد. آه، لكنها تحررت. فأيًّا كان ما أرادت أن تمنحه له، عندما غادرهـا هـذا الصباح، فقد منحته له في النهاية.

قالت بصوت مرتفع "لقد رسا، وانتهى الأمر". ثم، وهي تجيش بالانفعال، وتلهث قليلاً، وقف السيد كارمايكل العجوز بجوارها، شـبيهًا بـإله وثـني عجوز، أشعث، بالأعـشاب في شـعره والـرمح الثـلاثي (كانـت مجـرد روايـة فرنسية) في يده. وقف بجانبها على حافة المرج، يتمايل قليلًا بجسده الـضخم وقال، وهو يظلل عينيه بيده :"سيرسون"، وشعرت أنها كانت على حـق. إنهمـا ليسا في حاجة للكلام. إنهما يفكران في نفس الأمور، وقـد أجابهـا دون أن

تسأله شيئًا. وقف هناك كأنه يبسط يديه فوق كل معاناة الجنس البشري وضعفه، فكرت أنه كان يلقي نظرة فاحصة مدققة يمسح بها قدَرهم النهائي، في تسامح وتعاطف. فكرت لِيلي بريسكو بينها وبين نفسها، عندما رأته يسقط يده ببطء، قائلة، ها هو يتوج المناسبة، كأنها رأته يُسقط من عليائه الشاهق إكليلًا من السوسن والزنابق، يتناثر ببطء، ممددًا بطوله على الأرض.

بسرعة، كما لو كان ثمة شيء قد استدعاها، التفتت نحو قماشة اللوحة. كانت هناك- لوحتها. نعم، بكل ما فيها من ألوان خضراء وزرقاء، وخطوطها الممتدة والمتقاطعة، ومحاولتها أن تصنع شيئًا. فكرت، إنهم سيعلقونها في العلِّيَّات، أو يمزقونها. لكن ما الذي يهم في هذا؟ سألت نفسها، وهي تلتقط فرشاتها مرةً أخرى. نظرت نحو الدرجات، كانت فارغة، نظرت نحو قماشة اللوحة، كانت غائمة. بكثافة مفاجئة، كأنها رأتها بوضوح لمدة ثانية واحدة، رسمت خطًّا هناك، في المنتصف. لقد تمت، لقد انتهت اللوحة. نعم، فكرت في ذلك، وهي تضع جانبًا فرشاتها في تعب بالغ، وقالت، كان لديَّ دائمًا رؤيتي الخاصة.

المؤلفة : ڤرچينيا وُولف

روائية بريطانية (1882-1941)، أحد أعلام الرواية الحديثة في القرن العشرين. ساهمت إسهاما فعالاً وكبيرًا في تغيير شكل الرواية الإنجليزية، بتطوير الأسلوب الشعري في السرد من خلال حسها التجريبي.وهي أحد رموز "**تيار الوعي**" في الكتابة الروائية. ألفت طوال حياتها 21 كتابًا.

من أهم أعمالها الروائية: "**ليل ونهار**" (1919)، "**غرفة جاكوب**" (1922)، "**السيدة دالاوي**" (1925)، "**إلى الفنار**" (1927)، "**الأمواج**" (1931)، "**الأعوام**" (1937)؛ فضلاً عن ست مجموعات قصصية، من بينها "**الإثنين أو الثلاثاء**" (1921)، "**حفل السيدة دالاوي**" (1973)، "**منزل كارلايل وتخطيطات أخرى**" (2003).

المترجمة : إيزابيل كمال

ليسانس اللغة الإنجليزية، ودبلوم الأدب المقارن. تكتب الشعر والمسرح.

من ترجماتها المنشورة: "**عدوي اللدود وأحلى سنين**" لـ ويللا كاثر، و"**مناظر من أرض جديدة**" قصص لكاتبات من أمريكا اللاتينية، مسرحية "**سيد العالم**" لـ ألفونسينا ستورني، "**الدليل الصغير لكتابة المرأة العربية**" لـ د. فاطمة موسى، "**أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزي والفرنسي**" لـ د. لويس عوض، "**القصص التي يحكيها الأطفال**" لـ سوزان أنجيل، (حصل على جائزة الدولة التشجيعية)، "**قصص أندرسون**" لـ هانز أندرسون، "**القلعة البيضاء**" لـ أورهان باموق، "**مقدمة فى أدب الطفل**" لـ بيتر هانت، "**عظام النمر**" لـ تيد هيوز، "**كتاب الغابة: مختارات من أجمل قصص كيبلنج**" لـ كيبلنج، "**الضواحي ومسرحيات أخرى**" لـ حنيف قريشي.

صدر من سلسلة "المائة كتاب"

1ـ ثيرفانتيس: **دُون كيخوته**، ترجمة وتقديم الدكتور عبد الرحمن بدوي.

2ـ خُوان رولفُو: **بيدرُو بارَامُو**، ترجمة شيرين عصمت، تقديم محمد إبراهيم مبروك.

3ـ فرانتس كَافكا: **المحاكمة والمسخ**، ترجمة محمد أبو رحمة.

4ـ هنريك إبسن، **بيت الدُّمية**، ترجمة زينب مبارك، تقديم د. كمال الدين عيد.

5ـ إيتالو كالڤينُو: **لو أنَّ مسافرًا في ليلة شتاء**، ترجمة حسام إبراهيم.

6ـ وليم بليك: **أغنيات البراءة والتجربة**، ترجمة حاتم الجوهري، تقديم د. ماهر شفيق فريد.

7ـ البير كامي: **الغَريب**، ترجمة وتقديم عاصم عبد ربه.

8ـ أونُوريه دو بَلزَاك: **الأب جُوريُو**، ترجمة محمد محمد السنباطي.

9ـ وليام فوكنَر: **الصَّخَب والعُنف**، ترجمة محمد يُونس.

10ـ والت ويتمان: **أوراق العُشب**، ترجمة وتقديم سعدي يوسف.

11ـ تشينوَا أتشيبي: **أشياءٌ تتداعَى**، ترجمة وتقديم عبدالسلام إبراهيم.

12ـ ليف تولستُوي: **وفاة إيڤان إيليتش**، ترجمة وتقديم مها جمـال.
13ـ دُوني ديدرو: **جاك القَدَري**، ترجمة وتقديم حسن عبد الفضيل.
14ـ نيقوس كازانتزاكيس: **زوربا اليوناني**، ترجمة وتقديم د. محمد حمدي إبراهيم.
15ـ فدريكو جارثيا لوركا: **الأغاني الغجرية**، ترجمة وتقديم عبد الهادي سعدون.
16ـ جوزيف كونراد: **قلب الظلام**، ترجمة مدحت طه
17ـ صامويل بيكيت: **في انتظار جودو**، ترجمة رانية خلاف، تقديم: د. محمود نسيم.
18ـ جورج أورويل: **1984**، ترجمة وتقديم عمرو خيري.
19ـ مارك توين: **مغامرات هكلبيري فِن**، ترجمة وتقديم نصر عبد الرحمن.
20ـ ڤرچينيَا وُولـف: **إلى الفنـار**، ترجمة وتقديم إيزابيل كمال.
21ـ خورخي لويس بورخيس: **حكايَـات**، ترجمة وتقديم عبد السلام باشا.

شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورافيتلى سابقا)
ت: 23904096 - 23952496

سلسلة
آفاق
عالمية

«إلى الفنار»: إحدى علامات الحداثة الروائية في القرن العشرين، وأهم أعمال البريطانية فرجينيا وولف، إحدى مؤسسي «تيار الوعي» في الرواية العالمية. رواية بلا أحداث خارجية ذات بال، فلا تعنيها أشياء العالم الخارجي، بقدر ما تغوص في العالم الداخلي، غير المعلن وغير المكتَشَف، فيما وراء جذور عملية الإدراك والوعي والنظر إلى العالم، وما يؤسس للعلاقات الإنسانية المتبادلة. هي تعرية للداخل الإنساني، بكل هشاشته وإحباطاته، بكل رغباته الصغيرة وانكساراته، بكل أساه وعجزه عن الخروج من الدوائر المغلقة كسجن أو حلبة صراع.

وترجمة دقيقة، برغم صعوبة الرواية القائمة على نوع من الكثافة القصوى للسرد واللغة، واختلاط الشخصيات، ومحافظة - في نفس الوقت- على الخصائص الأسلوبية الفريدة للروائية الفريدة.

اللوحة للفنان الألماني إدوارد مونخ - تصميم الغلاف: أحمد اللباد

الهيئة العامة لقصور الثقافة
www.gocp.gov.eg

الثمن: ستة جنيهات